

خيول الشمس (ملحمة الجزائر)

# سبيدي فرج

جول روا

الجزء الأول

ترجمة : ضياء حيدر

خيول الشمس «ملحمة الجزائر»

الجزء الأول

# سيدي فرج

تأليف: جول روا

ترجمة: ضياء حيدر

الطبعة الأولى 1432هـ - 2011م

حقوق الطبع محفوظة

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

ملحمة الجزائر : (خيول الشمس). الجزء 1، سيدي فرج  
جول روا

PQ2635.O9654 C5212 2011

.Roy, Jules, 1907-2000

[Chevaux du soleil]

ملحمة الجزائر : (خيول الشمس). الجزء 1، سيدي فرج / تأليف جول روا : ترجمة ضياء حيدر-ط.  
1- أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.

304 ص. : 20x13 سم.

ترجمة كتاب : Chevaux du soleil

تدمك: 4-854-01-9948-978

1. الفصص الفرنسية. ا. حيدر، ضياء. ب.العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي :

Jules Roy

Les chevaux du soleil

Copyright© 1980 by Editions Grasset et Fasquelle.



كلمة

KALIMA

[www.kalima.ae](http://www.kalima.ae)

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 971 2 6314 468 فاكس: 971 2 6314 462



[www.adach.ae](http://www.adach.ae)

أبوظبي للثقافة والتراث  
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 971 2 6215 300 فاكس: 971 2 6336 059

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، ونعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

سیدی فرج

## إهداء

إلى زوجتي تاتيانا التي شاركتني أمل كل يوم وخيبته، على امتداد السنوات العشر التي استغرقها هذا الكتاب.

وإلى كل من ألهمني.

إلى الشخصيات الكبيرة التي جرفتها رياح التاريخ، من البارون دوبريه إلى الجنرال دو بورمون حتى ديغول، وأيضاً إلى أبناء ذاكرتي ومخيلتي، من الجد الأول مارجول إلى كل رجال دو رواي، من الكولونيل غرييه إلى أستاذ روفيغو الذي هو أبي.

إلى كل النساء اللواتي لهن اسم نجمة وقلباً من ألماس، وكل اللواتي لا يهزمن، إلى ذاكرة أمي في ثورتها ثم في خضوعها، إلى دموع إليز.

إلى كل أهلي الذين دمرهم حبهم لأرض احتضنتهم، لمن اعتقدوا أنهم ماتوا عبثاً، كما لكل من سقطوا من أجل كرامتهم ومعتقداتهم، إلى أخي الذي أنهى حياته بالقرب من بيرينيان بهاجس أن تفوته اللحظة التي عليه أن يذهب فيها إلى عمله في محطة القطارات الجزائرية الرسمية.

إلى كل من حارب من أجل الحق، إلى أبناء البقالين من القبائل وعمال المزارع الذين شاركوا في الثورة، إلى من ذبحوا وقتلوا وعذبوا، إلى كل من لم يجدوا أيّ عزاء بعد خسارتهم اللجنة... وإلى من استعادوا كرامتهم بالألم والعنف.

أهدي عملي هذا.

جول روا



## المحتويات

9	.....مقدمة المترجمة
15	.....الجزء الأول - شاطي «سيدي فرج»
15	.....الفصل الأول
40	.....الفصل الثاني
69	.....الفصل الثالث
83	.....الجزء الثاني - الزحف إلى الجزائر
83	.....الفصل الأول
104	.....الفصل الثاني
121	.....الجزء الثالث - حفنة فاصولياء
121	.....الفصل الأول
142	.....الفصل الثاني
157	.....الفصل الثالث
172	.....الفصل الرابع
187	.....البدايات
187	.....انطلاق الحملة
209	.....العبور

---

236	.....	الدنو
263	.....	قضية بكري
280	.....	ما بعد حادثة المروحة
294	.....	التسلسل الزمني



## مقدمة المترجمة

غالباً ما يجري تناول البعد السياسي والاقتصادي أو حتى الثقافي للاستعمار، لكن قلما يجري تناول البعد الاجتماعي والآثار العميقة التي يحدثها الاستعمار - لا سيما ذلك الذي يستمر لأجيال مديدة كحال الاستعمار الفرنسي للجزائر - في حياة المجموعات والأفراد على حدّ سواء. وقد حقّت تسمية هذه الرواية بالملحمة، لا لامتداد أحداثها إلى زهاء مئة وثلاثين عاماً فحسب، بل بصورة أساسية لأنها تصحبنا في رحلة إلى تلك التحولات الاجتماعية التي ضربت جذورها عميقاً ليس في حياة المستعمرين ووعيمهم فحسب، بل أيضاً في حياة المستعمرين ووعيمهم، أو كما يصف الكاتب نفسه ذلك:

«حملة العام 1830، ذلك الغزو الدموي الذي استمر مصهراً للاختبارات، صراع السلطة، التنافس السياسي، الطروحات الكولونيلية ونقيضاتها، الأوهام، ظهور الأفكار الجديدة، صراع الديانات، المسافة مع الوطن الأم، كل هذا يبدو لي حلقة هائلة. حرب 1870 مع ألمانيا، الحرب العالمية الثانية، الصراعات الكولونيلية في مكان آخر، صراع الأمم، مشاكل التوطين، الحنين، الممانعات العنيفة للاستيعاب المستحيل أو التساكن، الميول الانفصالية، العنصرية، الكوارث الطبيعية، كما تمجيد الأحلام الإمبراطورية، كل ذلك كان يزجر كأنما في قفص للأسود. بالنسبة للعائلات التي كانت مركز اهتمامي الأول، والتي أتت من كل أوروبا وخاصة من البحر المتوسط، فقد تصادمت في طموحاتها وشهرتها، بارتباطها أو ابتعادها عن الآخرين، وشكلت العناصر التي تحركت من

خلالها عائلتي الخاصة ذات الأصول المتواضعة، ضمن شبكة مذهلة من العلاقات العاطفية والأحقاد والنكبات والانتصارات وكل ما يشكل حياة البشر لشعب كامل على امتداد الزمن. ثم يأتي المواليد الجدد، ويطرح الموت الذي يخطف شخصيات تعلقنا بها سؤال الوراثة. تغيب شخصية واحدة ويكون علينا إعادة توليدها بشكل آخر، في جيل آخر، لضمان استمرارية الحدث وتواصله مع الورثة في الدم وفي الروح. وعندما لا يكون هناك وريث مباشر، نخلق لاحقاً بعد عدة سنوات، براعم من غصن قريب».

هي رحلة مأساوية إذن نتعرف من خلالها على مصائر أجيال ممتدة، تكاد تكون حياتها صورة عن ذلك العنف الذي عصفت بأرض الجزائر؛ ونقف وجهاً لوجه في الأثناء على الدعاوى الزائفة التي انطلق منها الاستعمار واستمر قائماً عليها، ولا سيما دعوى «تحرير الشعب الجزائري» من محتل آخر أو من حاكم جائر؛ كما نتعرف في ثنايا الرواية وتحولاتها وأحداثها على تلك الظاهرة التي يبدو أن لا مفرّ منها، وهي ولع المستعمرين أو المستوطنين بالأرض التي استوطنوها، حتى يستحيل ما بدأ كذبة أو خدعة إلى واقع سرعان ما يتشظى أمام واقع آخر، وولع آخر، هو ولع سكان الأرض الأصليين - مثلما اعتاد الفرنسيون أن يسمّوا الجزائريين - بأرضهم.

عندما بدأ جول روا كتابة «خيول الشمس» في العام 1966، لم يكن قد مضى على تحرير الجزائر سوى أربع سنوات، وهو ما دفعه كما يقول في مقدمة طبعة العام 1995 من الرواية إلى التردد، «لأنني لم أكن أملك الثقة بالنفس»، بيد أنه تجرّأ أخيراً على خوض المغامرة، لتأتي روايته هذه ليس

فقط من وحي زمنٍ معاشٍ وإنما أيضاً من وحي تجربة عميقة للكاتب نفسه، الذي عاش التجربة الفرنسية في الجزائر بكل أوجهها، حتى تكاد تكون الرواية في أحد مستوياتها، سيرة ذاتية، بنيت على سيرة عائلتين، واحدة منهما هي عائلة الكاتب نفسه، على امتداد أكثر من قرنٍ من الزمن، منذ تاريخ الغزو في 1830 وحتى استقلال الجزائر في 1962، ولتغدو بذلك العمل الملحمي الأهم الذي تمكن من أن يغطي بالكامل مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، وذلك من خلال رصد أعقد تفاصيل الحياة اليومية وأبسطها على خلفية أحداثٍ وشخصياتٍ حقيقية، وغيرها متخيلة غير أنها مستقاة بدورها من شخصيات عرفها الكاتب وعاشها عن كثب.

والأهم أنه حتى التفاصيل اليومية متأية من التجربة الشخصية للكاتب الذي هو نفسه «هكتور كونينغ» في الرواية، الذي ولد مثل «هكتور» في روفيجو (وهي التسمية الفرنسية لمدينة بوقرة خلال احتلال الجزائر) نتيجة علاقة غير شرعية بين أمه المتزوجة من شرطي، واسمها الحقيقي «ماتيلد» كما في الرواية، وأستاذ مدرسي هو أيضاً «ديماتون»، وهو والده الحقيقي. كما انه عاش في الحقيقة تجربة المدرسة الإكليريكية التي غادرها لينتقل إلى الجيش ويعيش تجربة الحرب الفرنسية في الجزيرة الهندو صينية في إطار سلاح الجو، وهي التي ولدت لديه تحولاً كبيراً، ليصبح واحداً من كبار المنتقدين لهذه الحرب وللحرب في الجزائر، ومن المؤيدين لحق الجزائريين في الدفاع عن أرضهم. وهذا ما أعطى هذه الملحمة التي كتبها على امتداد عشر سنوات القدرة على أن ترسم بموضوعية كاملة تجربة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

بيد أن هذه الملحمة بنيت أيضاً على جهدٍ توثيقي هائل يمنح الرواية

ثقلها التاريخي الضروري الذي يجعلها تأريخ حياتي حقيقي للتجربة الفرنسية في الجزائر. والجدير ذكره أن الرواية وضعت في البداية في ستة أجزاء منفصلة صدرت بالتوالي منذ العام 1968 وحتى العام 1972، ثم قام الكاتب بتلخيصها لتقدم عملاً تلفزيونياً عرضه التلفزيون الفرنسي في 1980 في اثنتي عشرة حلقة. ليعود ويجمع في 1995 الأجزاء الستة في مجلد واحد أسماه ملحمة الجزائر.

لم تكن ترجمة هذه الرواية بالعمل البسيط، ومثل الكاتب نفسه عندما بدأ بكتابة ملحمة، فإنني لم أكن واثقة من مقدرتي على خوض غمار مثل هذه المغامرة، خاصة وأن ترجمة مثل هذا العمل لا بدّ من أن تقودنا إلى التاريخ بتشابكاته وتعقيداته، وأيضاً إلى الجغرافيا الجزائرية المعقدة، حيث يصعب في كثير من الأحيان العثور على اسم قرية أو شارع أو الوقوف على كافة تفاصيل واقعة تاريخية معينة، قد تمرّ في السرد بصورة ثانوية، غير أنها قد تكون عائناً أمام الإحاطة بأحداث أكبر وأهم تأتي لاحقاً. هذا ناهيك عن التحدي الذي فرضه أسلوب الكاتب نفسه. ذلك الأسلوب المتسم بالتنقل بين عدة مستويات سردية، تبدأ وصفية مجردة أحياناً لتغوص الشخصية فجأة في رحلة من التدايعات المنفصلة عن السرد الواقعي للأحداث أو لمحادثة ما... غير أن هذا الأسلوب على تعقيده هو ما يمنح ذلك العمق الحقيقي للرواية، وكأنها النسخة المخبأة لها أو للواقع الذي تسرده، وهو وإن كبد المترجم، والقارئ بطبيعة الحال، بعض العناء، إلا أنه يمنحه شعوراً بـ «الأمانة التاريخية».

ضياء حيدر

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا  
 فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا  
 فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا  
 فَأَنْزَنَّ بِهِ نَفْعًا  
 فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا  
 إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ  
 وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَّشَهِيدٌ  
 وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ  
 أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ  
 وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ  
 إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ

سورة العاديات، القرآن الكريم



# الجزء الأول

شاطي «سيدي فرج»<sup>(1)</sup>

## الفصل الأول

فجر الرابع عشر من يونيو 1830. يرافق القارئ الجيش الفرنسي خلال إنزاله على الشاطي، ويتسلل إلى أفكار الجنود ومشاعرهم، ثم يتعرف عن كثب إلى أنطوان بويشو حطاب «مونتسيغور»<sup>(2)</sup>، وأدولف باسبوا، راعي «لي كوس»<sup>(3)</sup>.

### 1

القيظ خانق، ولم يحمل الليل برودة، بل نوعاً من الرطوبة الكثيفة الرخوة. وفي انتظار أن تبدد الرائحة النتنة ويزول تخدر أقدامهم، راح الجنود يلطمون صدور بعضهم بعض ويروون النكات القديمة محتسين النبيذ الوردّي.

في منتصف الليل ووسط جلبة كبيرة بدأت قوافل المراكب بالرسو على الشاطي. أخذ بعض الرقباء يصيحون في الجنود لإسكاتهم، بيد أن

(1) شبه جزيرة سيدي فرج: مدينة ساحلية بولاية الجزائر، تشتهر بكونها المدينة التي شهدت إنزال طلائع القوات الفرنسية الغازية في 1830.

(2) Montségur: مدينة جبلية تقع في جنوب غرب فرنسا.

(3) Causses مجموعة منحدرات كلسية تقع في مرتفعات جبلية في النصف الشمالي في فرنسا وتضم عدداً من القرى.

مسعاهم هذا لم يؤدّ إلا إلى زيادة الأجواء عبثاً. وبدأت سرية من الشعبة الأولى في فوج المشاة بالغناء، فتحمس بعضهم وأخذ يرافق إيقاع النشيد العنيف بعض الشيء، بحركات إيمائية:

قرع الملك الطبول

ليرى كل هؤلاء النسوة<sup>(1)</sup>

هذه الأغنية التي يرافقها أحياناً خبط على الطاومات بالأيدي، هي بالأحرى أغنية حزينة تحمل شيئاً من التأسي النابع من شعور الرجل الذي يغنيها بأن له امرأة جميلة إلى درجة أن يقع الملك في غرامها.

يبدأ قرع الطبول: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، تليه وقفة قصيرة، يتسارع بعده الإيقاع: قرع الملك، تاتاتا بوم بوم الطبول... وحينئذ يدخل الناي ليرافق الغناء، ومعه كتائب الفوج، الواحدة تلو الأخرى، لتتضم بعدها الكتائب من كل الألوية ثم من كل الشعب وتستبدّ بجميع عناصر الجيش، وفي طليعتهم الضباط، نشوة الغناء، فيطلقون عقيرتهم بالغناء وأيديهم بالتصفيق، وسرعان ما يتحولون من التمايل إلى الرقص، ليبدأ بعدئذ بعض معتمري قلنسوات الفرو من الجنود بالرقص بأسلحتهم. يرقصون، نعم، إنهم يرقصون، لأن مغامرة الجزائر قد بدأت.

وفي غضون ربع ساعة، تتحول الأغنية التي انخرط في غنائها، في غير أوانها، كل الجنود المحتشدين على متن السفن، إلى لحن شجيّ متوحش يختلط فيه الحب بالهزل، أما الوجوه الملتمة بالعرق تحت أضواء المشاعل،

(1) إنها الأغنية الشهيرة التي تحكي قصة لويس الرابع عشر وزوجة الماركيز مونتسبان. والتي تقول أن الملك قرع كل الطبول مستدعياً كل النساء وأول امرأة رآها سلبت فؤاده، وصدف أن كانت زوجة ماركيزه، فطلبها منه واعدأ إياه بالتعويض عليه وتعيينه مارشالاً لفرنسا، فرد الماركيز بأنه لو كان احدأ غيره لانتقم منه ولكن بما أنه الملك فعليه ان يطبعه وسلمه زوجته، وغنى لها «وداعاً حبيتي، وداعاً قلبي»...



فتسوط الليل بكلمات هذه الأغنية الموجهة:  
وداعاً جيبتي، وداعاً أيا قلبي،  
وداعاً أيا أُملي!

وتتصاعد أغنيات أخرى وسط الضوضاء.. كل الأغنيات القديمة التي  
يتظاهر القساوسة بعدم سماعها، شأنهم شأن السيد دو بورمون<sup>(1)</sup> الذي لا  
يردد بالطبع معهم هذه اللازمة:  
الجزائر بعيدة عن وترلو  
لا يمكن الهرب من البحر...<sup>(2)</sup>

تلك اللازمة التي لم يحظرها الجنرالات، لأنها تشكل وسيلة ضغط  
على القائد الأعلى، بما تنطوي عليه من رغبة خبيثة في تذكيره بأن أحداً لم  
ينس أحداث<sup>(3)</sup> 1815. ولكن بما أنه لم يكن هناك قادة أكثر قوة من أولئك

(1) Louis Auguste Victor de Ghaisne. comte de Bourmont (1773 - 1846) هو  
مارشال فرنسي، عين وزيراً للحرب العام 1825، واختاره الملك شارل العاشر لقيادة  
الحملة العسكرية على الجزائر، وقد حقق بنجاح مهمته، ولكن ولكونه من مؤيدي  
الملك، أقصي من مهمته ومن وزارة الحرب سريعاً، مع ما يسمى بثورة يوليو التي شهدت  
الإطاحة بشارل العاشر (وهو من عائلة بوربون) وصعود ابن عمه لويس فيليب الأول  
دوق أورليان، والذي سيطاح به من العرش بعد 18 عاماً. وكان هذا يعني انتقال السلطة  
من فرع «بوربون» (التي كان يدين لها بالولاء الكامل السيد دو بورمون) لفرع آخر هو  
«أورليان».

(2) هي أغنية تخص تحديداً حملة الجزائر والتي تنطوي على سخيرية واضحة من السيد دو  
بورمون: ويقول مطلعها ولازمتها: «الجزائر بعيدة عن وترلو/ لا يمكن الهرب من البحر/  
لا تخافوا من خيانة جنرالنا بورمون...». وذلك إشارة إلى اتهام دو بورمون بخياناته  
المتكررة لأسياده، إذ اختار الالتحاق بحكم الإمبراطور بوناپرت بعد سقوط الملكية، ثم  
خان بوناپرت في معركة وترلو ليعود ويلتحق بالملكية التي عادت مرة أخرى بعد سقوط  
بوناپرت.

(3) العام الذي جرت فيه معركة وترلو الشهيرة العام 1815 والتي انهزم فيها الجيش الإمبراطوري  
الفرنسي بقيادة بوناپرت أمام تحالف ضم الجيش الإنجليزي =

الذين خانوا، أي لم يكن هناك من هم أقوى منه لتعيينه قائداً للحملة، فقد كان السيد دو بورمون يمتلك ما يكفي من الثقة بالنفس ليذهب في هذه اللحظة إلى حد طمانة السيد ديسبريز، المسكون بالقلق إلى حد المرض، قائلاً:

«انظر، السيد رئيس الأركان، أرى أن الجنود يتتهجون».

نسي الجنود شهراً من الإبحار الشاق والروائح النتنة والدوار والتكدس والشخير. تضيء السماء فتلوح برسلو<sup>(1)</sup> كتلة سوداء، ومن الطرف المقابل تبرز شبه الجزيرة من العتمة، وفي نور الفجر الشحيح يبدو البحر أشبه بطبقة من الزيت ويصطبغ فجأة بتموجات زهرية.

تدوي فجأة من البروفينس<sup>(2)</sup> طلقة مدفعية تمزق الفجر بلهبها الأحمر، وتعمّ الميناء صيحات الابتهاج. يخرج الرقيب ساعته من حافطتها: لا بدّ من أنها الرابعة فجرًا. عند حافة سفينة الجزيرة، التي يرفرف فوقها علم نقش عليه شعار زهرة الزنبق<sup>(3)</sup>، والذي يحمل إلى شاطئ سيدي فرج سرية القربينيين<sup>(4)</sup> من فوج المشاة الرابع، تخرج إشارة تأمر بالتجديف سريعاً، يعزّزها العريف البحري بصرخات ترافق إيقاع التجديف. وعلى بعد زهاء مئة متر من الشاطئ يبدأ البحارة بالقفز في الماء لمعاينة عمقها، فتلمس

= والبروسي، وكانت هذه المعركة التي أنهت حكم بونابرت. وهي المعركة التي هرب الكونت دو بورمون من المشاركة فيها قبل يومين من اندلاعها نظراً لكونه من الملكيين، ومن أنصار البوربون وهم عائلة ملكية عريقة حكمت لفترات طويلة فرنسا وقد انتزع نابوليون بونابرت السلطة منها ليفرض امبراطوريته. وقد انسحب دو بورمون من المعركة لأنه كان يعرف بأن مصيرها سيكون الفشل وستؤدي حتماً إلى عودة الملكية.

(1) Breslau اسم سفينة حربية مشاركة في الحملة.

(2) اسم سفينة حربية أخرى.

(3) زهرة الزنبق التي كانت شعار العلم الفرنسي قديماً.

(4) القربيني هو جندي مسلح بقربينة (أي بندقية خفيفة).

أرجلهم القاع ولا تتجاوز الماء مستوى بطونهم. ويرتمي حينذاك الجميع في المياه رافعين بنادقهم وجعبهم العسكرية، غير قادرين على مقاومة هذا الإغراء، على الرغم من صيحات الضباط الذين في النهاية حذوا حذو الجنود وقفزوا في المياه.

«هل نقفز نحن أيضاً حضرة الرقيب؟»، سأل بويشو.

أول الواصلين إلى الشاطئ كان قائد فرقة القربينيين، لأنه لم يكن يحمل إلا سيفه ومسدسه وراية سريته.

لم تتأخر الشمس في البزوغ أعلى الجبل الممتد إلى داخل البحر. كان القارب الذي يحمل قيادة الأركان ملتصقاً بمحاذاة البروفينس بالكاد قادراً على التحرك، إلا عندما مرت به قافلة من القوارب مخلفة ورائها خط أمواج متكسرة حرّكت قارب القيادة بعض الشيء. وسرعان ما ملأت المراكب شبه الجزيرة ومنارتها، بل وحجبت نصف خط الأفق، في حين علت الشمس في النصف الآخر؛ شمسٌ ملكيةٌ.

متمسكون بحاجز السفينة الحديدي، كان الضباط المحيطون بالسيد دو بورمون يراقبون المشهد عبر مناظيرهم المكبرة التي رأوا فيها القائد الأعلى واقفاً بقبعته الحربية، وقد تدلى السيف من كتفه بحزام جلدي رفيع ينتهي بميدالية ذهبية، مرتدياً سترة زرقاء قصيرة وبنطالاً أبيض وياقة سوداء، ليبدو رئيس ملائكة بذلك الوجه الصامت كحجر، الذي ارتسم عليه طيف ابتسامة، هو الذي انتظر طويلاً ليثبت أنه كان محقاً بخصوص البارون دو بريه.

## 2

لم يشعروا يوماً بهذا القدر من المرح. حمام حقيقي في مياه رائقة فاترة مغرية، يمكنهم لو تجرأوا أن يغطسوا أجسادهم فيها حتى الأعناق. بعضهم فعل ذلك، رافعاً بندقيته عالياً وواضعاً حقيته فوق رأسه. أمست المياه زهرية بالكامل كسحابة في الغسق بيد أن هذا السحر لم يدم إلا هنيهة. إذ سرعان ما أشرقت الشمس وتحول الشاطئ غطاءً مائياً ذهبياً تعلوه طبقة أرجوانية، تحركها الخطوط التي تشقها الزوارق في الموج وهرج الجنود الذين نزلوا إلى المياه باتجاه الشاطئ المحاط بالطحالب، وعلى مسافة أبعد خط من صخور صفر متفتتة يتشكل بعدها الرمل في كئيبان.

للحظة، خيّل لبويشو أنه، مع صديقه باسبوا، إنما في رحلة استجمام في هذه البلاد المجهولة التي جاء للمشاركة في احتلالها. إنها الأرض الموعودة: سماء دائمة الزرقة، بحر أشبه ببحيرة، أرض مفروشة بالزهور والنساء. المياه تصل أعلى من البطون، مياه شبه دافئة، لاسيما مقارنة بمياه أوروبا الباردة؛ سعادة لا تشبه شيئاً مما اختبروه حتى الآن بين روائح الغلايين وأنبذة الحانات. البحر الغارق في الأفق يخفت لونه كلما اقترب من الشاطئ ليتحول بقاءً خضراً وزهرية كأنما مياهه تستريح فوق قاع مرجاني. عند الميناء تبدو المياه مستقرة. ولكن مع حلول الساعة السادسة فجرأً تقريباً تبدأ الريح الشرقية بالهبوب، وبين الجزيرتين الصغيرتين اللتين تمنحان المزيد من الامتداد لرأس «سيدي فرج» تنفجر دون توقف رغبة ثم تختفي، وأمواج رمادية صغيرة متكسرة تلامس الطحالب حيث من الرائع خلع الثياب المبتلة والركض ثم التمدد بعري تام. بيد أن هذا يبدو في عداد المستحيل، بوجود ذلك الرقيب القميء الذي لا يشغل باله سوى

خدمة قاداته، فمن أجل لفت الأنظار إليه، أخذ يهتف كما كثر من كبار الضباط في شعبة برتزان: «يحييا الملك»، بما أن الملك هو من يوفر له هذه النزهة. وحده الرقيب لم يكن لديه سيف يلوح به. جمع الرجال ثم نشرهم في نصف دائرة تمهيداً لوصول السيد دو بورمون.

وها هي القوارب التي تنقل الجنود والتي تجرها زوارق القطر باثني عشر جذاًف تحمل القائد وضباطه الذين تعلقهم الأرياش<sup>(1)</sup>، مضغوطين كحبات السجق، وملفوفين بالأكياس وحقائب الظهر ولفائف الخرائط والكتب والمسدسات والسيوف وبنادق الصيد، حتى إنهم يبدون مضحكين مع القلادات التي يحملونها وحمالات الأكتاف ومطرات المياه المصنوعة من جلد الماعز، ورزمة البسكويت المحشوة في الكيس الجلدي<sup>(2)</sup>. فمنذ أكثر من ساعة، تحتل الوحدات مع بعض قطع المدفعية الميدان والمربط<sup>(3)</sup> والمزرعة، وقد انتشر عناصرها على مسافة كيلومتر بين الكتيبان التي استكشفوها، وهم يصرخون كمجموعة من صاندي الطرائد، مطلقين من بنادقهم الرديئة بعضاً من الأعيرة النارية الهزيلة المضحكة كما لو أنهم يصطادون الأرانب. وفي الأجواء يتردد أيضاً نباح كلاب الجيش التي هيّجها كل هذا الصخب بعد السباحة التي بللت فرائها. لم يكن هناك

(1) في القرن الثامن عشر، تألفت البحرية الملكية الفرنسية من عدة أقسام، أهمها قسم ضباط السيف الذين يحاربون في البحار، وقسم ضباط الريش الذين يتولون الإدارة في الموانئ وفي السفن والمستعمرات.

(2) sabretache وتعني الكيس الجلدي الذي يحمله الضباط بجانب السيف.

(3) المرَبط والمرابط. المرابط هو اسم يطلق على الشخص الزاهد في الدنيا أي المتصوف وهو أيضاً ولي صالح. والمربط هو الاسم الذي يطلق على القبة التي يسكنها. وتسمى المرابط أيضاً نسبة إلى المرابطة أي ملازمة المكان وهي تسميه تستعمل في البلدان الإسلامية بشمال إفريقيا.

أي عربي، سوى واحدٍ فقط لمحبه بويشو من مركبه، راح بعد أن استقرت فرقة الحرس، يمشي مزهواً عارضاً باستهزاء قرينته كمن يعلن الحرب، إلى أن تعرّض لطلق ناري من أحد القوارب، إلا إذا كان مصدره سلاح المدفعية الذي كان قد وصل البر. وعندما رأى اللهب صوّب مرتين بالخطأ، إلا أن كرة المدفع التي انطلقت بتصويبة غير أكيدة ونالت منه بالصدفة، أوقعتة عن حصانه في حين كان الجنود يراقبون المشهد غارقين بالضحك. أما شجيرات الصبار، التي خشوا في الليلة الماضية من أنها تخفي مدفيعات أو ألغاماً فلم تكن سوى أجمة من الشجر يحركها الهواء. لا أعداء ولا خنادق من أي نوع، وعليه فقد تقدّم لواء البارون بوريه دو مورفان بسهولة شديدة وكأنه يقطع قالباً من الزبدة.

يعلم أنطوان بويشو وباسبوا حقّ العلم أنه كان خطأ من جانب الأعداء ما كان ليرتكب حتى من قبل مجرد جندي مشاة أو رامي قنابل من قوات الإمبراطورية، أو من القوات الملكية، لأن بضع قنابل لحظة اقتراب القوافل كافية لبث الفوضى في المكان، وما كان أحد ليفكر بالاستعراض.

عند السادسة والنصف قفز السيد دو بورمون إلى البحر بمحاذاة الشاطئ، متحركاً بكياسة وخفة من دون مساعدة أحد، مثل قديسٍ أو معلم رقص. هل يعقل أن يكون هذا الرجل قد ارتكب الخيانة<sup>(1)</sup>. إنه يجيد التحكّم بخطواته تماماً كإجاداته القيادة. يمد أنفه كأنه يشم الهواء سعيداً بهذا الحذاء المبلل أكثر مما لو كان في صالة منزل، ينحني ويفرف بكفيه الرمل الأشقر، ثم يتركه ينثال من بين أصابعه، يدير ظهره لجهة الغرب حيث ترتفع الكتبان بيضاء حتى القمم التي تختفي بين الضباب ويمشي

(1) إشارة إلى خيانتة نابوليون في معركة واترلو.

مباشرة باتجاه الشمال خلف شعبة الحراسة، على امتداد الشاطئ باتجاه البرج والمربط عند الهضبة.

يغوصون في الرمال الشديدة النعومة كالغبار والتي يمكن الإحساس بسخونتها حتى من فوق الأحذية، وكلما صعّدوا الكثبان التي تتخللها الصخور، تتكشف أمامهم شبه الجزيرة والمرسى المحتشد بسفن الأسطول التي تعلوها الرايات المرفرفة. أما لجهة الشرق فكان البحر هائجاً أخضر وعالي الموج كثير الزبد، وبمجرد ملامسته لرأس كاكسين<sup>(1)</sup> يرتد مندفعاً باتجاه المرسى الآخر حيث بدأت تتهاذى البواخر بمواقدها العالية التي يتصاعد منها الدخان. وبطريقة غريزية أخذ بويشو يبحث عن الجزائر خلف الهضاب الجرداء، وكأنه يمكن رؤيتها خلف بوزريعة<sup>(2)</sup>. والسماء تحتشد بسحب منخفضة ولكن في أعلى نقطة فيها مرقطة ببعض الغيوم العالية، تلون بلازوردي شبه بنفسجي، لتتقاطع معها قبة القائد الأعلى ذات الكوزين<sup>(3)</sup> وتبدو غريبة مثيرة للسخرية.

### 3

حدث ذلك كله كأنما في حلم، والحلم ما زال مستمراً. شيدت الد تور شيكا<sup>(4)</sup> على كتف جبل صغير تغطي النباتات سطحه الصخري. أكمل الجنود تفرغ حمولتهم من المراكب المبنية من خشب

(1) رأس كاكسين: لسان بحري عند الشاطئ الجزائري، معروف بمنارته.

(2) بوزريعة تقع شمال العاصمة الجزائرية، وهي منطقة باردة مشجرة بالغابات ترتفع 400 متر عن سطح البحر.

(3) القبة ذات الكوزين تعتمر في الجيش الفرنسي منذ أيام الثورة.

(4) Torre Chica ما يعني بالإسبانية أرض الفتاة، وهي منطقة في الجزائر.

السنوبر المحروق، متعلين الصنادل، محتشدين عند الشاطئ ثم محتفين بين الأجمات. ما يهم هنا هو الوزن: فعدا عن التجهيزات الاعتيادية: ملاءة ملفوفة حول حقيبة الظهر، وتلك الحصص الغذائية الشهيرة لخمسة أيام، الأبطال الخمسة من البسكويت التي تكفي خمسة أيام، ورتلان من دهن الخنزير، وحصاة من الجبن الجاف، و300 غراماً من الأرز، ثمن من مسحوق الفاكهة الذي يخلط مع الماء، وليتر من النبيذ. أما ما تبقى فيمكن الاعتماد بشأنه على عاملات المطبخ بأفخاذهن المدربة على المشي وبمعاطفهن التي شدت بالأحزمة على صدورهن، والمحاملات بالأثقال كالبالغال، وعلى باعة الليموناضة الذين يتنقلون بين الصفوف حاملين الجرار على ظهورهم صارخين: «من يريد أن يشرب؟».

كان بويشو يتمتع بقامة طويلة ضخمة قوية البنية، وبفم<sup>(1)</sup> حطاب وعينين صفراوين، وله شهية تثير فرع باسبوا، فهل عانى أهل بويشو طويلاً من الجوع في جبال البيرينيه في منطقة «الأرياج» لكي يجدوا بقرة يقتاتون منها عندما تسنح لهم الفرصة بذلك؟ هؤلاء أيضاً تستبد بهم الثمالة بمجرد أن يشموا رائحة النبيذ، في حين أن الناس في منطقة «لي كوس» أكثر رصانة ورباطة جأش، إلا في ما يخص النساء، عندما تستبد بهم الوحشة فتمتطي خيول النار. ماذا يعرف باسبوا عن بويشو، وماذا يعرف بويشو عنه؟ لا شيء تقريباً، ما عدا أنهما هما الاثنان من فئة المتطرفين؛ بويشو في البأس وهو في النعومة والمكر، فهو موجود هنا بسبب فشل عاطفي، وبويشو الذي يكبره بعشر سنين هو الآخر هنا لأن البؤس قاده في لحظة

(1) استخدم الكاتب هنا كلمة Gueule التي تستعمل للإشارة إلى فم الحيوان، وإلى فم الإنسان ولكن بقصد السخرية أو الذم.



ثمالة إلى مكتب جوال لحشد المتطوعين. «لقد وقّعت»، قال بويشو مبرراً، بيد مرتجفة لأنها كانت معتادة على القبض على جذوع الشجر وليس على

الإمساك بريشة، وقع بويشو على الورقة برسم صليب<sup>(1)</sup>. الأحق!

اعتقد بويشو أن الأمر يستحقّ إلقاء نظرة خاطفة، وأنهم سيدهشون هناك في مونتسيغور لرؤيته بين شخصيات بهذه الأهمية. وعندما خطرت بباله هذه الفكرة غمرته موجة حنان صامته. فالرب يعلم كم سئم حياته هناك، وكم كان مستعداً لترك كل شيء فجأة، كما يعلم بأن موجة ما حملته إلى ضابط التجنيد. إذ بإمكان الحكومة أن توفر الإعانات، ولن يعود في حاجة إلى الزراعة ولا لأي شيء هناك، لا الجبال والغابات ولا حساء الخنازير ولا الشجارات والمواظ. لقد كذب بخصوص عمره زاعماً أنه في السادسة والعشرين، في حين أنه أكبر من ذلك بثلاث سنوات، أما الوضع العائلي فلم يكن مطلوباً تحديده، لا أحد يهتم لذلك، فقد جنّدوا كل من يتمتع ببنية جسدية جيدة حتى لو كان توقيع رسم الصليب.

اسم الوالد: جيوم. اسم الأم: كاترين شوديه. المهنة: عامل سفن. الحالة الاجتماعية: أعزب. وهل كان ليجرؤ على القول إن له أربعة أطفال. الدراسة: معدومة. الديانة: كاثوليكي.

لقد ندم على اندفاعه هذا. وأحياناً تنتابه الرغبة في نزع متاعه عن ظهره في المسيرات العسكرية التي لا تنتهي والارتقاء أرضاً دون حراك، أو الاختفاء. فالرب يعلم أنه لعب العديد من الأدوار منذ صغره، «أنطوان بويشو»، «مارجول» أو «كويك»، إنما مع عصا في اليد وبقجة على الظهر، لا مع حمولة البغال هذه؛ اثنا عشر أو خمسة عشر أو عشرون كيلوغراماً

(1) كان يجري اعتماد رسم الصلب بدلاً من التوقيع في حال كان الموقع أمياً.

تهذ الكنف وتخنفه وتلوي عموده الفقري وتسحق رأسه، هذا ناهيك عن ثقل المعطف الطويل المبلل الذي يزيد من ضغط ياقة القميص المشدودة أصلاً والبنطال السيء الخياطة الذي يضغط على منطقة ما بين الفخذين، وعن زوج الأحذية هذا الذي جرح قدميه حتى تحوّلنا بعد عامين، وعلى الرغم من كل المراهم والضمادات، إلى كتلة من القروح التي يصعب إيجاد وصف لها، سوى أن هاتين القدمين باتتا أشبه بقائمتي حيوان لا جنس له، وقد تقوّستا، وامتلاتا بالندوب، تحطمتا، بترتا، وبرزت منهما الأظافر كالمخالب في كل الاتجاهات، كما ملأت البثور أخصصهما، وقد اعتاد أن يعرضها بكل فخر اليوم أمام اليافعين، كأنها فئران اعتادت العيش في جرابه. لطالما قال إن كل شيء أفضل من وضع جندي يذهب إلى ما يسمونه تهكماً «أمّ المعارك». ثم فكر أنطوان «ماذا لو فررت؟ سيعثرون عليّ، وسيرمونني بالرصاص ويلقون جثتي بازدراء في حفرة». وإن فرّ من الجنديّة كما يفعل آخرون، عليه أن يتوسّل الحنكة سبيلاً إلى ذلك، ويتحين التوقيت المناسب لذلك، إبان ضربة يسدّها الجيش أو يتلقاها؛ سيستقرّ حينئذ في مكان ما في البلاد المحتلة، يأسر امرأة ما أو يُأسر بها، جندياً لوقت الحاجة، مسلحاً بالقوانين متمتعاً بالموائد العامرة والمضاجع والنساء.

يتذكّر في مثل هذه اللحظات مونتسيغور، تلك القرية المستريحة في واديهّا محمية من الهواء والخنازير البرية التي كان يقتلها، ويتذكر أصحابه القليلين، والليالي التي يغرق فيها بدفء الدبرام والنار تضطرم في عينيه. عندما طُلب متطوعون من أجل حملة الجزائر، رفع يده. لم يبق له سوى تسعة شهور وربما ستة، وقد آن الأوان لينتهي هذه الخدمة بتأقّي، عبر ترقية أو ميدالية أو ما شابه. أو حتى في حال لم يحصل على شيء فقد تكون

المكافأة مغامرة تعوض عن كل شيء. بما أننا نتكلم عن ثروات الداي<sup>(1)</sup>، القصر، الحریم، الترجيلة والجِمال. هنا فرك عينيه الصفراويين. من يعلم، من يعلم؟ أما باقي الأهداف المعلنة، شرف الملك والنصرانية وتجارة العبيد... كان باسبوا يصغره بعشر سنين. يحبو كطفل، أما صوته فبالكاد يخرج من فمه. وهو آت من الفوج الثالث في الشعبة الأولى للمشاة التي يقودها البارون الجنرال برتزين: فوج الجنوب<sup>(2)</sup>، مع آخرين من آفيرون، لو، غار، ليرو، آريج، غارون، من آرشيد ومن فوكلوز، وهو باسبوا أدولف من اللوزير، التي تسكنها الريح منذ سنوات طويلة، ومن حيث انطلق مختاراً بنفسه التوقيت وإن تأخر بعض الشيء، لأن الشرطة لا تزور كثيراً منطقته الهادئة. وهو كما أهل تلك المنطقة يتبنى موقفاً مسالماً قد يُفسّر خنوعاً. ففي حين أن بويشو معترض دائماً، يبدو باسبوا صامتاً مع شيء من الشفقة تجاه أولئك المتظاهرين بالشجاعة، فالماعرز والهواء يجب تركهم يذهبون حيثما يشاؤون، أما القمح فيجب إعطائه الوقت الكافي كي ينبت. فهو لا يزعج نفسه بالانتقاد والاعتراض، يفضل الانسحاب من دون مجادلة حتى العرفاء والرقباء.. يقد الأشهر. ففي النهاية، سيعود إلى منحدراته وإلى سقف بيته الحجري والسهول القاحلة التي تبحث قطعان المواشي فيها عبثاً عما يقيتها، وإلى رائحة الزرائب والشتاءات التي يتخللها ثلج يقطع الطرقات، وتلك الأصائل فوق المساحات السوداء والعواصف التي تنفجر بين المنحدرات الكلسية في منحرجات الوادي. لا يأتي قطّ على ذكر عائلته، ولا نعرف حتى إن كانت لديه ذكرى عن

(1) الداي: لقب سابق لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب.

(2) Midi هكذا تسمى منطقة الجنوب الفرنسي.

فتاة ما. لا يشارك البتة في القداس إلا إذا كان على كتيبه أن تقدم التحية. ولم يتمكن أحد من معرفة ما إذا كان كاثوليكياً أم بروتستانتيًا. جاف ومعقد، يميل للقصر، كثيف الشعر، له قدرة على تحمل التعب وقساوة الطقس كما لو كان صخرة ناعمة، يجيد فن المراوغة، ويمتلك نظراً ثاقباً، وفي منتصف النهار يبدو يتيماً. مودة ما جعلته يتقرب من بويشو الذي يعامله بشيء من السخرية، وكأنه حملٌ. وبشكل غريب، ومن دون أن يتجرأ يوماً على قول ذلك، فإنه يشعر إلى حد ما أنه راعٍ لدى بويشو.

## 4

بدأت المعركة وحبس الجميع أنفاسهم. فوجئوا بالصوت المكتوم العميق للمدافع التركية التي فجرت من قلب الأجمات دخاناً أسود وأبخرة. أخذت دقات قلب أنطوان بويشو تتسارع، إذ سرت شائعة بأن في صفوف العدو جنود مدفعية إنجليز.

ناشد السيد دو بورمون الشعبة الأولى للمشاة ألا تعرّض نفسها لخسائر مجانية، وتوجه بنفسه إلى الجنرال برتزين الذي يبعد عند نحو خمسين متراً، لكنه عاد أدراجه عندما سقطت قذيفة بينه وبين ابنه. وحاول الذهاب ثانية، ولكن بعد خطوات قليلة سقطت قذيفة أخرى أمامه وغمرته بالرمل. فوجئ الجميع في القيادة العامة، ووجد كثير من الضباط والجنود الذين كانوا واقفين أنفسهم وقد ارموا أرضاً. ومن بين سحب الغبار، بدا السيد دو بورمون يقف وحيداً بين ضباطه المساعدين. وبينما يفرك عينيه توجهوا إليه لنفض الغبار عن ثيابه. وبخطى ثابتة، عاد إلى حيث

كان قبل دقائق معدودات. فهل تنبه العدو يا ترى لدقة ضربته هذه؟ في أي حال، أخذت القذائف تنهمر كالشتاء عليهم. وقد أوعز السيد دو بورمون إلى الضباط بخلع قنزعات<sup>(1)</sup> معاطفهم العسكرية التي اعتبرت أهدافاً للتصويب. وبسرعة انتشر كلامه بين الجنود: «للمدفعية الجزائرية قدرة لا بأس بها على التصويب». بويشو لم يفعل شيئاً سوى أنه أحنى ظهره واصطكت ركبته، هذا بالرغم من أن القذيفة لم تحدث دويماً، بل صوت أزيز فحسب قبل لحظة من سقوطها. والآن تلك المدفعية الفرنسية الأتراك من كل اتجاه، من السفن الراسية في الميناء أو من المرتفعات من حيث قصف الجزائر لاهيت في الوقت نفسه مع جنود الصف الأول، بمدفيعاته القابلة للتفكيك والحمل على الظهر نظراً للنقص الكبير في الجياد والبيغال.

وبشكل تدريجي، توقفت القنابل التركية عن الانهمار على قيادة الأركان التي أمر السيد دو بورمون عناصرها بالتفرق. وبالرغم من أن مبرر هذه الأوامر كان واضحاً للعيان، فقد تظاهر بعض الضباط بعدم التنبه لها. كيف يفكرون بالاختباء ما داموا يصعدون من وتيرة القصف بطريقة مركزة. ابتعد الرقيب عن رجاله ليتمكن من سماع التعليمات ثم نادى جنود الاتصال الذين سيحتاج إليهم. أخذ بأسبوا يتنقل خلف المتاريس يتبعه بويشو. كان من المثير أن يجدا نفسيهما للمرة الأولى في السوية نفسها مع القائد الأعلى، وبطريقة ما، أقل عرضة للاستهداف من قبل العدو. ولكن وعلى الرغم من أن الضباط أخفوا قنزعاتهم تحت معاطفهم، فقد احتفظ السيد دو بورمون بقبعته مزدوجة الكوز فوق رأسه.

(1) القنزعة أو الريشة التي تعلق قبعة الجندي تدل على رتبته في الجيش.

واصل الجيش تفريغ الحمولة وبدأت السفن ومراكب الشحن وزوارق الصيد بالجنوح عند الشاطئ بعد تفريغ حمولاتها، ثم استدارت باتجاه السفن الخفيفة التي بدأت صواريخها بالارتجاج. وعلى الشاطئ أخذت صفوف الجنود بالتشكل خلف الرايات التي طالت كالأمواج سعف النخيل الأشبه بذيول الفئران الوبرية، وتخطتها وأكملت طريقها باتجاه السماء. أما بويشو فيفضل أن يكون تحت القنابل من أن يكون في مركز قيادة شعبته، مع خطوات البارون دوبريه الغاضبة التي تنخر رأسه.

ولكن ما هذه الحرارة! العرق يسيل من الأجساد المحبوسة في القمصان القطنية والسترات المشدودة على الرقبة والتي تفتح عند الأوراك وتندلى على الأفخاذ كذيل العققع. يسقط العرق من الجبهة ويقطر من الحواجب كدماء جرح طازج، من تحت معطفه العسكري الطويل الذي تزينه القنزعة وصفائح المعدن والوداجي<sup>(1)</sup> الصدفي الذي يحتك بالوجنتين، وأحزمة حقيية الظهر التي تثقب الكتفين. وعند خصره تثقله الجعبة اللامعة المفتوحة جزئياً بخراطيشها المنظفة، جاهزة لتلقي الأوامر المحكمة التي يجب نقلها بسرعة إلى الشعب.

شعر بويشو بدوار بسيط. أزال عن جبهته قبعة المعطف التي تضم عدة التمشيط والغلايين وكيس التبغ، ثم أسند ظهره بشكل أكثر راحة على المتراس. يفترض أنها الساعة العاشرة. تقاسم الجبنة والبسكويت مع باسبوا. فأن يفرزا هما الاثنان في قسم الخيالة المولجين نقل أوامر القيادة العامة، فهذا دليل نجاح في نظر الزملاء ويفترض أنهم بذلك يعتبرونهما بمعنى ما من صفوف الجنود. ولكن باسبوا يتساءل كيف قيموه؟ أسبب

(1) الوداجي او الحلقي وهو رباط من الجلد يوضع تحت الحلق.

حماسته؟ فهو لم يظهر منها شيئاً. أتكون طاعته؟ كتمانها؟ وماذا عن بويشو؟ أيكون السبب قدرته على الاحتمال أم بلادة ذهنه؟ إنها لقرارات محكمة بالصدفة.

بقي بويشو ساكناً وسط هذا الصخب الشبيه بجلبة مستعمرة نمل في حالة طوارئ، وترك حركة المكان وضجيجه يقودانه. فالشمس منذ وقت طويل جففته وسحبت منه الحيوية. وعلى مدى النظر، احتشد الشاطئ بالبناطيل الحمر التي انتشرت بين الأشجار وتسلفت الكثبان في خطوط وطواير ثم اختفت في الجهة المقابلة، بدفع من السرايا التي أنزلتها الزوارق. يقفز الرجال في البحر متصايحين ويتقدمون وسط زبد الموج المتلاطم. تلمع الحراب وأحياناً يحدث سيف أحدهم بريقاً عابراً.

يحثون جميعاً عن طريقة تقي رؤوسهم الشمس المستقرة في كبد السماء مقلصة ظلالهم، وتبدو قادرة على شيء أجسادهم حتى العظام. يقترب بأسبوا من رقعة مزروعة بالشعير والذرة ومن بستان فاكهة، وفي مكان أبعد تبرز شجرة نخيل أسفل التل بين أجمة أشجار ترتفع منها نخلة ثانية أيضاً. لكن جنود المدفعية سينقلون قريباً جداً مدافعهم الى هنا والخيالة جيادهم، ليدمروا كل شيء.

منذ الصباح، يتردد، كأنما من السماء، صوت صرير، أشبه بموجة تتكسر حيناً مع قليل من الزبد وحيناً يغطي على ضوضاء المعركة المشوشة وجلبة الجنود. ربما كانت النجوم هي التي تهسهس عبر الضباب هذا الحلم الكوني. لأن هذا الطنين الحاد، هذا الصغير الذي يبدو في لحظات كزقزقة الأعماق، هو غناء الزيز العربي الذي يكاد يكون نفسه صوت الزيز الفرنسي في أكثر أيام الصيف قيظاً في أدغال الجبال الكلسية. هنا

يظهر في وقت مبكر لأننا نذهب أكثر باتجاه الجنوب. إيقاع الزيز الفرنسي يبدو أسرع لكنّ غناء الزيز العربي يمتدّ لدقائق من دون توقف. قال باسبوا لبويشو «اسمع». لكن بويشو لم يسمع شيئاً. فما زال يتردد في أذنيه خرير البحر في القواقع.

## 5

مخافة أن تكون مياه البئر تحت شجرة النخيل قد تلوثت، ذهبوا يبحثون عن الماء في مكانٍ آخر. تقرير بوتين كان يفيد بأنه يكفي حفر بضعة أقدام في الرمل للحصول على المياه. فهل كان الربيع جافاً جداً؟ إذ لم تكشف المسوح الأولى سوى عن مياه مالحة قليلاً، لا تصلح إلا لسقي الجياد، لذا وافق القائد الأعلى على أن يذهب أحد الضباط مع كلابه للتأكد من وجود جدول صغير في الجانب الغربي من شبه الجزيرة، ذلك الجدول الذي تلحظه الخارطة تحت اسم وادي «كربور»، يتشكل من تجمع المياه الآتية من أعالي سيدي فرج، ويبدو من البعيد عميقاً جداً. عاد الضابط ليقول: «المياه غزيرة وفي حالة جيدة». وبرفقة الكلاب، كلف أحد أفواج قسم لواردو بمد الجيش بالماء.

سلك ملازم أول يرافقه ثلاثة جنود طريق الشاطئ المستقيم. فمصّب النهر في البحر يقع في منطقة منبسطة جداً إلى درجة أنها تضيع في سلسلة التعرجات المائية. مرت ساعة ونصف الساعة ولم يعد الملازم أول ومرافقوه، فأرسلت الكتيبة التي ينتمي إليها سرية للبحث عنهم. من بين زهور إكليل الجبل، يصعد الجدول حتى أول روافده الذي يحمل اسم وادي البريجة. هنا وجدوا جثث الملازم أول وجنوده مقطوعة الرؤوس،



وقد غطى أعناقها الذباب والدماء التي ما زالت تسيل منها. نقلت جثثهم على حمالات صنعت من أغصان الشجر، وغطيت بخرق الخيم. وتحت تأثير الغضب طالب الفوج بملاحقة القتلة. لكن السيد دو بورمون رفض.

وفي هذه الأثناء تم الاكتفاء بالبئر الواقع تحت شجرة النخيل، إذ اكتشفوا تحت قشرة كلسية سميكة، طبقة من الماء العذب بعمق أربعة أمتار، لذا بدا أن مشكلة التزود بمياه الشفة قد حلت، ومات الملازم وجنوده عبثاً، ولن يجدي تكريمهم المتأخر بشيء. نحيت جثثهم جانباً بانتظار دفنها، بالقرب من ثوب عسكري بقبعة ممزقة، تحت حراسة جندي مدفعية انتصبا جامدين أمام الجثث التي لم تجفف الشمس بعد الدماء التي ما زالت تقطر منها على الحمالات.

بدأ الجرحى بالتدفق إلى الشاطى، تحملهم زوارق آتية من صوب النهر، وراح الجراحون يستعينون بتجهيزات البحرية، لأن المخازن الطبية لم تكن قد ثبتت بعد أعلى الجبل لكي تؤمن لها تيارات الهواء البرودة اللازمة لحفظ المواد الطبية. ومع نهاية اليوم، قضى نحو ثلاثين جريحاً. يبدو أنهم رُموا بقنابل قوية، ثقيلة، هائلة الحجم، مسطحة وقد تكون لولبية، مع ذيل صغير قاطع، صممت لتحدث أضراراً كبيرةً والتهابات خطيرة. إنها اختراع تركي، أو شياطين أخرى، من يدري؟

أسفل شجرة النخيل، نصب ضابط التموين خيمته، وحذا حذوه جميع مساعديه، ومد الخدم في ظل الأشجار الفرش وأدوات المطبخ وموّن الطعام: صناديق المعلبات وقوارير النبيذ الفاخر. وعندما وصلت قافلة الجياد والبغال، حصل كل مسؤول تموين تقريباً على حصان وبغل،

انها الحرب البهيجة بطزاجتها الأولى والتي لن تدوم سوى يوم أو يومين، لأنه كان معروفاً أن العرب لا يتعدون كثيراً وطويلاً عن جبالهم، وبأنهم لا يحملون معهم أكثر من قوت يومين، وعندما تفرغ المؤونة أو تفسد يعودون إلى ديارهم.

مالت الشمس إلى الأفق الذي بدأ يتخلص من الغيوم، وغطت شعبة برتران كل المساحة التي فصلت المضيق الجبلي لشبه الجزيرة بجدار من رماة المدفعية المدججين بالحراب، وحفر فريق الهندسة خنادق وأقام متاريس من حزمات الأغصان والأكياس الرملية في حين رمت البحرية حواجز حديدية على الشاطئ وفي المياه حتى السفن التي أغرقت لتحويلها الى منصات ثابتة ليتمكنوا من سحق المهاجمين بشكل أفضل بنيران مدفعتهم. علم أبيض كبير بزهور الزنبق يرفرف فوق هضبة توري شيكا. الغنائم حتى الآن: اثنا عشر مدفعاً من المسابك العربية، مدفعا هاون بنحت مزخرف كُسى بقشرة سميكة من الفضة ورسوم إسبانية تخلى عنها شارل الخامس<sup>(1)</sup> منذ أكثر من ثلاثة قرون.

دخل بويشو مشعث الشعر، بمعطف عسكري ممزق، ووجه مغطى بالغبار، وقد أضع حقيبة ظهره. فخلال مرافقته ضابطاً إلى الشعبة الأولى ثم إلى لواء «أشار»، ضلّ الطريق ووقع فريسة العرب الذين أطلقوا عليه النار من الأجمات التي اختبأوا فيها حزام البندقية الذي يحمله على كتفه الأيسر وكأنه مزق بالموس. وماخوذاً بما خاله انتصاراً بدأ يروي بصوت عال.

(1) Charles quint ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية من 1500 إلى 1558 ميلادي، واستطاع ان يصبح في فترة وجيزة أقوى حاكم في العالم في حينه.

طلب منه الرقيب البحث عن حقيبة الظهر:  
 «أذهب أنت وابحث عنها»، أجابه بويشو.  
 هل يعتبر رفع الكلفة مع ضابط صفٍ ضرباً من الغطرسة؟  
 «أنت أيضاً رفعت الكلفة معي» رد عليه بويشو.  
 سكت الرقيب فتدخل بأسبوا:  
 «ما بك؟».

فأجابه بحركة فظة: «أنا عائد من هناك».

لقد رأى قوافل من الجرحى وجثة ممزقة ومقطوعة الرأس، تبدو لنقيب مسنٍ. بالنسبة إلى العرب فقد كانوا قادرين حتى هذه اللحظة على التواري، وما عادوا يعرفون نهائياً أين يتمركزون. أحياناً يتركون المستكشفين يمرون حتى يرمونهم من الخلف، أو يتبخر خيالتهم بين الصخور وأحراج السنديان الأخضر مطلقين أعيرتهم النارية وهم يجرون، ثم يتوقفون فجأة ويتراجعون قبل أن يتمكن أحد من تحديد مكانهم.

بعد كلماته الغليظة بعض الشيء، كان يمكن الإفتراض بأنه احتسى الخمرة. في مونتسيغور، يمكن شرب قوارير كاملة من براندي البرقوق أما هنا فالشمس وحدها قادرة على أن تسكرهم. «إنه لماخور، ماخور مفتوح...»، راح يردد بويشو.

مع أن الرغبة لم تكن تنقصه للذهاب إلى «فوا»<sup>(1)</sup>، لم يدخل مرة إلى بيت دعاة قبل انضمامه للجيش، لأنه لم يملك يوماً المال الكافي لذلك، لا مال، إذن لا عاهرات. وعندما أصبح عسكرياً وبات لديه مالا عوض كل ما فاته. كان يعرف ماذا يعني ماخور الجنود، إنه لشيء بائس مثير للشفقة.

(1) Foix بلدة فرنسية تقع في المنطقة الوسطى للبيرنيه.

لكن الجميع هنا يحثون لأوقات السكر مع نساء عاريات على ركبهم. أمام شاطئ سيدي فرج، يغنون ويصخبون، ولكن من دون فوضى ودون الخروج عن النظام، بأفكار مشوشة عن المغامرة التي ستبيح لهم نساء الجزائر، الشهيرات بقدر شهرة سجون الأشغال الشاقة.

أجلسه باسبوا عند أسفل جدار صغير وحل له ياقته، ثم ذهب ليبحث عن الرقيب.

«إنه بفعل الحرّ أيها الرقيب».

## 6

بدأ التحضير للتخييم. توجه عاملو السخرة الى الآبار وأشعلوا النار. في القدور رميت العجائن ولحم البقر المملح. كُذّست أحزمة المؤن والمعدات قرب الشاطئ وما بين خيم كبار الضباط. دخان الخشب الذي أحضر من فرنسا يملأ المعسكر، وبدأت فرق موسيقى الأفواج تعلقو، بعضها بقي في مكانه، وبعضها الآخر وبالرغم من الرمال قاده الوتيرة المتعالية للطبول التي كانوا يضرّبونها بعصيتهم، وسادت في أرجاء المعسكر روح ثورية أشبه بمزاج بويشو: راح الرجال يرمون البسكويت وفردات أحذيتهم الاحتياطية التي كانت تتختم حقائبهم لتتكسد على الشاطئ في كومة كبيرة. وبشكل مثير للاستغراب، لم يبد القادة أي ردة فعل. ما فائدة كل هذه الملابس في ظلّ هذا الحرّ الشديد، ومع كل هذه الوفرة في متناول الجميع؟

مرت النوارس أسراباً متلاصقة الأجنحة بسيدي فرج، واختفت باتجاه قمة كاكسين الصخرية، وكان الهواء قد بدأ تواء بالهبوب. جهاز تلغراف

ثبت عند البرج تبادل الإشارات مع البروفنس.

الليل يمضي سريعاً، بالكاد اختفت الشمس لتطل النجوم بأعداد أكثر بكثير مما هي في فرنسا، تلمع بصفاءٍ ماسيٍّ. نوع من الرقة الناعمة يخيم على المساحة المظلمة وعلى سطح البحر الذي ما زال يلمع، ويتحول البحر إلى سهلٍ عارٍ يميل للسواد: بعيداً، في الطرف الآخر من العالم المتواري، تقع فرنسا.

في السهل، نيران تشتعل واحدة بعد الأخرى، محدثة شرارات ولهباً أحمر، وتتحول تدريجياً إلى نقاط ذهبية مذررة. وعلى الجبال التي تمحي حدودها مع السماء ما يشبه كواكب صفراوية اللون تبرز في الأفق. في الآن نفسه ومن كل الاتجاهات، انطلق ما يشبه موجة من الطنين، في البداية كان خجولاً، ولكنه أخذ يتسع ويهيمن تدريجياً. من أين تخرج هذه الصرخات الحادة؟ فهم يفضلون أن تكون تلك أصوات على أن تكون عرباً يطوقون المخيم من جهة اليابسة، لأن الصمت كان تاماً فوق المنحدر المائي اللّماع حيث تتراقص أضواء منارات المراكب.

بدأوا يتساءلون. التفت الرقيب باتجاه لسان البحر، ليس بعيداً عن المكان حيث رمى الرجال غصون الأشجار والجذور. بلغ الآن الصراخ ذروته، متمزقاً أحياناً بعنف صرخةٍ أو يقطعه عويل الكلاب المتوتر. شخص بعض الجنود نحو العتمة، لاكتشاف ما ظنوه للحظة سرباً من اليوم العربي، وظن بعضهم الآخر بأنه سمع حشود العدو تقترب، الى أن أعلن أحد المترجمين بأنها بنات آوى. فوجئ بعض المستكشفين بهذه الطرائد، التي تشبه الذئب المهجنة بالأرانب، بذبولها الطويلة الخفيفة الغليظة بوبرها المخضّر، والتي تخرج كل مساء للصيد، في قطعان، بدافع

الخوف، ولذلك فهي تطلق هذه الصرخات كي تشعر بالأمان. ليس هناك داعٍ للقلق.

عندما تقرر الطبول إشارة إطفاء النيران في كل الشعب، تعاود الكنايب التشكل في مربع: الرجال في الصفين الأول والثاني ينامون متكئين على حقائبهم، في حين يسهر رجال الصف الثالث الذين يتبدلون كل ساعتين، واقفين والبنادق عند أقدامهم: ساعتان من الحراسة وأربع ساعات من الاستراحة، هكذا يمضي الليل. وعندما يغرق الجنود في نومهم المضطرب، لا يعودون يسمعون سوى نداءات بنات آوى مع التنفس الصامت للبحر، في حين يتمدد جنود قسم الاتصال متلحفين بأغطيتهم، ويتقاسم بأسبوا غطاءه مع بويشو.

«أخبرني»، قال بأسبوا بصوت خفيض.

بدأ بويشو متردداً، ثم اعترف بأن الطلقة التي مزقت حزام بندقيته فجرت شيئاً ما فيه، فقد ثقت الرصاصة، على بعد بضعة أصابع، قلبه.  
«ماذا جئنا نفعل هنا يا بأسبوا؟».

أخفض حقيبته ورفسها بقدميه تحت حزمة مصطكة<sup>(1)</sup> إنه فعل الحرية الأول الذي يمكن أن يمارسه: لا يُقتلون من أجل حقبة ضائعة. شعر بأنه ينتقم لنفسه.

«ماذا؟»، سأله بأسبوا.

لا يمكن لأحد أن يجبر فأراً على الدخول في المصيدة، وبالرغم من ذلك فهو يدخل. من أجل قطعة جبن، هو أنطوان بويشو، ترك مهنته

(1) المصطكة: نوع من الشجر من الفصيلة البطمية يستخرج منه علك تجاري معروف بالـ «مستكة».

كحطاب من أجل أن يأتي ليحارب الأتراك. فقراء جداً، لكن عندما كانوا يجتمعون، كان بإمكانهم إقامة احتفالات صاخبة يشوون فيها خنزيراً مسروقاً، يضربون عسكرياً، أو يقرون بطن خوري. وفي الجبال، يقتل أبناء بويشو الحيوانات ويغتصبون الفتيات اللواتي يغامرن خارج قراهم. كل ذلك عاد فجأة إليه مع هذه الطلقة النارية التي تلقاها من الأتراك. وهذا لا يمنع أنه لو كانت بنديته محشوة بدلاً من أن يكون مجرأ على البحث في حقيته عن خرطوشة، لكان أردى واحداً أو اثنين من الأتراك لو تمكن من ذلك.

كان باسبوا يستمع إلى الحفلة الموسيقية الباروكية الرائعة للسهل في ليالي الصيف في «لي كوس» حيث تداعب صرارات الليل قيثاراتهم، أما هنا فعواء بنات آوى يجعل النجوم ترتجف.

## الفصل الثاني

في هذا الفصل يشهد القارئ مبارزة بين النقيب دو مونتالومبير وقائد بربري، ويسمع اعترافات أنطوان بويشو لنفسه بوقوعه في غرام امرأة تحمل اسم زوجته، متستغراباً لآلامه.

### 1

أمام خيمته أسفل النخلة، كان وكيل التموين العام البارون دينيه يتسم للعمال المولجين تعبئة المياه الذين ينتظرون دورهم أمام الآبار. كان معروفاً بلياقته، فهو يوحى بأنه رجل تافه، من رواد صالون الآنسة مارس، واحدة من مشاهير «الكوميدي فرانسيز»<sup>(1)</sup>، التي عرفت غالباً باسم الآنسة فينوس. وكان يجهد للدخول في عوالم الكبار والمومسات، حاملاً بتوزيع حياته بين الحروب ومتع الحياة. وقد أثمرت موهبته في التملق للحصول على الوظائف الأكثر صعوبة وثباتاً، ليحصل على الرغم من وجود الكثير من الأشخاص المؤهلين، على منصب تنظيم الحملة.

إنه البارون دينيه، رجل المظاهر، لكنه أيضاً رجل القلب. وبالطبع لم يتسلم مسؤولية المؤونة فقط لأن الحظ حال دون أن يؤدي الخدمة كملازم في الخيالة؟ السيد دو بورمون يحب روحه الجميلة التي أنقذ بها بعض المواقف خلال الرحلة. فهو راوٍ لامع على الرغم من عيب في اللفظ يضاف إلى شخصيته الغامضة، ويقدم نفسه كنصير للفنون، وقد أحضر معه مجموعة من الرسامين لكي يسجلوا اللحظات التاريخية. ولو

(1) مسرح فرنسي متخصص بعرض المسرحيات الكوميديّة، تأسس في العام 1680.



لقي اقتراحه آذاناً صاغية لكان خصص مركباً لنجوم الثقافة يضم السيد شاتوبريان، والسيد فينيي، والسيد فيكتور هيغو الذي كان أصدر للتو كتابه «الشرقيون»، وحشداً من ممثلي الكوميديا. بيد أنه أفلح على الأقل في أن يضم إلى مساعديه مدير «لا بورت سان مارتين»<sup>(1)</sup> جان توسين مرل، الزوج الرومنسي والصبور للسيدة المعروفة بسرعة غضبها ماري دورفال.

هذا الصباح شوهد خارجاً من خيمته بمبذل من الحرير الأبيض المطرز برسوم أغصان وزهور مبهرجة الألوان يصل حتى أسفل قدميه، معتمراً قبعة من المخمل وواضعاً سيجاراً في فمه، ليتناول فطوره إلى مائدة مغطاة بمفرش ناصع البياض: قهوة سوداء وبيض. ثم أحضر له خادمه الشخصي لباسه المزخرف وقبعته ثنائية الكوز وسيفه، إذ أن الأوامر تتيح له ركوب الحصان الأصيل الأسود الذي يستخدم للعربات ذوات العجلتين عندما يصطحب البارون ماليران في نزهة إلى الغابة.

طرقات شقت وأماكن استحدثت في المعسكر، وقساوسة يقيمون الصلوات. في المواخير، تتدفق أنبذة السانسير<sup>(2)</sup> وأنجو الوردية والبنش<sup>(3)</sup> لتخفف من رطوبة الليل. أحد عمال مطعم هنيكن من نانت<sup>(4)</sup>، راح يمد طاولات فاخرة تحت حفنة من السنديانات المطلّة على المتوسط. بدا وكأنه

(1) Porte-Saint-Martin وهو مسرح كبير شيد في شارع سان مارتين في باريس في العام 1781 من اجل استقبال الأكاديمية الوطنية للموسيقى، وبعدها تحول إلى مسرح لمختلف العروض الفنية المسرحية والراقصة.

(2) نسبة لمنطقة فرنسية تزرع فيها الكرمة ويصنع النبيذ (Sancerre) والمعروفة خاصة بالنبيذ الأبيض.

(3) شراب مسكر مؤلف من كحول وتوابل مختلفة.

(4) Nantes هي مدينة فرنسية تقع في غرب البلاد.

أفرغ حمولة سفينة كاملة من الأطايب التي اختارها رئيس الطهاة في «كافي دي شارتر»<sup>(1)</sup>! فقائمة الطعام التي طبعت في القصر الملكي، تشمل على لحم مطبوخ بفطر البريغور<sup>(2)</sup> ولفائف اللحم بالخبز، الحجل بالبازيلاء الذي يتم شراؤه من سانت-استيف ومن شامبرتان بأسعار باهظة: لقد تكلف من أجل حفل عشاء واحد، ما لا يجنيه بويشو في شهر كامل.

حضر الضباط جنباً إلى جنب بعض الجرحى الذين ضمدت جراحهم بكمامات مسكّنة، من أجل مؤاساتهم.

مرّ النهار أكثر قيظاً من الليل. وقد استغرق السيد دو بورمون بإنهاء أعمال البناء على شبه الجزيرة، وتصليح التعزيزات الأمامية وتثبيت المدفيعات التي من المفترض أن تحمي المعسكر من أي هجوم محتمل. وقد أوحى هذا التمرکز للأترارك بأن الفرنسيين لا يتجرأون على الذهاب أبعد من ذلك، فبدأوا ثانية بإطلاق النار إلى درجة أن الجنرال برتزين استشاط غضباً وأمر المدفعية بالرد عليهم. وكانت تلك القذائف التي انهمرت على خيالتهم والقنابل التي تناثرت بينهم، كفيلة بسحقهم، لتبلغ حصيلة هذا اليوم بين الطرفين زهاء أربعين قتيلاً وجريحاً حتى إن جثة جندي في قسم الإمدادات في الجيش وصلت مشوهة، وهذا ما أثار موجة من السخط في المعسكر. أن يقطع العرب الرؤوس، ففي النهاية حصل ذلك خلال الثورة إذ قطعوا هم أيضاً الرؤوس ولكن ضد الأرستقراطيين وأعداء الشعب وليس بطريقة عشوائية، في حين أن البدو هنا يذبحونهم كالغنم. يمكن الرؤوس، ولكن الباقي! إذ يحق لهم عند الضرورة بمجزرة، بذبح وتقطيع

(1) أول مطعم كبير في باريس افتتح في العام 1784 ارتاده على مدى قرنين من الزمن كبار المثقفين والساسة.

(2) منطقة مشهورة في فرنسا بفطرها.

روؤوس ولكن ليس انتهاك كرامة الرجال الجنسية. هذا فظيع ويبدو ضد الطبيعة. هذا الموت بهذه الطريقة ينتزع كل كرامة، فإن حصل بالصدفة ولم يهلك الجرحى، فإن الانتهاكات الجنسية ستلحق بهم خزيًا لا يمحي، ليغدو الجنس في الجندية نوعاً من المقدس لم يفكروا من قبل بالتعاطي معه بهذه الجدية، ولتكتسب الكرامة الجنسية أهمية كبيرة تنعكس حتى في طرفاهم: «هل هو محمي جيداً حضرة الرقيب؟ احفظه دافئاً حضرة الرقيب...»<sup>(1)</sup>.

## 2

أشرق الفجر على بحر كتيب ساكن.

عند التاسعة تلبّد الجو ثم اكفّهّر. هكذا فجأة، حتى من دون أي إشارة منذرة. على الشاطئ يربض شيء أشبه بتنفس عملاق ما، ريح شمالية تزار وتنقضّ على الخيم فتقتلعها من أماكنها. المعاطف العسكرية، الطبول، الملابس، الغسيل المنشور على الأجمات، الرماد ووريقات الشجر، كل ذلك يتطاير. في البداية قطرات مطر متفرقة، ثم يبدأ كل شيء بالاختفاء تحت وابل من المطر والبرد، في حين أضاء البرق الشفق المتجهّم الذي اشتعلت فيه العاصفة وبدأ مدفع الإنذار يدوي عند حافة البروفنس.

البحر هو الآخر بدأ فجأة يهدر والأمواج تهاجم المراكب وتكتسح الشاطئ. والجياذ الخائفة تقفز فوق الجنود هاربة باتجاه البر، من جهتي الهضبة حيث البرج. من أين تأتي هذه الجياذ! في البداية شتتها الضجيج فبدأت تعدو بصورة متداخلة، متحاشية الارتطام، قبل أن تعدو خلف

(1) المقصود العضو الجنسي.

بعضها بعض. جياد الجيش استثارت الجياد الملكية في معركة أشبه بمعارك البشر. فسواء أكان المرء عربياً أم فرنسياً فإنه يدرك أن الجياد تخرج عن الطوع وتنفلت كأنما نبتت لها أجنحة، فالصخب عالمها ومملكته. ظن بويشو، الذي أدار ظهره للعاصفة، أنه رآها - من خلف غطاء الوجه الذي وضعه له باسبوا - ترتفع نحو السماء التي ابتلعته، ثم التفت فتبين، وهو نصف مغمض العينين، الكتلة السوداء الغامضة من المراكب المرمية في كل اتجاه، وقد تلامست صواريخها وارتفعت مقدماتها وكادت تنقلب في الزبد الذي يغلي.

يظهر ظل أسود. لا يميّز باسبوا الكلمات التي يصرخ بها هذا الظل، والتي تبدو صبيانية مضحكة وغير مفهومة. ولكنه سرعان ما تعرف إلى الرقيب بفمه الكبير والذي كان يردد مثل كل الرقباء في المعسكر: «الخرطوش، الخرطوش!».

كان يقصد إخفاء ذخيرة الخرطوش المحمية أصلاً في أحزمتها، تحت القمصان حتى ولو لامست البطون، لإبعادها عن الأمطار التي قد تفسدها. «مغفل»، قال بويشو.

وعلى الرغم من ذلك، فقد استجاب للأمر، وحذا حذوه باسبوا وكل الرجال. جاء الرقيب مبللاً يرتعش من البرد وجلس بقربهما، لافاً يديه حول كتفيه والتين بالطبع لا يمكنهما أن تقياه شيئاً. شعر باسبوا بالبرد وقد أصابه الرقيب بعدوى الغضب؛ للحظة ظنه يشهق بالبكاء. بيد أن الرقيب كان يضحك ويلعن السماء، حتى ظنه باسبوا قد جنّ، لكنه فهم لاحقاً أنه يجمع بين الألم وعزة نفس بطريقة لن يفهمها يوماً.

أمام مشهد الإعصار الذي عصف بالبحر، والجياد التي جنّ جنونها،

والمراكب المقلوبة فوق بعضها بعض، ودويّ مدفع إنذار السيد دوبريه الذي يحثّ على النجدة، عادت للجميع ذكرى الكارثة البحرية لحملة الجزائر. كان طوفاناً كهذا قد حطم أسطول الأدميرال دوريا العام 1541. حسناً، قال الجنرال ديسبريز الذي استطال وجهه، سيكون هذا إذن الجزء الثاني من حملة شارل الخامس<sup>(1)</sup>.

العناية الإلهية ستتدخل، أجابه السيد دو بورمون برباطة جأش. شاخصاً نحو الشاطى وقد تبلبل محيّا بالرداذ الذي حملته الهواء، راح السيد دو بورمون يداعب بيده علبة تبغ المذهبة، فهو ظلّ بمنأى عن الاضطراب الذي حلّ بقيادة الأركان. كان يفكر بأنه كان محقاً عندما أجبر البارون دوبريه على الرسو، مما حمى معظم التجهيزات، كما أنه من حسن الطالع أن الباخرة التي كانوا بانتظارها لم تصل بعد. فأينما كانت الآن، هي بالطبع في مأمن أكثر من هنا. وراح يتابع بشيء من الشفقة الجنرال ديسبريز الذي ذهب باتجاه الباب ثم عاد مبللاً، لاويّاً رأسه مغموماً، متنهداً، ساكباً المياه التي دلفت من حافة قبعته على الخرائط التي يحملها. في حين وقف البارون تولوزيه معرضاً نفسه للرياح ليراقب البحر. لقد تمزقت الراية في أعلى البرج.

### 3

لم تكن العاصفة قد هدأت ولا انتصف النهار بعد عندما عادت الجياد

(1) ويقصد هنا الحملة الصليبية الشهيرة التي قادها ملك إسبانيا شارل الخامس. بمشاركة العديد من الدول الأوروبية على الجزائر في 1541 والتي قوبلت بمقاومة عنيفة من الجزائريين إضافة إلى أنها ابتليت بهبوب العواصف والزوابع البحرية التي قلبت سفن الغزاة وخيامهم ومعسكراتهم، وتسبب المطر بإفساد ذخيرة البارود، وبذلك انتهت الحملة بالفشل.

تخبو، هل عاشت مغامرة ما لدى العدو؟ فقد تلطّخ بعضها بالدماء كأنها كانت في خضم معركة، وأخذت تصهل رافعة رقابها البيضاء كالزبد، والعرف والذيل بلون اللهب، تشبه ملائكة القيامة في انفجار نهاية العالم. عادت على الطريق نفسها متقدمة بانتظام، خلف ما بدا وكأنه قائدها. أخذ بويشو يتابعها وهي تهبط باتجاه الشاطئ لتشق رزاز البحر ومرة أخرى بدت وكأنها جنّ جنونها ثانية وأخذت تقفز فوق المراكب التي دفعتها المياه إلى الشاطئ.

فجأة تحول الهواء لجهة الشرق وهدأت حدّة الرياح. كانت ما زالت ممطر، إنما بكثافة أقلّ. انقشعت السماء بعض الشيء وسكن البحر، وبدأت الجياد بدورها تستعيد روعها. وبعد ساعة، كانت الشمس تتوهج في السماء.

فتر فم الجنرال ديسيريز عن ابتسامة خفيفة. وفي جوار السيد دو بورمون بدأ الضباط يخرجون من أقنان الدجاج ومخازن الغلال أو حتى من البراميل التي اتخذوها مخبأ. ودبت الحركة في كل المعسكر، ولكي يثبتوا للأتراك أن الذخائر لم تتضرر، أخذ عناصر من مركز القيادة يطلقون الأعيرة النارية. أشعلت النيران في أنحاء المعسكر لتجفيف الملابس، بيد أن الشمس كانت كافية لتعيد الدفء للقلوب والأجساد. وبدا المعسكر الذي اغتسل بالمطر خارجاً للتو من أحد انتصاراته. ولولا تلك القوارب التي تكدّست بصورة عشوائية على الشاطئ، بين البراميل والصناديق، وسفينة الصيد لا سيغوني التي تبعثرت صواريخها فوق الصخور حيث تكسرت دفة قيادتها، لولا ذلك كله لما بقي ما يشير إلى ما حدث. فالبحر الشاحب المخضر، والذي ما زالت أمواجه تتلاطم محدثة الزبد ما زال يهتز في أعماقه

كزمردة ضخمة. أما الجياد فقد دسّت أنوفها في الجراب<sup>(1)</sup> وبدأت تأكل بهدوء.

في المساء، وصل شيخ عربي يرتدي ثوباً رثاً واتجه إلى عناصر القيادة وأبلغ القائد الأعلى بخطط آغا ابراهيم، إذ عقدت إحدى القبائل العزم على شنّ هجوم على معسكر سيدي فرج يوم غد، وهي تعرض على الفرنسيين إبرام صفقة معها.

سرعان ما بدأ المعسكر برمته يتناقل الأخبار عن انهيار العدو والإجهاد الذي حلّ به، وتمحورت الأحاديث حول دخول الجزائر من دون معركة. أعاد السيد دو بورمون الشيخ محملاً بكلام معسول وبقطعة ذهبية تحمل رسم الملك وبلاغ طبع باللغة العربية في تولون.

قال بويشو: «هؤلاء ليسوا مثلنا».

هذا الكلام الذي كان يتردد في كل المعسكر، يدل على كل ما يفرق بين الطرفين: اللغة، الشيم، الدين وحتى العرق. وبدافع من الجهل، فقد ساهمت هذه النظرية في صعوبة التواصل. وفي حقيقة الأمر، لم يشعر بويشو ولا باسبوا ولا أي أحد من المعسكر بالأسف الشخصي حيال ذلك، مما جعل أيّ كلام عن أن العرب هم بشر مثلهم لا يختلفون عنهم سوى في بعض التفاصيل من قبيل لون البشرة أو إطلاقهم اللحي، مثار استغراب.

غالباً ما كان القادة العرب يقتربون من الخطوط الأمامية ويطلقون النار والقذائف بشجاعة أقرب إلى الجنون، ثم يوقفون فجأة جيادهم ويدعون

(1) وهنا تحديداً هي جراب الطعام التي تعلق في خطم الجياد خلال الحروب والحملات، لعدم توفر معالف ثابتة.

بالإشارات أعداءهم لمقارعتهم واحداً واحداً.

شرح بعض الضباط لمواجهتهم، ووافق الجزرالات على ذلك بهز أكتافهم. فمثل هذه المبارزات تعود إلى حرب طروادة. هل شاهدوا هنيعل شخصياً يتبارى مع سكيبيو<sup>(1)</sup> أو ضباطاً رومان يردون على استفزازات النوميديين<sup>(2)</sup>؟ ففي زمن المعارك التي تلتحم فيها الأفواج، ما عاد هناك أهمية كبيرة للمفاخر الشخصية. ولم يعد ممكناً ربط مصير جيش عصري بعمل بطولي سينقلب غالباً ضده. يجدر بالنقيب دو مونتالمبير، المتحدر من الماركيز الذي وضع نظرية التخطيط المضلع، أن يكون هنا في خطوط الدعم الخلفية، بيد أن الحماسة استبدت به فسبق فوجه إلى المقدمة.

وقف الاثنان، على أهبة الاستعداد. تقدم العربي باتجاه الفرنسي موحياً له بأنه يريد إسقاطه ثم تراجع فجأة والتف عليه ليسدد له من الخلف ضربة سيف. في الصمت الذي ساد بعد توقف المتخاصمين، كان بالإمكان سماع تملل الجياد. في هذه اللحظة اندفع الفرنسي الغاضب من خدعة العربي، النقيب دو مونتالمبير، بحصانه باتجاه العربي لكنه سقط بفعل الضربة التي تلقاها، فلم يتمكن الجنود من كتم صرخات إحباطهم. ولكن بعد أن ظنوا أنه قتل، كان لدى النقيب القدرة أن يسحب سيفه ويسدد ضربته في اللحظة نفسها التي كان يتحضر فيها عدوه للإجهاز عليه، فوقع العربي دفعةً واحدة. وصل إليه عناصر من فوج المرابطة، حملوا النقيب

(1) Publius Cornelius Scipio Africanus والذي يعرف أيضا باسم سكيبيو الإفريقي أو سكيبيو الكبير أو أفريكانوس الكبير (240 ق.م - 183 ق.م) قنصل وقائد روماني خلال الحرب البونيقية الثانية. اشتهر بانتصاره على هنيعل في معركة زاما التي حسمت الحرب البونيقية الثانية، ومن هنا اكتسب لقبه «الإفريقي»، كما يلقب بـ«هنيعل الروماني».

(2) النوميديين، وهم من بلاد نوميديا، والتي تقع على شاطئ الجزائر من الجهة الشمالية وتمتد حتى الحدود مع تونس شرقاً، وقد اشتهروا بمقاومتهم للاحتلال الروماني 46 ق.م.



الغارق بدمائه وبثوبه الممزق، باعتزاز على سرج حصانه نفسه، ذي الرقبة البيضاء كالزبد وأنف أحمر ناري. وباحترام، تركوا العرب يحملون جثة قتلهم.

وفي لحظة، تحول النقيب دو مونتالمبير إلى بطل يريد الجميع تقليده، وساد المعسكر حال من الهيجان وقد بدأ يتحضر للمعركة من دون أن يصدر أمر بذلك. أراد الجنود معركة من دون تأخير، مدفوعين بالغضب مما اعتبروه جرائم العدو.

#### 4

كان بويشو وباسبوا والآخرون، وحتى الجنرالات الذين يقودون الشعب، مقتنعين قليلاً بمهمة تثقيف وتمدين أهل هذه البلاد ونقل الاخلاقيات المسيحية إليهم.

وهذا ما كان قد شدّد عليه أيضاً السيد دو بورمون بهذه الكلمات «هدف الفرنسيين هو الانسانية! أثبتوا أنكم أهل لهذه الرسالة. وأن لا شيء يمكن أن يخطف منكم بريق مآثركم. كونوا شرسين في المعارك وعادلين بعد النصر...». معركة النقيب دو مونتالمبير تذكر بالقدس. ففي النهاية، قد يكون لديه في سلالته، من دفنت عظامه في جبال سوريا وهو في طريقه الى قبر المسيح.

بسخرية انشغل بويشو بمتابعة القساوسة بقبعاتهم ثلاثية الأكواز وأرديتهم الكهنوتية القصيرة التي تكشف عن لفافات الساق والجزمات بالدعامات الحديدية أحياناً، وهم يتفقدون المعسكر موزعين دعوات الغفران والمباركات ومجد الشهادة. فالله يريد هذه الحملة وسوف يحميها.

وهذا، كما قال بانسبوا مجاهراً برأيه، يدخل في البلاهة الكونية. فهو غير مستعجل لدخول جنة المسيح أو جنة محمد.

فعينا بويشو لا تلتمعان إلا عند رؤية التنانير الداعرة لعاملات المطبخ، أو سراويلهن العسكرية المشدودة على أفخاذهن وسيقانهن المطوقة بالأحذية المرنة. «يا إلهي، من المفترض أن أجسادهن تغلي داخل كل هذا!». هناك بينهن واحدة بالتحديد من يرغب بويشو بانتزاع حمالة صدرها لتحرير العصافير التي تختنق داخلها. اسمها فانشون، مثل بطة الأغنية التي نسمعها في كل مكان، والتي حسب كلماتها، ليست من النساء الممارسات لتجارة الجنس.

مشاعر مفاجئة بالافتتان جعلتهما، هو وباسبوا، يحلقان في الليل، جالسين قرب النار، متخيلين أنفسهما كاثنين من الباشوات، يدخنان النارجيلة، والنساء بين أحضانهما وعند أقدامهما. «أيها الأبله باسبوا، أنت رجل حرب، لا رجل رغبات...». وفجأة عاد بويشو بخياله إلى مونتسيغور، لقد قمع طويلاً هذه الرغبة في داخله، كذب عندما قال إنه رحل على هذا النحو بدافع من الضجر فحسب، ولكن في الحقيقة...

في قلب الغابة مع جياده حاملاً فأساً صغيرةً والبنندقية في جانبه، تتأكله رغبات قاتلة، فالمرأة التي تمر من هناك، عمّ تبحث؟ هناك من يمتلك جرأة اللهو، فهم يعرفنه جيداً ويعرفن في أي زاوية يعمل في الغابة، وتتناهى إليهن من بعيد ضربات فأسه أو صوته. أي يمكنهن دائماً أن يتحاشين المرور بقربه. إذن عندما يأتين إلى هنا، ماذا يقصدن بذلك؟

ولكن فتاة الدبرام تحديداً تتجنبه أو تدعي ذلك. فمن رأس الجبل، حيث كان يقطع الشجر شاهداً تهبط مضيق الوادي لتصل إلى السهل حيث

يعمل والدها. راقبها طوال فترة نهاية أكتوبر. وبشكل غير متوقع، حمل الهواء الذي هب باتجاه الجنوب الغربي الثلج في عواصف صغيرة وفي أحد الصباحات تحول إلى جليد. كانت الغابة ما زالت مورقة ووريقات شجر السنديان بالكاد بدأت تصطبغ بالحمرة، وسط أشجار الصنوبر السوداء والدردار المذهبة. وقد يحسب المرء أن الشتاء وصل ويحاصر القرى في حين لا يزال الصيف مشتتلاً في سان - مارتين. برودة الهواء التي تذكر بالفصل الجميل، معطوفاً على حسنه السوداوي الجامح، أنذراه بوجوب الإسراع. يبقى مختبئاً في الكهوف ماصاً الثلج متخيلاً طعم شراب الفاكهة. فعندما حصل على الفتاة ألدبرام، بعد معركة مزق فيها بطنه وشفتيه، عراها تقريباً بالكامل وراح يقبل فخذها ونهديها التي حاولت ان تخبئهما بكفيها. ربما لأنه كان لبطنها طراوة الحليب، ولأنه ما زال يحتفظ بجروح شفتيه، كانت تتآكله رغبة كبيرة لم يعرف لها مثيلاً من قبل.

شيئا فشيئاً، مهزوماً، لم يعد يفكر إلا بها. ومن الطبيعي أن يبدأ هنا التواصل بالإشارات. إذ كان على فتاة ألدبرام أن تلازم منزلها وما كان عليه إلا انتظارها مقهوراً.

في إحدى الليالي التي ثمل فيها والدها، تمكنت من الخروج، فسحبها إلى كوخ عامل سكة الحديد في رأس الجبل. هذه المرة استسلمت، وما إن لمسها حتى اشتعل دمهما رغبةً. كان يجهل أنه وسيم وأنه لهذا السبب يمكن لفتاة أن تغرم به، أو ربما بسبب اسمه، مارجول، الذي يرن جميلاً ويعني رجل شقي، رجل حقير. وعلى الرغم من مرور السنين، فما زالت الذكرى تسفعه.

مر ذاك الشتاء سريعاً كالبرق، عاش فيه كل يوم على أمل أن تلتحق به

فتاة ألدبرام في الجبل وراقبها كل ليلة. وقد شاء القدر أن تحمل زوجته الاسم عينه، وفي كل مرة يعود فيها إلى المنزل، تجتاحه عاصفة كالأم، لأن هذا الاسم - ماري - يستحضر وجه ماري الأخرى وعينيها البرّاقتين كالنجوم. وحينئذ، يحطم شيئاً ما في المنزل ويخرج.

عندما التقى، ذات ليلة في الحانة، رقيب المجندين الذي كان يطوف بحثاً عن متطوعين، قرر الرحيل، حتى إنه لم يعد إلى منزله.

في هذا اليوم، قدم لهم لحم البقر الطازج، الذي يعود الفضل في شحنه معهم إلى ضابط التموين. والآن، وقد سقّف مطعم هنيكِن بأشعة سفن فرشت على مسافة ثلاث ياردات، ووزعت كؤوس الشمبانيا، احتفل النقيب دو مونتالومبير بنصره مع أمراء من آل روائي، تالايRAND، مايي، شاليه، غوتيه دي فيلييه، ورفقاء جيوبهم ملأى باللويسية<sup>(1)</sup> أصطحبهم معه السيد دو بورمون في قيادة أركانه من أجل إضفاء بريق على الحملة، وهم الذين يطلق عليهم هذراً اسم تركيا الفتاة<sup>(2)</sup>. غنوا كثيراً وخاصة فونشون<sup>(3)</sup>، حتى لا يصدمو القساوسة:

إن حدث وكانت متوحشة

فذلك عندما نحدثها عن الحب

وأنا لا أتودد لها

إلا لأتمل معها

(1) Louis لويسية وهي ليرة فرنسية ذهبية بقيمة 20 فرنكاً.

(2) «تركيا الفتاة» هو حزب ثوري قومي نشأ في كل المناطق التي كانت تحكمها السلطنة العثمانية بهدف تحريرها من سلطنة حكم السلطنة، بدعم من الغرب.

(3) Fanchon هي أغنية قديمة «داعرة» يستعمل فيها اسم (fanchon) قصداً لأنه من الأسماء الدينية المعروفة الذي يأتي من اسم (فرانسواز) وهو اسم قديسة، وهو اسم درج كثيراً في فرنسا حتى القرن التاسع عشر وبات نادراً اليوم.

وحتى إنه كان هناك ناي وكلارينيت يرافقان الكورس.  
أما في الجهة الأخرى من البحار، حيث أراد أن يسبح ليغسل روحه،  
كان أنطوان بويشو أو لنسمه مارجول أو حتى كويك، مصدوماً من أنه  
يتعذب.

## 5

بين الرمال والأجمات كان الأتراك في أرضهم، فلا تؤثر بهم الحرارة  
ولا يعانون الظماً، إذ يكفيهم بعض الكعك والتمر. أكثر قدرة على التأقلم  
مما يشاع عنهم، مزودين بجياد يمكنها أن تتخطى الحواجز، قادرين على  
الاستفادة من أدق الأخطاء لدى الفرنسيين، يصبّون حديدتهم على جنود  
المشاة الفرنسيين البطيئين، وينقضون من أي ثغرة كانت. وكأنه الآغا  
الجديد<sup>(1)</sup>، الشاب والطموح.

قرر السيد دو بورمون عدم التحرك أو المواجهة، إلا إذا طرأ أمر غير  
متوقع.

فهو لديه، دون الحاجة إلى سلاح الخيالة ومن دون تحريك قواته، ما  
يمكنه من إحباط مناورات العدو: مدفعية مزودة بمدفع جديد خفيف يمكنه  
إطلاق رشقات متتالية وسريعة من القذائف. وبدل توزيعها على ثلاثة  
شعب، احتفظ السيد دو بورمون بهذه القوة النارية تحت إمرته ليتحكم  
بها كما يشاء. المدفيعات الأربع التي تجرها الجياد ومدفعية الجبل، تحتوي  
على ثلاثين قطعة من عيار «24» و«26» مزودة بما يكفي من القذائف،

(1) ويقصد هنا تحديداً قائد القوات العسكرية الذي كان قد عينه الداى حديثاً مكان الآغا  
السابق.

ومدفعية أخرى بثماني منصات شكلت مفاجأة طال انتظارها، ومائة وخمسين مدفعاً رشاشاً تكتمل هذه القوة المروعة.

ولالإشراف عليها عين السيد دو بورمون مسؤولاً يمكنه التعامل مع شتى المواقف المحتملة: الرجل الأنيق النبيل الذي يتمتع بذهن يقظ حاد القائد الميداني ديكوس دو لاهيت، الذي فصل خلال حرب المائة يوم<sup>(1)</sup> لأنه اعترض على عودة نابوليون، والذي يعتقد أن الجيش يجب أن يبقى بمنأى عن الطموحات الشخصية، في خدمة القادة والوطن بشكل أعمى.

وعلى الرغم من موجات غضبه العارمة لكن السيد لا هيت يتمتع عموماً بصبر وشجاعة مذهلين، ويملك بصيرة نافذة في العمليات السريعة. هذا الرجل الوقور، الذي يميل للحزن، يتمتع بتلك الفطنة الضرورية في المواقف والمعارك ويتواجد دائماً حيث يجب أن يكون.

عند الفجر، ما إن تطلّ الشمس برأسها، حتى تبدأ المناوبة الصباحية. شبه مخدرٍ بعدوبة الليل الذي رطب غطاءه، لم يسمع بويشو طلقة مدفعية

(1) حرب المائة يوم دارت بين الأول من مارس 1815 (وهو تاريخ عودة نابوليون بونابرت الأول إلى فرض الامبراطورية) و22 يونيو 1815 (تاريخ النفي الثاني لبونابرت الأول) والتي خاض خلالها نابوليون معارك ضد تحالف دولي جديد ضده مكون من روسيا وبروسيا وإنجلترا والسويد ثم انضمت إليه النمسا، والذي انتهى بالهزيمة الكبيرة في معركة واترلو، فنزل عن العرش، وسلم نفسه إلى سفينة حربية بريطانية. فنفى إلى سنت هيلانة. وبالعودة إلى بداية حكمه، كان نابوليون الذي توج بعد انتصارات كثيرة واصلاحات داخلية امبراطوراً لفرنسا العام 1804 وملكاً لإيطاليا عام 1805، خاض حروباً كبيرة في أوروبا، وفرض سيطرته على معظم دولها، لكن بريطانيا تمكنت من تكوين تحالف ضده كبده خسائر كبيرة وطاردته جيوش الحلفاء حتى دخلت فرنسا نفسها في العام 1813 فنزل عن العرش ونفي إلى ألبا، ولكنه عاد إلى فرنسا مستغلاً لحظة انشغال الحلفاء في مؤتمر فيينا في العام 1815، واستولى على الحكم مرة أخرى في الأول من مارس وأعد جيشاً كبيراً وخاض معارك استعادة السيطرة التي فشل بها كلها وآخرها معركة واترلو.

واحدة مصدرها خطوط الأتراك، تمطى ثم توجه نحو موضع النار ليعد قهوته.

كان الضباب قد غشا في طبقة صوفية رمادية السهل وصولاً إلى الهضاب الأولى، والشمس أشرقت للتو على الشاطي، عندما اندلعت النيران بشكل مباغت من كل صوب: فقد تسلل الأتراك، على غفلة منهم، واجتازوا الخنادق ودخلوا إلى المعسكر.

بقليل من الانضباط والحظ، تمكن الأتراك من توسيع الشجرة التي فتحت لجهة الشمال وإدخال فرسانهم، الذين عاثوا في المعسكر الفرنسي وباغتوا القائد الأعلى في سريره. ولكن الضباب الذي ساعدهم على اقتحام المعسكر، هو نفسه وقف في طريقهم عندما أرادوا استثمار نجاحهم. أين يذهبون؟ من يتبعون؟ عمّ الأتراك صفوفهم، وشردت خيولهم بمجرد أن انتشرت بهدف الهجوم. وما حققوه في الخطوط الأمامية، بدأوا يبددونهم، ويتصادمون مع جنود المشاة الفرنسيين الذين لم يتأثروا بصراخهم ولم يتركوا أنفسهم يؤسرون بسهولة قبل أن يعيدوا تجميع صفوفهم بسرعة أو يتحولوا إلى صدّ الهجوم مطلقين حراهم على أعدائهم المندفعين من كل اتجاه. وعلى نحو مفاجئ، رأى العرب جنود وحدة المشاة الخفيفة يبادرون - على وقع الطبول - لاستعادة الميدان غير آبهين بالخسائر.

في بعض الأحيان كان هؤلاء الجنود اليافعون يتقدمون باحترافية وكانهم معتادون على الحرب، فجنود السيد دو بورمون، ودونما حاجة إلى بثّ الحماسة فيهم، قد قرروا تصفية حساباتهم مع العرب، لدرجة أن المعركة جرت مقاتل لمقاتل بين الفرنسيين والإنكشاريين<sup>(1)</sup> وأحياناً بين

(1) الإنكشاري هو جندي المشاة في الجيش التركي.

مقاتلين عاديين. وبغير رحمة وبعنف بارد بقرت بطون وغرزت حربات وتطايرت رؤوس وسفك دم على الرمال ورفرفت رايات في السهل وفوق الهضاب.

ومع ارتفاع حرارة الشمس، اشتدّ غناء الزيزان بعد أن بدأ خجولاً، وتموجت بحيرة سيدي فرج الضحلة، بالقرب من البحر المتلألئ، محرّكة معها نباتات الخلنج والمصطكة.

كان الضباب بالكاد قد تبخر، وامتصت الشمس غيومه المنتشرة فوق السهل والهضاب عندما بدأ رجال شاحبون ملطخون بالدم، حاملين بنادقهم على ظهورهم فوق ملابسهم الممزقة، يصعدون نحو المربط ويتمركزون هناك فارشين أمامهم أوراق المهمة التي تحدد ما على شُعب الأقسام الموجة بالربط فعله. وبعد ليلة سهر كاملة، كان السيد دو بورمون ما زال يغط في النوم، فهو معتاد على هذه الضوضاء وصوت المعسكر لا يزعجه. لكن، وللاحتياط فقد طلب الليلة الفاتئة من أحد مرافقيه، النقيب لو مير، أن يوقظه عند أول ضربة مدفعية.

لم يتردد دو بورمون إذن، عندما علم بالهجوم من الجهة اليسرى، وعلى كل الجبهات في الوقت نفسه، في استدعاء الجنرال ديسبريز.

لكن الجنرال هيريل الذي يقود لواء من شعبة دو كار بالنيابة اعترض: ولكن سيدي، هذا كما لو كنا في الأهرام!

حسناً، فلنتصرف إذن كما تصرف بونابرت، أجابه القائد الأعلى. وطلب السيد دو بورمون طعام الإفطار.

وبدأ الجنرال ديسبريز بكتابة محضر الأمر، وكلف الرقيب كل من بويشو وباسبوا بمرافقة الملازم أول دو روي الذي أنيط به نقل الأوامر.



## 6

مضى الملازم أول دورواي الرهيف الخفيف كعصفور مهرولاً. وعند أسفل الهضبة، كان الرصاص يهدر فوق الرؤوس مثل بهائم كامنة في أعماق السماء. «ما الذي يمكنه أن يطلق هذه الصرخة الغريبة؟ قطط مسعورة، نمور؟»، تساءل النقيب.

كان بويشو يقف بحدائه الممتلئ رماً مراقباً من الخلف جهة الشمال، في حين وجد باسبوا الذي كلف بالمراقبة لجهة الجنوب، صعوبة في اللحاق بالضابط. فقد كانا بذلك يراقبان طابور الفوج المتوقف بأكمله، الذي أخفض الجند فيه أسلحتهم حتى أقدامهم متبادلين بعض النكات ثم تحلقوا حول قاعدة من أربع مدفعايات 8 وقذافين 24 جاهزة جميعها لإطلاق النار. أحياناً تغطيهم هبات من الضباب الصاعد من الأرض في حين يدور قرص الشمس اللامع ويتنقل بين الهضاب. سهيل خيول غير مرئي ورايات ملفوفة على جذوعها استقرت بين قطع السلاح وقت الاستراحة وسط كومة الحراب.

كلب، شرد على الأرجح عن رفاقه الموجين باستكشاف المنطقة قبل وصول الفرقة، راح يتجول دون سيده، وكاد بويشو يصوب عليه، عندما رفع الكلب رأسه وعدا مسرعاً. انه كلب رعاية ألماني رمادي يرتفع فروه الكثيف حتى الرقبة، ويتدلى ذيله الأسود الطويل حتى قائمته الخلفيتين. يبدو أنه لا يعاني من الحر. نظر باسبوا حوله، فأحد لم يناد الكلب الذي وقف أمام الضابط يتشمم الأرض كأنه يتبع أثراً ما ثم ابتعد مع الجميع.

فوق حرج الأشجار المتشابكة، وعلى بعد كيلومتر ربما، من تجمع جنود ما زالوا يشربون قهوتهم، كانت البنادق تلمع في حين تتكوّر

غيّمت الدخان الأسود الصغيرة الخارجة من القذائف المدفعية ثم تبدّد على الأرض. فالقيادة العامة للسيد لوفردو تقع في قلب الرمال الحمراء في غابة من أشجار المصطكة والسنديان الأخضر، وتعمل قيادته داخل خيمة مفتوحة من كل الاتجاهات. هنا توقف الملازم أول دو روي وطلب السيد لوفردو.

بعيداً عن ذلك، كان باسبوا يداعب الكلب الذي فتح فمه الكبير وعضه بوّد في يده مهمهماً، وأخذ باسبوا يلاعبه بشقلبته على الرمل لكن الكلب نهض ومدّد إلى جانبه مخفضاً أنفه ملاحظاً ذيله.

«هل تحمل لنا فعلاً أمراً بسحق هؤلاء البشر؟»، سأله نقيبٌ بسترته المليئة بالنياشين العسكرية المذهبة التي تغطي صدره.

وليثبت له أن هذه الأسئلة تتخطى صلاحياته، أظهر الملازم أول دو روي وجهاً خالياً من أي تعبير. بدا أكثر شباباً حتى من باسبوا ذي السالفين اللذين يصلان حتى وجنتيه ليبدوا جزءاً من شعره أكثر مما من لحيته. أما شاربه الرفيع الأشقر فهو إلى الزغب أقرب. ومن كتفه اليمنى أيضاً تدلت الحبال المذهبة، وعلقت بزر سترته. وببساطة طلب من النقيب أن يرسل معه مرشداً، وبإمضاء من ذقنه أشار إلى مرافقيه أن يلحقا به.

هبّ هواء البحر وقذف بكتلة الضباب صوب الهضاب. تردّد دويّ انفجار في السهل، وانطلقت قذائف مدفعية من السفن الراسية في الميناء، وبشكل مفاجئ تحركت المدفعية قديمة الطراز، يجر كل قطعة منها حصانان بدلاً من أربعة كما هي العادة، وتقدمت وسط غيمة من الغبار. بدأ الصراخ وواابل الرصاص بالاقتراب وامتلاً الجو برائحة البارود. سقط العرق من قبعته العسكرية على جبهته، علق بعض الوقت عند حاجبيه ثم استقطر

على أنفه، فمسحه بويشو بكمه. فجأة تفجر رشق المدافع وسادت فوضى هائلة كان يمكن خلالها تمييز هدير اندفاع القذائف من فوهة المدفع والذي كان يجعل الأرض ترتج.

اقرب الكلب الخائف من باسبوا كأنه يريد الاحتماء به وتوقف، ذيله بين قوائمه، ثم وبشكل مفاجئ وبعد نظرة مواربة، أدار ظهره للمعركة وولى الأدبار.

في هذه اللحظة، بدأ سلاح فرسان باي القسنطينة<sup>(1)</sup> من على الهضبتين بقصف الفرقة التي انطلقت للتو بأمر من السيد لوفردو، ولكنه تلقى ضربات قاسية من السفن.

هذا ما رآه السيد دو بورمون الذي كان متحرراً لإعطاء دفع للعملية الانتقامية لجيشه، عندما خرج إلى شرفة خيمته المخروطية ليراقب عبر منظاره المكبر: هذا الإشتباك الكبير لا يشبه مناوشات الأيام السابقة وخاصة أنه يتخلله تقدم باتجاه خطوط الأتراك. وقد أعطيت الأوامر بالهجوم من كل الاتجاهات. بدا القائد الأعلى مصدوماً لدرجة أنه صمّم على الذهاب إلى الجنرال برتزين. امتطى حصانه، لا يرافقه سوى ضابط معاون ليجد مركز القيادة في حالة من الهياج الأقصى: الجنرال يتحضر للانطلاق وعندما سأله السيد دو بورمون عن أسباب هذا التبديل الذي أطاح بتوجيهاته التي وضعها في الليلة الفائتة. تلقى الجواب التالي: «أنا مضطر للامثال بما أنني مولج بالقيادة، فهم يتحرقون...».

عاد السيد دو بورمون، وهو يفكر، ساكناً على الشتائم والانتقادات،

(1) القسنطينة هي إحدى ولايات الجزائر، والباي هو منصب حاكم منطقة في عهد العثمانيين.

متماسكاً بوجه الإهانات، فهو يتلقى المديح حتى يحذر لأنه يعرف أنه مستهدف من قبل حشد كامل من الصحفيين. «هذا هو المحرك الرئيسي للحرب»، كتبت لو ناسيونال عندما أعلن عن تعيينه رسمياً كقائد أعلى: «الحصول على عصا مارشال وملجأ لإخفاء عارٍ كبير». السيد شاتوبريان أضاف أن له عينا حنش<sup>(1)</sup> جميلتان، وأنه أكثر الخونة جاذبية على وجه البسيطة. وكان ما يزال يجهل أيضاً أن لوفيغارو كتبت اليوم معلنة الوصول الى شواطئ سيدي فرج: «حصل ذلك على نحو رائع، لم يخط القائد خطوة واحدة إلى الورا»، معلقين على حادثة الضربة التي كادت تقتله «بوقوعها عند قدمي السيد دو بورمون، وجدت القبلة مكانها الصحيح». وهل كان ليعرف إن كان ثمة في انتظاره ما هو أسوأ من ذلك. إذ ما زالوا يتهمونونه بالتسبب بهزيمة وائرلو ولم يسامحوه البتة خاصة على إدارته الحرب بذهنية الساسة. هذه المرة عليه أن يحرز النصر لفرنسا. ومن أجل أن يكون هذا النصر الذي يحتاج إليه بقدر حاجة العرش إليه، كاملاً وبراقاً، عليه أن يديره بحذر.

«إنهم يتحرقون...» هذه العبارة جعلته يتسهم ويشعر بعاطفة قوية تجاه جند المشاة الذي يجعلون الجنرالات يهرولون خلفهم. لم يبق من الضباب سوى بضعة خطوط تطفو عالياً فوق السهل متراجعة نحو خواصر الجبال، بعيداً جداً باتجاه الشمال.

لجهة الشرق، بدت قمة بوزريعة<sup>(2)</sup> براقاً كأنها مغطاة بالنحاس.

(1) الحنش: جنس حيات من فصيلة الثعابين غير السامة.

(2) بوزريعة تقع شمال العاصمة الجزائرية، على ارتفاع 400 متر عن سطح البحر، وتقع فيها غابة باينان، كبرى الغابات في الجزائر العاصمة.

## 7

توجه الملازم أول دو روابى وهو يتصبب عرقاً، مقططاً بحذائه إلى القائد الأعلى، صافحه وأخبره بأنه نقل أوامره التي أصدرها هذا الصباح، إلى السيد لوفردو. نادى السيد دو بورمون الجنرال ديسبريز وأمام ضباطه بدأ بشرح ما حدث في الميدان بصوتٍ دبّت فيه الحيوية في لحظات:

«أيها السادة، لقد تأكّدت بنفسى، مما رأيته رؤياً العين، من حماسة جنودنا لتعقب العدو. إنها ردة فعل عفوية، خرجت من قلب الميدان في ظرف غير متوقع، لذلك فإني أمركم...».

أعطى الضابط المساعد للجنرال ديسبريز، قائد فوج مومرت، بنقل الأوامر الجديدة. ابتعد ضجيج المعركة وكان من الممكن رؤية رايات الملك ترفرف. صوت المدفع يدوي بلا توقف ويهز السماء داكنة الزرقة، ودخان قذائفه يغطي قمم الجبال، من حيث يرد العدو برشقات خفيفة.

جمع الرقيب نصف رجاله وقادهم معه خلف مجموعة الضباط المكلفين بالانتقال. تلقى بويشو حقيبة ظهر جديدة مصنوعة من جلد الخنزير البري، مزودة بجيوب إضافية على الجوانب وسحابات لوضع أدوات الزينة. أخذته مشاعر الفخر بالحقيبة الجديدة فنسى في هذه اللحظات، لماذا أراد التخلص من حقيبته القديمة. وكان مستعجلاً للوصول إلى فوجه الذي أصيب بخسائر فادحة.

«والجمال أيها الرقيب، أين هي الجمال<sup>(1)</sup>؟»، زعق بويشو. فأشار النقيب نحو الهضاب الحمراء. «هناك ربما». في آخر المرابط، سلكت

(1) ويقصد الجمال التي وحسب المعلومات التي تلقوها قبل وصولهم إلى سيدى فرج، حينما كانوا مازالون في عرض البحر، سيستخدمها الجزائريون في معركتهم لتكون في الصف الأمامى. وقد ورد الحديث عنها في الجزء الأول الخاص ببداية الحملة.

الفرقة الصغيرة طريق سلاح الهندسة التي تبلغ العشرة أمتار عرضاً، وقد رصفت بالحجارة وهي تمضي متلوية وسط الأجمات بحوافٍ مخططةٍ جيداً، فالتقدم فيها لا يحتاج الى جهد، خلف قوافل المدفيعات وذخائر المشاة.

بدا المخيم أشبه بشكنة لحظة البدء بالعمل، فالمشرفون على المطاعم والطهاة يدفعون عربات اليد باتجاه الخطوط التي يمكن تخيلها من بعيد، في المكان الذي يعبق فيه الغبار والدخان فوق الكثبان. هكذا يمدون التحصينات التي تشكلها الألوية الثلاثة من شعبة الدوق ديكار التي يبدو أنها خضعت لقرار عدم المشاركة في المعركة من أجل إعداد الطعام. وقف الضباط أمام المتراس، حاملين المناظير وراحوا يتابعون ويعلقون على حركة الشعب.

«أفكر بكلك هذا الصباح»، قال بويشو.

هنا يكاد بأسبوا يشبه الكلب. تذكر بويشو النظرة الشرسة لهذا الحيوان عندما دوت الطلقة المدفعية خلفهما، والسرعة التي هرب فيها، محمراً خلفه الأرض.

«سيفعل مثلك، وسيتعود مع الوقت، أما أنا فلا. أنا أتبعك لأنه لا يمكنني فعل شيء آخر، أنت مثلهم، قال بأسبوا، مشيراً إلى الضباط والرقيب. أنت تزعق، ولكن يلزمك العرب لتزعق عليهم».

واستدار باتجاه مستشفى الميدان.

«أنت لا تفهم، لقد بدلت أرائي عن العرب»، ردّ عليه بويشو.

خرج رجال كانوا يسيرون أمامهم عن الطريق وانحدروا باتجاه أجمات النخيل وتوقفوا مشدوهين. انفصل بويشو عن الطابور، ثم نادى بأسبوا.

حتى الآن، لا أحد ينزعج لوقوع قتلى فرنسيين كما لو كانوا بهائم، إلا عندما تبت أعضاء بعضهم. إنه أول عربي يقتربون منه، وفي ظروف مثالية: مرثياً على قفاه على الرمل، وقد أردته للتو الضربة التي تلقاها، الشمس فوقه ما زالت تلمع في عينيه كما الحقد والغضب وصخب المعركة. رأسه هزيل، نصف مغطى بالعمامة المردودة إلى الخلف، نافورة دم تخرت عند بطنه مثل وشاح حريري أحمر موسى بخيوط مذهبة: يبدو أنه واحد من الإنكشاريين، بسترته قرمزية اللون الفضفاضة التي تصل حتى الخصر يزرها شريط أخضر وصدارته وسرواله الواسع الفضفاض الذي تظهر منه ساقاه السمران المليتان بالخدوش والتمزقات. وعلى جبهته ما زالت تلمع بعض نقاط عرقه.

عادة يحمل العرب موتاهم لدفنهم في ديارهم، أما الجرحى فتزنى خصوصهم برباط ينتهي بمخلب تثبيت، ويحملون فوق السرج. هذه المرة كانت المعركة عنيفة جداً لدرجة أن الجثث بقيت في مكانها، ولكن يبدو أنهم سحبوا أسلحة الإنكشاريين لأنهم لم يجدوا على زنايرهم سوى مغامد الخناجر الجلد.

ناداهما الرقيب للالتحاق بالقسم.

«لقد قتل عربي واحد»، قال له بويشو.

«آه»، ردّ الرقيب بشرود.

«إنه رجل وسيم» قال بويشو وهو يلهث قليلاً، «له سمرة الإسبان، ولكنه أكثر نحافة، بلباس أجمل بكثير من لباسنا، قد يكون قائداً. لقد فاجأني ذلك».

سكت بويشو، وتغرق في صمت أقرب إلى التبجيل. ففي نهاية

المطاف، ماذا فعل أسلافه عندما اجتاز العرب الجبال واحتلوا فرنسا في عز النهار أيام شارل مارتل<sup>(1)</sup>؟ أكانت صدفة أنهم استقبلوا من دون مقاومة؟ وللمرة الأولى، تساءل بويشو من أين لتلك الصبية تينك العينين السوداوين اللتين أشعلتا لبه، وهذه الوحشية التي شدته وكذلك اسم والدها وكأنه اسم ساحر.

- ألدابرام، من أين يأتي هذا الاسم، قال بويشو لباسبوا.  
 - ألدابرام، ردد لباسبوا، قد يشبه قليلاً بويشو، فيه شيء عربي، عليك أن تقلق من ذلك بما أنك أصبحت في الجزائر.  
 ابتسم أنطوان. إن اعتبر لباسبوا بويشو اسماً عربياً، هذا لأنه يلفظ «بو إي شو»، وليس «بوي شو»، مع وقع الـ«إي» على الطريقة الكاتالونية<sup>(2)</sup>، فبويشو هو اسم خشب البقس الذي يغطي الغابات في كتلة واحدة كجزء صوف، كما تفعل هنا أشجار المصطكة. كما أن هناك نهراً يدعى بويشو في فوا وهو ليس نهراً عربياً.

«في النهاية، تابع لباسبوا بصوته الحاد كصوت الصبية، كان عليك أن تعرف أن ذلك ما كان ليفاجئني. ولو كنت قد عدت متأخراً ألف عام كواحد من المتحدرين من أصل عربي، لاحتلال الجزائر لإعادة أسلافه إلى صوابهم، ما كنت لأتفاجأ».

رفع معطفه وأخرج غليونه وبدأ يسحب منه أنفاساً بهدوء، فتحدث عصاراة التبغ في ماسورة الغليون صوتاً أشبه بزعيق عصفور.

(1) شارل مارتل هو الذي قاد قوات الفرنجة في المعركة الفاصلة مع العرب المسلمين بقيادة والي الاندلس والتي انتصر فيها العرب وانتهت بدخولهم إلى مدينة بوردو الفرنسية.  
 (2) اللغة الكاتالونية، هي لغة كاتلونيا الواقعة شمال إسبانيا.



## 8

في برهة، امتصت الضوضاء كل أصوات الضجيج الصغيرة في الحياة، وبات عليهم الصراخ كي يسمعو بعضهم بعض، عندما أطلقت واحدة من مدافع السيد دو لا هيت النار وفتحت السماء. كان على الصراصير أن ترحل لأن غناءها ما عاد يصدح في السكون اللازم. فعلى حين غرة دوى أزيز رهيب من الأرض باتجاه أعالي السماء، فالتفت الجميع ليروا قنابل طويلة رهيفة ترتفع صوب السماء تاركة خطأ أسود متعرجاً خلفها، قبل أن تسقط في الهضاب المقابلة حيث تتشظى ثم تنفجر مع اشتعال خاطفٍ للهب أحمر.

«إنها الصواريخ!»، قال الرقيب ممتكناً بالفخر.

كان يقصد الصواريخ التي تسمى «آلا كونغريف» على اسم مخترعها، المهندس البريطاني وليام كونغريف، الذي توفي في تولوز بعد أن صنع هذه الآلة للحكومة الفرنسية والتي ما زال استخدامها محصوراً حتى الآن في عمليات الحصار. فكر الجنرال دو لا هيت بأن يصنع منها مدفعية بثماني منصات واستعمالها في المناورات الحربية. وبالرغم من التوصل إلى تعديل لفترة اشتعال الفتيل وهو أمر شديد الدقة، لم تكن هذه الصواريخ آمنة بعد، فنطاق انفلاشها ما زال واسعاً مع خطر احتمال أن ترتد إحداها إلى منصة الإطلاق. وهي تحدث دويًا هائلاً عند إطلاقها، وعندما تصل إلى هدفها تخلف دماراً رهيباً. في كل الحالات، فهي تسبب الذعر للعدو.

زوجان من أربعة صواريخ، تمضي باحثة مثل الصقور عن فريستها ثم تنقض عليها.

تعالَت أصوات التهلليل من كل صوب، واصطفت كئائب كاملة من

الجند، خلف الخطوط الأمامية الأولى، ملوحة بالقبعات العسكرية، تحية لهذا السلاح الجديد.

أصاخ الرقيب السمع. ففي برهة صدح في السماء اللحن العسكري الشهير «مارش دوسترلitz»<sup>(1)</sup> في جوقة موسيقية تداخلت فيها آلات الناي والمزامير والبوق والباص ومزامير الزمخر مختلطة:

سنبقر لهم بطونهم

آه وكم سنضحك...

ثم تصدح المدفعية، على المرتفعات لجهة اليمين، أمام جنود الفرقة حتى ويدمر انفجارها كل شيء. وهكذا، بالبنادق على الأكتاف والقبعات العسكرية المستقيمة، والزنق<sup>(2)</sup> المشدودة إلى الأحنك، تقدمت بمهل جحافل الجند خلف الرايات المزينة بالزنبق والضباط المادّين بنادقهم، مرجرجين الأرض تحت أقدامهم، على وقع طبول الموت، في حين أخذ الرقباء الذين يحرسون تقدم الجنود من الخلف، يصرخون لتفادي الثغرات التي خلفتها قذائف الأتراك بين الخطوط.

«لا غراند آرميه»<sup>(3)</sup> صرخ الرقيب وقد شحب وجهه.

كان بويشو يراقب هذا الحشد، الذي غطاه الغبار تقريباً بالكامل، وهو يتقدم ببطء باتجاه المتاريس التي يطلق منها الأتراك مدافعهم. يبدو أن الطابور السادس لم يشارك، ولكن من تبقى منهم من الصباح ربما انضم

(1) Marche d'Austerlitz هو النشيد الذي تغنيه كل كتيبة لحظة شحن المدفعية. وأوسترلitz هي المعركة التي حقق فيها نابوليون انتصاراً كبيراً في العام 1805 ضد قوات التحالف النمساوية الروسية. وباتت تدرس لاحقاً في المعاهد الحربية.

(2) الزنق جمع الزناق وهو رباط من الجلد تحت الحنك.

(3) La Grande Armée هو لقب جيش نابوليون الإمبراطوري بين عامي 1805 و1807 ثم =

= بين 1811 و1814 وأخيراً خلال معركة المائة يوم في العام 1815.

إلى هذه الطوابير التي تتقدم بين الهضاب، على امتداد الوادي المسمى «وادي بقره»، والذي بالكاد يمكن ملاحظته، كانبعاث خفيف في ردف امرأة. يتقدمون بخطى المزارعين خلف محاربتهم، يرافقهم قرع متكرر للطبول حتى الهذيان. إنهم جنود معسكرة. لماذا لم يكن بينهم؟ ماذا يفعل هنا خارج المعركة مضمخاً بالعرق وقد بدأت ذقنه تحف بوجنتيه لأنها لم تحلق منذ يومين؟

ماذا الذي فعله هنا، أيها الرقيب؟ لنلتحق بهم.

لا، انس الأمر. اصبر، سيأتي دورك، وحينئذ... أجابه الرقيب.

الهواء يهب من اليمين، حيث ترك خطى الجنود خلفها زوابع من الرمل الأسمر، وعند الهضاب من هذه الجهة، يمكن لحظ حركة مربكة للخيول والتماعات خاطفة للسيوف كما يحدث فوق سطح الماء أحياناً. يبدو أن مدفعية السيد دو لا هيت قد دكتها بقوة، إذ شوهد فجأة قطع من الجياد العربية وقد أسرجت بالأسرجة العربية الحمراء العالية تعدو مسعورةً بلا فرسان خلف جنود المشاة الفرنسيين وتضيع في الوادي الصغير ثم تظهر من جديد مضطربة وتهرب باتجاه البحر. يبدو أن مدفعية السيد دو لا هيت أسقطت الفرسان فشئت الجياد مروعةً مدماة. أحد لم يأكل بعد منذ الصباح والشمس ضاربةً، وفجأة، ومن المكان الذي تفكر القيادة العامة باتخاذ مركزاً جديداً لقيادة السيد دو بورمون، أدرك الملازم أول دو روي بشعور غريب مجرّد، أن الغبار سينجلي بلا شك على نصر مؤكد.

سكنت المدافع التركية، وبدأت كتل الألوية تتشتت وتبتعد إلى ما خلف الهضاب في التماخ الأفق حيث يمتد السهل الواسع حتى أسفل الجبل،

تبدو في حركتها تارةً كدوران سرب من طيور الزرزور بمستوى الأرض، وتارةً أخرى كطيور السماء وقد فاجأها الصيادون، تخفق بأجنحتها مسرعةً باتجاه الجبال.

شعور بالفخر غمر المعسكر كمدٍ بحري.

في الصفوف الخلفية، لم تكن السيطرة قد اكتملت بعد، فالجميع ما زال يتقدم عبر الأجمات المزروعة بالقتلى وبالأنقاض من كل صنف. طلب الجنرال برتزين من موسيقى فرقته أن تتجمع خلف قارع الطبل العملاق ومثني باتجاه الحقل الذي أخلاه العرب.

هذه المرة أمكن سماع ما تعزفه الفرقة، وحمل الهواء أصوات الرجال، ولكن القرع الحزين لهذا الطبل الكبير هيمن على روح الفرع، وشحذ الكلمات بنبرة جديدة:

يعيش هنري الرابع

يعيش الملك الشجاع...

توقفت الموسيقى، ومثلها تقريباً حركة الجنود، عندما اعترضت الطريق فرقة من العرب، قد تكون من الخدم أو من الجنود المحاصرين، جثا أفرادها أرضاً رافعين أيديهم، وقد روعهم الخوف طالبين الرحمة.

يبدو أن ضباطاً اعترضوا إذ سمعت صرخات تطلب عدم إطلاق النار، ولكن بعد تردد، قام الناجون منهم والذين كانوا ما زالوا يسيطرون على المدفعية بإطلاق النار من دون رحمة.

البحر يلتمع بقوة كالمعدن الأكثر لمعاناً السماء، وصوت الزيزان شبه الخفي يتردد فوق التلال ويتسلل شيئاً فشيئاً إلى الهضاب.

## الفصل الثالث

يسرق بويشو قارورة عطر، وينام إلى جانب صديقه باسبوا مترعاً بالشمالة. ينتهي الليل بنصر على ايقاع نباح بنات آوى. الملازم أول الجريح أميديه دو بورمون، يستقبل والده القائد الأعلى. وفي 28 مايو، يستعد الجنود للهجوم.

### 1

سطاوالي<sup>(1)</sup> غارقة في بركة من الدماء.

لم يكن هناك من ثكنة فالجنود استمروا، بعد انتصارهم، في تدفيع العدو ثمن تمثيله بالجثث الذي قام بها بحذق مذهل وسط الميدان. فأمام مشهد رؤوس زملائهم وأعضائهم التناسلية المبتورة وأيديهم المقطعة وبطونهم المبقورة، وأحشائهم المنتشرة، أخذ الجنود الفرنسيون يذبحون من دون تمييز. لكن مقاومة كثير من المهزومين للأسر صدمت الجيش، فقد وجد الملازم ماك - ماهون نفسه وجهاً لوجه مع جندي تركي سلمه ورقة ثم طعن نفسه، كتب فيها: «ماك - بيلك، قائد الأتراك، يفضل أن يقتل نفسه على أن يحول نفسه إلى كلب». امرأة عربية مجروحة حطمت رأس ابنها بالحجر تحت أنظار طليعة جنود المشاة بيناطيلهم الحمر، وكان عليهم طعنها بالحرايب كما لو كانت ذئبة حتى لا تعضه.

«آه، يا أسلافي!»، راح بويشو يردد.

كان الجنرال برتزين قد وصل إلى خيمة الآغا ابراهيم. خيمة مبطنة

(1) سطاوالي مدينة جزائرية تابعة لولاية الجزائر.

بالحرير، ومحاطة بمنحوتتين عاموديتين ملونتين، فيها غرفة انتظار مفصولة بستارة من الجوخ، حيث يجتمع الضباط المعاونون ومجلس استشاري كامل. لم يكن أحد يتوقع هذا الثراء لدى البرابرة، مع كل هذه الأسلحة المترفة والبنادق المرصعة بالفضة والمسدسات المعكوفة المرصعة بالجواهر والخناجر بأغمدها ومقابضها المزدانة بالنقوش، والثياب الحريرية والملاءات الناعمة والوسائد والأكياس المتراكمة من البن وحبوب القمح المجروش و سلال الفاكهة والخضار وقطعان الغنم والغلايين المحشوة بالتبغ، والأقداح الصغيرة وصواني النحاس وخشب السنديان الضخم، لقد كان ذلك بعيون الفلاحين المنتصرين الذين لم يعيشوا إلا في الفقر والضييق أقصى مظاهر الفخامة والسلطة.

راح الجنرال برترين يتحسس السروج الجلدية المطرزة والأباريق والجرار الطينية المصنوعة بعناية والمزدانة بالتصاميم والرسوم، والحقائب المخمل التي توضع فيها الحجب والآيات القرآنية، واطناً بحذائه الثقيل المغبر السجاجيد المصنوعة من الصوف الفاخر. وفجأة رمى على كتفيه برنساء قرمزيّاً أشبه بستره ناظراً إلى نفسه في المرآة: ابن الشعب يشبه قائداً رومانياً.

وبعد أن منع بإشارة منه الجند من الجلوس على الطريقة التركية، أبعده ذيل سترته كقائد عسكري، وارتمى فوق الوسائد، مبتسماً، ومحدّثاً نفسه: «في الحقيقة، لا ينقصني سوى إكليل من الغار على باروكتي لألعب دور قيصر».

خيمة الآغا، إنها دار ملكية بحق، تتفوق على كل الخيم الباقية، حتى إن جياد الجنرال برترين في ظل الخيمة تبدو صغيرة أمامها.

خيمٌ أخرى منصوبة أبعد بقليل لكنها تبدو اقل بهرجةً، يميزها فقط انتفاخ أكبر في الجهة الخلفية. أما بالنسبة إلى خيم الجنود العاديين وعلى الرغم من أنها واطئة جداً، فقد اكتفى بها بويشو. كل شيء فيها مصنوع من شعر الماعز المحاك والمرصوص بقوة، ترفع أو تخفض وفق الحاجة، إما لاستجلاب الهواء وإما للاحتماء منه، مكنتةً بأدوات المطبخ والأوعية من كل الصنوف، وبالحرص والأغطية المصنوعة من الصوف الطويل كثير الألوان، إضافة إلى جرار مليئة بالزيت والتبغ. يقال أن العرب يعيشون على الكعك والتمر؟ ربما عندما يغامرون في الصحراء. أما في الحروب، فيعيش هؤلاء كأنهم في ديارهم، ولو لم يهتموا بإزالة الروث الذي يجلب الذباب. في حين أن المتوحشين هم أولاد مونتسيغور ومنحدرات لوزير، أهل بريتون وفرانك - كونتوا وحتى باريفو الذين لم يعرفوا النوم سوى في الأكواخ والزرائب سعيدين بحرارة الروث والبول! هنا في قلب الصحراء، هذه الرفاهية المبهرة، فكيف يمكن أن تكون في الجزائر؟

يبدو أن النساء قد ولين الأدبار، لأن أثارهن بقيت في الفساتين العابقة بروائحهن وقوارير العطر التي تدوّخ من شدة ضوعها. «إنها من روح الورد والجيرانيوم»، قال باسبوا. وها هو هو بويشو يخبي قارورة ملأى في جيبه ويعلم جيداً لمن يحملها: هذه الرائحة التي يفوح عبرها، يريد أن يشمها على ماري ألدبرام، وعلى صدرها المشدود الدافئ كالعصفور.

جمع القطيع. فالجمال، التي جعلها الخوف تلتصق ببعضها بعض تتقدم بخطاها المتعجرفة ماضغة طعامها منزهة أنظارها على أسياها الجدد الذين لبسوا العمامات. وعلى الرغم من شدة الحرارة، فقد ارتدوا الدولن

التركي<sup>(1)</sup> تحت السترات الطويلة، واستعانوا بالحمير أو البغال للوصول إلى المخيم أو لرفع أكوام الأسلاك والأغلال الحديدية التي كان يستخدمها العرب لأسراهم. أما النبيذ فماكاش<sup>(2)</sup> هذه الكلمة العربية التي أمسوا يفقهون معناها. شربوا ما تبقى في القوارير، ولكن في أي حال حملت لهم عاملات المطبخ براميل كاملة من سيدي فرج، ووزعت على الجميع حصتان من الخمر. يرتفع الغناء من كل صوب مع دخان المطابخ فكل سرية تشوي غنمتها. كما قشروا البصل والبطاطا والطماطم وبذروا فلقات البرتقال والليمون، وبالرغم من أنه لم يكن ذلك موسمها فقد وجدوا صناديق مخزنة منها. كذلك أكلوا العجائن السميكة والمالحة متذوقين بحذر بهاراتها بالفلفل الأحمر والحلو: نار تشبه تلك التي نحسّ بها في سكرة النصر فلا نشعر بلهيبها على مؤخر العنق. ثم اضطجع الكثير من الرجال مكشوفي الصدور عند طرف سياج الصبار، حيث يمكن الحصول على القليل من الفيء.

راح الجنود يتنادون بصيحات سكر من سرية لأخرى والرجال الثملون يصيحون: «باسم الرب، يحيا جيش أفريقيا!». وفجأة تذكّر بويشو رفاقه في الطابور السادس، وأخذ ينادي أسماءهم: روش جان-باتيست، شامبلار، براداي، هيك ريمو، باسبوا ادولف، وأنا.

اسكت، أنت ثمل، ها أنا باسبوا، وإني هنا، قال له باسبوا.

كان باسبوا يراه في الحقيقة جندي مشاة رشيق، بصدره الضيق، وعينه

(1) دولمن وهي مستقاة من الدولمن التركي، الذي كان يلبسه عامة الأتراك وهو جلاباب طويل ضيق الأكماف مفتوح عند الصدر.

(2) macache أي ماكاش وهي تعبير مغربي يعني «لا يوجد».



المتواريتين تحت قبعة الهائلة التي تجعله يبدو ولدأ متطوعأ تساحوا استثناءً حبال عمره، يبدو صغيرأ جداً لدرجة أن المرء يشعر أن عليه أن ينتزع من بين أسنانه الغليون الذي بات يبعث الآن الرائحة الكريهة للتبع العربي الخانقة كالعشب الجاف.

ضغط بويشو بقوة يديه على كتفي باسبوا.

- هذا أنت، هذا أنت يا بني بفمك الذي يشبه فم القردة...

- سده، قال باسبوا بصوته الصغير. أولاً كنت ساكون حزينا جداً لو

كنت أبي. ثم لو مات أصدقائك، لكان من الغباء أن يموتوا.

ثم دفع به إلى خيمة فارغة تنضح برائحة الزيت والشحم، وفك عنه عدته الحربية، أنامه وخرج. الحفلة ما زالت في أوجها. وراء الخطوط الخلفية والخفر الذين يحرسون حدود المعسكر، كان الجنود يقدمون عرض أزياء بقندوراتهم<sup>(1)</sup> وستراتهم القصيرة المطرزة، ثم يرصون أكتافهم ويرقصون بثقل الكارمانبول<sup>(2)</sup>. ارتدى بعضهم سراويل فضفاضة، وتنكر آخرون في زي نساء بدويات مستعنين بفساتين طويلة وضعوا تحتها عند مستوى الصدر طابات على شكل أنداء.

قبل حلول الليل، قرعت الطبول إشارة إطفاء الأنوار وبدأ الضباط يجمعون جنودهم. كان بويشو ما زال نائماً في الخيمة لكنه بدّل مكانه واضطجع على سجادة تركية. وعلى نحو غريب، حشر يده القابضة على قارورة العطر في جيبه.

عندما حل الليل، طوّق كورس بنات آوى المعسكر. كلما تقدموا

(1) القندورة هي عباات تلبس في دول المغرب العربي، للنساء وللرجال.

(2) رقصة كان يرقصها الجنود خلال الثورة الفرنسية، يرص فيها الجنود أكتافهم ويرقصون في شكل دائرة، وهم يغنون ويخطون الأرض بأقدامهم.

في هذه الأرض، تبينت لهم أكثر جرأتها لولا تأثرها بتشتت القطيع ومشهد الدم. بفعل الأعيرة النارية التي أطلقها الحرس، توقف نباها المشؤوم، ليعود بايقاع أعنف وكأنه يصعد باتجاه النجوم. إنه ليل أفريقيا المليء بالعطور والمخاطر، المسكون بالخيالات وشتى ارتدادات أصوات الحيوانات الأكثر رعباً من أصوات البشر. ما عاد يبلغهم صوت تنفس البحر.

## 2

هدأ بويشو، وعاد إلى شعبته، ولم يبدُ الرقيب متفاجئاً بروئته. طلب الكثير من البدو العمل لديهم كخدم، بيد أن القبائل، وعلى عكس ما كان مرجوياً، لم تعلن أي منها خضوعها. لقد رحل العرب الذين كانوا هنا على وجه السرعة، وكان الاستغناء عنهم صعباً، لذا حاول الجيش تعليم أفرادهم بعض الكلمات العربية. «في النهاية، هم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم غيروا أسيادهم، وعما قريب سوف يبدأون بنطق بعض الكلمات البسيطة بالفرنسية»، فكر بأسبوا. قد يكون الرقيب محقاً في أنهم سيجدون من الطبيعي الخضوع لهيمنة الآخرين طالما أنهم لن يكونوا قادرين على الاكتفاء بأنفسهم. المعسكر يفيض بكل شيء، ولكن بدو الجوار، بشيابههم الرثة، يبدو أنهم يعتاشون الآن فقط من حقلهم الصغير فحسب، بعض الغنم وبيض الدجاج. وها هم بصمت يراقبون منتصري سطاوالي وهم يتباهون بانتصارهم، يعلمونهم تدخين النارجيلة ويحملون إليهم أرغفة خبز صغيرة مصنوعة من السميد يحبها بويشو. يتفاهمون معهم بالإشارات.

ظهر الهلال الجديد فوق البحر في اللحظة نفسها التي اندلع فيها نباح بنات آوى في الليل الآخذ بالهبوط. حياها باسبوا على نحو ما اعتاد أن يفعل عندما كان يبيت نعاجه، على أمل أن تأتي امرأة تضيء له حياته. عند ظهور الهلال الثاني، سنكون في الجزائر. فهو يحب ما يمكن أن يبدو وكأنه بداية أوقات وحدة طويلة، وأسر لنفسه: لا بد من أنه ثمة خلف هذه الجبال سهل واسع يرعى فيه بعض الرعاة قطعانهم. هنا يعاني من الرطوبة والذباب ومن ضباب الأفق الكثيف الذي لا يبده سوى سيف الشمس الحادة. وحينئذ تلتهم شمس جهنمية الأقدام. لا، هذه البلاد ليست له. في أية حال، يحسن للمرء هنا أن يكون ضابطاً لا جندياً عادياً، سيداً لا خادماً.

في النهاية رست القافلة قرب الأسطول الحربي، وأفرغ فوج الجنودية سراياه الثلاث. وليزيد قدرته على احتمال سيدي فرج، قدم السيد دو بورمون إلى دوق دو كار المخيم العسكري الذي كان لباي قسنطينة تعلقه راية وحصان. كما نصب دوق دو كار خيمته الجديدة في مكان يشرف على الميناء، أسفل المربط بقليل، ليس بعيداً عن المكان الذي أقام فيه ضابط التموين دينييه حفل العشاء الذي حقق خلاله بعض النجومية.

في الحقيقة، بدا المعسكر من دون قيادة والكل فيه يتصرف على هواه. ففي هذا اليوم، تابع الملازم أول دو روي نقل الأوامر التي لم تكن تنفع في شيء.

وفجأة، في طرف المرتفعات، حيث مركز الشعبة الأولى، دوى انفجار هائل هز السماء وجعل الأرض تتقيأ كالبركان إلى درجة أن الشمس اختفت وراء سحابة من الغبار، ثم انهار وابل من الحجارة والحصى.

فكر الملازم أول دو روي للحظة بالاحتماء تحت سقف المزرعة. أشار بذلك إلى مرافقيه أما هو فلم يتحرك، وإن لم يفعل ذلك فبماذا تنفع التعليمات التي درسها؟ فهو يتذكر أنه في كل الحالات عليه أن يكون القدوة. كان قلبه يدق بقوة حتى كاد يشعر بالاختناق. نظر بشحوب إلى السحابة السوداء الآخذة في الارتفاع نحو الهضاب. فجأة، وحتى من دون أن يكون قد تلقى أي ضربة، شعر برأسه يدور، وساقيه ترتخيان، تريت قليلاً، ورويداً ورويداً، بدأ يعود كل شيء إلى مكانه، أشجار البرتقال التي يقف بينها، الأخاديد التي تشكلت في الطين المتشقق، المحراث الخشبي البائس الذي لم يبق منه سوى بضعة أسنان. وجد نفسه قابضاً بقوة على الورقة في جيبه، التي كان يفترض به تسليمها إلى آمر لواء أشار. الحجارة تنهال بضجيج مكتوم وبعضها يتكسر على القرميد الحلزوني للمزرعة، ثم يسود الصمت ثانية. حلّ الملازم أول ياقته وبعض أزرار سترته، ونفض عنه الغبار جيداً. كلب أصفر قصير الوبر خرج من ملجئه نابحاً بصوت أجش، إلى أن أردته طلقة نارية بالقرب من تينة برية.

بدأ بويشو يمسح يديه كتفي الملازم أول، وباسبوا ذيل سترته.

«لا بأس، لا بأس»، قال لهم الضابط بابتسامة شكر، ثم مشى.

أعلن، في سيدي فرج، أن سلاح المدفعية الفرنسية وقع على ألغام زرعها الإنكليز وأن السيد دو بورمون عاد بأنقاض العسكر. انتقل الرعب إلى المراكب والزوارق الراسية بالقرب من الشاطئ. حشد من عاملي المطبخ، والمساعدين وجنود التموين الذين هجموا بعنف كبير مما تسبب بسقوط بعضهم في الماء. ومنهم ممن لا يعرفون السباحة راحوا يمشون في الماء إلى أبعد مسافة ممكنة وبعضهم حتى غرق. ومن الشاطئ، طلبت مساعدة

البحرية.

وفي قلب هذه الفوضى التي كانت ستتحول كارثية، سُمع صراخ امرأة مرتعبة. ولكن أحداً لم يعر ذلك الآن أهمية ظانين أنها زوجة عامل مطبخ. ولكن عندما تنبهوا أن هذا الصوت يخرج من ضابط شاب، يجبره البارون دينيه بالقوة، عند مدخل خيمته، على العودة إلى صوابه، لاحظوا شكل الصدر والوجه. لقد كانت في الحقيقة راقصة، إنها الأنسة جيناتي، التي جاءت من جزيرة بالما حيث كانت تقدم عروضاً هناك، حملتها الرغبة بالمشاركة في مغامرة الجزائر والحقاق بشعبة دوق دو كار. فقد أمرها السيد دينيه، بتهدية المعتاد، بالالتحاق متخفية بلباس عسكري، بقافلة سلاح الفرسان والمدفعية. لم يكن السيد دينيه رجلاً عنيفاً، وفي نهاية المطاف لم يعرف كيف يمكن منع وقوع الفضيحة:

«تخيلي أنك ضابط، سيدتي»، قال لها.

دخلت المرأة باكية لتختبئ في الخيمة.

### 3

الدخان يتعالى من أرجاء الحقل، وكان قنفذاً يعيث فيه حفراً. اقترب الملازم أول بخطوات واسعة حتى أصبح على مستوى الجريح الذي حُمل على كيس تموين حوّل إلى نقالة، فشهب عندما تعرّف إلى الجريح وهو واحد من زملاء دفعته، الملازم الأول أميديه دو بورمون، الولد الثاني من أصل أولاد القائد الأعلى الأربعة الذين يرافقونه في حملة الجزائر. الولد الأول لويس وهو نقيب، يعمل مساعداً في المعسكر، الثالث شارل هو نقيب مساعداً في فوج الجند المشاة الثالث، الرابع أدولف ملازم في

الكتيبة الخامسة عشرة.

كان رأس الملازم الأول السيد دو بورمون يترجرج على وقع الخطى. سترته الممزقة تغطي رقبته والدم يفيض من بطنه، أسفل قلبه بقليل. وقف الملازم الأول دو رواي في مستوى نظره، فابتسم له أميديه دو بورمون. ثم وبحركة صغيرة من يده، أو ما له برغبته في الكلام. انحنى دو رواي على جبهته وعلى شعره البني المفتول، المليء بالتراب.

«هذا أجمل أيام حياتي، والضربة.. الضربة جاءت في المكان المناسب، رأيت»، قال أميديه.

أحس السيد دو بورمون فجأة بألم في صدره، وضع علبة التبغ في جيبه، ومن دون أي كلمة ترك القيادة وركب حصانه. بحصان يعدو بسرعة أرشده ابنه لويس مباشرة إلى مكتب قائد الشعبة الثانية حيث تنازل السيد لوفردو عن غطائه لأميديه ونادى رئيس الجراحين. رد السيد دو بورمون بإشارة من رأسه على تحية الحاضرين ثم ركع أمام الجريح، الذي كان ينام عارياً تحت الغطاء الذي التصق بالدم عند أعلى بطنه بالرغم من الضمادة السميكة الموضوعة على الجرح.

وجهه الذي نظّف من الغبار بدا شاحباً ولكن هذا الضابط الشاب بقي مشعاً، يتفرّس بعيني أبيه، غير خائف من المصير الذي ينتظره.

«عليكم مؤاساة أمي وشقيقتي»، قال بصوت مرتجف واهن بالكاد يمكن سماعه.

بدا السيد دو بورمون مضطرباً. أي فكرة هذه بأن يسمح لأولاده الأربعة باعتناق مهنته الحربية! كيف اقترف خفة تعريضهم لمخاطر هذه الحرب؟ ألم يفعل أميديه ذلك ليثبت شجاعة آل بورمون بعد كل الهزء

بوالده منذ انطلاقهم من تولون؟

فجأة، شعر القائد الأعلى بضباب يلفحه ويكاد يخنقه. رعشته كشفت حجم الألم الذي عليه أن يخفيه. وفكر، أنه في الوقت ذاته، إن كان عاجزاً عن إطلاق العنان لمشاعره، فليهرب من هنا. وقف ومد يديه إلى ابنه من أجل مباركته، ثم استدار ببطنى مع كلمة أخيرة «إلى اللقاء».

وقاد السيد لوفردو السيد دو بورمون إلى رئيس الجراحين، الذي يشبه بقميصه الجزارين. «ابنك أميديه شجاع. نبذل المستحيل لإنقاذه».

امتطى السيد دو بورمون حصانه ومضى بخبٍ خفيف. فالفوضى الداخلية التي عاشها قبل لحظات حُفرت في داخله كموجة عميقة. بوجه ينضح بالدمع، وجسد مائل قليلاً إلى الورا، وساقين يضغطان بقوة وقدمين متدليين على جانبي الحصان، ترك نفسه يغرق في ألم متوحشٍ من دون أن يرد على تحيات الجنود عند مروره، وحتى ابنه لويس الذي يسير بموازاته، لم يعرف أن كتفي القائد الأعلى محنيتان من النحيب. ولكن عندما عاد السيد دو بورمون ثانية إلى مركز قيادته، كان قد أفاق من كبوته العاطفية وجفف دمه. هناك احتمال بأن يزفوا له خبر نجاح الجراحة ولكنه لم يكن مؤمناً بذلك. الجراحون كانوا في أقصى تعبثهم، حتى إن المساعدين الباحثين في علم التشريح كلفوا ببترايدٍ وسيقانٍ. حتى الآن لم يتمكن الأطباء بعد من إزالة شظية من إحدى الرئتين من دون أن يمزقوا بالخطأ أنسجة حيوية. يعدّبون هذا المسكين بلا جدوى، حتى إنه أنه فكر بأن يطلب من الجراحين أن يتركوه ينطفئ بلا عذاب، ثم تراجع عن ذلك.

لقد سنحت لابن القائد الأعلى فرصة الحصول على أفضل الأطباء، ولكنه ربما دفع أيضاً ثمن نجاح الحملة ومخاطرات أبيه النزقة؛ إنه المنتصر

رغمًا عنه.

#### 4

تغيرت طبيعة الميدان. وأمسوا أمام سلسلة متداخلة من الهضاب والوديان التي تؤدي إلى قمة عالية، تقع الجزائر خلفها. بعد الرمال وأشجار النخيل والمصطكة، تتوالى تربة قاسية ومزروعات ودوال وحدائق مزروعة بأشجار البرتقال والتين تختبئ بينها أعدادٌ كبيرة من المزارع والبيوت القروية والمرابط. لم تعد تلك أفريقيا المتخيلة، بل الأندلس مع أشجار الزيتون وأسيجة التوت والعنّاب والكثير من أشجار الصنوبر الفواحة.

أشيع أن قادة عرب جاؤوا الرؤية الداوي<sup>(1)</sup>، ليلة معركة سطاوالي، فوجدوه مشغولاً بإعادة ترتيب ساعاته في قصره، فانسحبوا بصمت مشمئزئين مرددين أن مملكة الأتراك إلى نهاية. انفجر الجمع بالضحك وقهقه بويشو، أما بأسبوا فاكتفى بهز رأسه فرمقه الرقيب بنظرة مريبة. فالحلظات التي يصمت فيها هذا الفتى تبدو أحياناً أكثر وقاحةً من كلامه.

وكأنما رائحة الدم فتحت شهيتها، أطلقت بنات آوى في الليل عواءً طويلاً كثيراً كاحتجاج يائس، أما القمر في ربه الأول فقد منح الليل ذبذبات غامضة. وهبت روائح التوابل من الجبال. أشعل بأسبوا غليونه الغض وأخذ يحلم بالعودة إلى قريته. بدّل كوكب الجوزاء موضعه إلى مكان منخفض من الأفق حيث تصعب رؤية نجومه الثلاث البراقة نصف المغمورة خلف كتف الأرض.

(1) الداوي: لقب سابق لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب أيام الحكم التركي، وهنا يقصد داي الجزائر الذي كان يحكم ذلك الوقت وهو الداوي حسين.



الاثنين 28 يونيو، توقف أخيراً الهواء الذي كان يهب من الغرب منذ ثلاثة أيام والذي قذف بسفن القافلة الأخيرة إلى عرض البحر. وتمكنوا حينئذ من إنزال ثلاثمائة من الجياد الضخمة<sup>(1)</sup> وأعداد كبيرة من المدفعية والعتاد الحربي. وعلى الفور حوّل السيد دو لا هيت مسار قافلته المدفعية باتجاه سيدي خالف، فامتألت الطريق بزوابع الغبار والرمل المنبعثة من العجلات. لم نر قطّ تجمّعاً للمدافع والقذائف كهذا.

لم تعد مقبرة سطاوالي قادرة على الاستيعاب، ودفعتهم حدّة الشمس إلى التعجّل في حفر مقبرة أخرى ودفن الموتى.

(1) cheval de trait وهي عادة جياد قوية، تستخدم في الحروب من أجل جر المدافع وغيرها من الأعمال الثقيلة.



## الجزء الثاني

### الزحف إلى الجزائر

#### الفصل الأول

هنا سيشهد القارئ المناورة الحربية المربكة والفوضى الشاملة. السيد دو بورمون سيكتشف أخيراً حصن الإمبراطور<sup>(1)</sup> ويمضي باتجاهه. باسبوا يقدم أنثى ابن آوى لبويشو وهذا الأخير يسميها فاطمة.

#### 1

منذ أيام تحاول أجهزة المعلومات، التي تمثل مع الإدارة أفضل أجهزة الجيش، تحديد مكان حصن الإمبراطور بدقة على الخريطة وعلى الأرض.

يتداولون في الأمر. لم تكن خرائط البحرية وشعبة الاستخبارات العسكرية متطابقة، والبيانات الطبوغرافية التي حملها القائد إيف بوتين من حملته الجاسوسية في العام 1808، من يمكنه تصديقها؟ أحد لم يكن يجهد، لافي الصحافة ولا في الأوساط الدبلوماسية، حقيقة أن الإنزال لن

(1) المقصود هنا الإمبراطور شارل الخامس والذي اختار هذا الحصن ليبيت فيه قواته عندما هاجم الجزائر العام 1541. بيد أن الجنود كما يسمون هذا الحصن بحصن نابليون لأنه «لا يمكنهم تصور إمبراطور سواه»، كما يأتي لاحقاً في مكان آخر من هذا الفصل.

يكون في الجزائر تحت نيران المدفعية التركية ولا في الخليج حيث نُكب الإسبان مرتين، وإنما على بعد نحو خمسة عشر متراً غرب شبه الجزيرة سيدي فرج، حيث توجد مدفعية.

في خريطة ضواحي مدينة الجزائر الطبوغرافية (قياس: 70: 1000)، والتي أعدها بوتين ونقلت الى مسؤولي الوحدات العسكرية الذين صحّحوا بالتنقيط المواقع والخطوط. هذه التعديلات دفعتهم الى مزيد من الحذر. وبالرغم من ذلك، يا لضخامة المعلومات التي قدمها بوتين، وصممها، بعد أن طلب نابوليون من وزير الحرب لديه أن يقدم له في ثلاثة أشهر، تصوراً واضحاً بالكامل دون أي ضبابية، لحملة على الجزائر. انطلق بوتين باسم مستعار، تحت حجة مموهة، يقوده القنصل العام الفرنسي! وقد تعرضت القرعية التي كان على متنها<sup>(1)</sup> والتي كانت تحمل عشرين مدفعية، للهجوم وطوردت حتى تونس، قبل أن تدرك الجزائر. هناك في تونس، مدفوعاً بشغف اكتشاف أفريقيا، راح بوتين، يجول في المدينة ومحيطها، يساعده مظهره العربي بعينه اللامعتين ولحيته السوداء ومشيته البطيئة. متكرراً كصياد، أخذ يستكشف الشواطئ ويسبر الأعماق، حتى وشى به حارس مربط سيدي فرج، وتقادياً للأسر ادعى الجنون وسارع في الرحيل بيد أن الإنجليز اعتقلوه فتخلص من وثائقه وهرب عبر مالطا، وتمكن من التخفي كبحّار روسي على سفينة يونانية. وعندما عاد إلى باريس أعاد كتابة التصور من خلال ما احتفظ به في ذاكرته من ملاحظات. وهكذا حصل نابوليون على التقرير الدقيق الذي طلبه، ابتداء من اقتراح المناورة حتى العدد المطلوب من الجنود من أجل السيطرة على العرش. لقد وضع

(1) القرعية هي سفينة شراعية بصارين ومتعددة القلوع المربعة.

بوتين التصوّر برمته، فهو الملمّ بكل شيء. وهو من نصح بالضربة المباغثة في سيدي فرج، القصف من الأعالي من الجهة التي لم تكن فيها المدينة محمية، وهو أيضاً من حدّد سرعة التنفيذ ووضع وحدة القيادة في أيدي شخص واحد، احتسب عدد وحدات المشاة والفرسان والمدفعية والهندسة وأوزان البشر والعدة والعتاد التي يجب حملها.

أجبرت تهديدات الحلف الخامس<sup>(1)</sup> نابوليون على الانسحاب من إسبانيا والعودة الى الدانوب، ولم تعد الجزائر مهمة. بعد عشرين عاماً، أُخرجت التقارير من الأرشيف الحربي، كان بوتين قد مات مقتولاً في مهمة أخرى في سوريا في نهاية سلطة الإمبراطورية.

بحسب بوتين، فإن القلعة تقع على بعد ثلاثة كيلومترات جنوب غرب الجزائر فوق هضبة الصابون، كوديات الصابون<sup>(2)</sup>. العرب يطلقون عليها عدة أسماء: سلطان خلاصي، قصر السلطان، برج الطاووس، حصن الطاووس، أو أيضاً برج مولاي حسن على اسم الداوي الذي بناها، في حين يسميها الفرنسيون حصن أو قصر الإمبراطور، ربطاً بشارل الخامس الذي نصب خيمته وقام بأول هجوم في العام 1541، أو أيضاً حصن نابوليون لأنه لم يكن من الممكن تصور إمبراطور سواه.

وفقاً للخرائط، يجب أن تكون القلعة واقعة على بعد فرسخين ونصف الفرسخ إلى الشرق من سيدي خالف. يمكن رؤيتها من فوق سلسلة متشابكة من المنحدرات والقمم من حيث تبدأ منحدرات بوزريعة. إذ أنه وعلى الرغم من أنه لم يطرأ على المعلومات إلا تعديلات طفيفة، ومن

(1) الحلف الخامس هو التحالف بين النمسا والمملكة البريطانية لمحاربة الامبراطورية الفرنسية لنابوليون، في العام 1809. وقد بدأت الحرب بغزو النمساويين لبافاريا في العام نفسه.

(2) هضبة الصابون أو كما يلفظها الجزائريون حسب الكاتب كوديات الصابون.

أن المهندسين الطوبوغرافيين رأوا أنها في المجمل جيدة، إلا أن القيادة أجمعت على أن مخطط بوتين غير آمن، ومحتقرين كل ما يأتي من علم الرياضيات، رفضوا استشارة مهندسي الطوبوغرافيا الذين كانوا متوافرين بكثرة، وفضلوا اعتماد مخطط قائم على الحدس الذي يسميه الجنرال برترين بالأنف.

«بالنسبة إلي، فإن بوصلاتكم لا يمكنها أن تحل البتة مكان هذا الأنف ومكان الشمس. لن أعرض حياتي للخطر بناء على إبرة. لحاء الشجر المعطر أكثر دقة»، قال وهو يتشمم بأنفه.

كلّف الملازم الأول دو روي بالإشراف على البحث عن مرشدين بين البدو يمكنهم العمل كخدم وأدلاء على اتجاه حصن الإمبراطور. وما فاجأه أن أياً منهم لم يخبره صراحةً باتجاهه. ولذا قرر القائد الأعلى، وخشية من أن يتعرض للخداع، ألا يتكل على الأدلاء، فهل احتاجوا إليهم حتى الآن؟

عند التاسعة من يوم الثامن والعشرين من يونيو، كشف السيد دو بورمون أن الجيش سوف يتحرك في اليوم التالي ووزع أوامره. بعد الظهر، ترك معسكر سطاوالي واتجه نحو ساحة القتال مع كل قيادة الأركان. من فوق شرفة، تعرف إلى الميدان. ومن دون أن يفصح عن ذلك تراجع عن قرار الهجوم ليلاً، وطلب إرجاع مركز القيادة العامة مسافة نصف فرسخ، ثم عند المغيب، طلب منهم العودة إلى مقرهم القديم. أخيراً، وأخيراً ومع أول شعاع، طلب السيد دو بورمون من السيد لوفردو أن يسترق النظر بين الدوق دو كار والجنرال برترين، على الشجرة التي تشكل علامة فارقة تحدد اتجاه حصن الإمبراطور.

كان الليل ما زال مظلماً والقمر قد غاب منذ وقت طويل، عندما انطلق الجيش وسط الصراخ وقرع الطبول التي تبعتها رشقات من الرصاص. طلع النهار على سديم يغطي الهضاب، جعل الجميع يضيعون الاتجاهات ويجهلون أين أمسوا، غير أن مقاومة الأتراك كانت سيئة وأخذوا ينسحبون تدريجياً. بددت الشمس الغيوم الأكثر ارتفاعاً، وشيئاً فشيئاً تمكنوا من الاستدلال على تلال بوزريعة ولكن غطاء آخر من الضباب انتشر في الأسفل، مما جعلهم يتجادلون طويلاً حول موقع سهل «متيجة»، والشجرة التي تشكل علامة لاتجاه البحر اختفت هي الأخرى وسط الضباب. كما اكتشفت بعض الأفواج التي من المفترض أن تكون في الوسط، أنها اختلطت بالأفواج الأخرى المتمركزة شمالاً. لم يرغب أحد في الاعتراف بوقوع خطأ ما. في الميدان المضطرب والغائم تشابكت الألوية والشعب وساد إرباك لم يكن ممكناً توقعه.

أضاع الجنرالات ألويتهم، ووجد الجنرال برترين الذي كان يفترض أن يظهر في شمال حصن الإمبراطور يتسكع على بعد أكثر من فرسخ شمالاً. لم يكن يوماً هناك مناكفات بين القادة الى هذه الدرجة والتي دفع ثمنها الجنود العاديون. وبسبب إصابة ابنه أميديه، لم يتجرأ أحد على تنحية اللائمة على السيد دو بورمون، ووجد الجنرال ديسبريز نفسه مضطراً إلى تحمّل ضروب الهجاء والتلميحات المهينة، وكان أساساً معتاداً على ذلك. فهو يعرف جيداً كل القواعد الحربية، إلا أنه لم يكن على مستوى التطبيق الميداني، فنظرته دائماً قصيرة وحركته هزيلة.

شعر السيد دو بورمون بخداع حدسه وبأخطائه كقائد أعلى عند التاسعة صباحاً عندما وجد نفسه بالصدفة تحت نقطة مراقبة بوزريعة

ورأى أمواج البحر تحت قدميه ترتطم بالصخور من نقطة باسكاد. ذلك أن الضباب الذي غمر كل شيء أدى إلى الخلط بين سهل متيجة والبحر. كان حصن الإمبراطور على بعد أربعة كيلومترات لجهة اليمين، في حين أن القوات برمتها كانت تتسلق سلسلة التلال ثم تهبط أودية تؤدي إلى الجهة المقابلة.

سارع السيد دو بورمون إلى تصحيح وجهات وحداته، ومرة أخرى كان على القوات أن تتمزق في الشوك وأشجار التين البرية وصعود منحدرات جديدة وهبوطها، وذلك فقط حتى تعود إلى حيث كانت قبل ساعات، منهكة، مسحوقة من القيظ، جاهلة تماماً بالمهمة التي هي بصددتها.

ذهلت القيادة العامة والقائد الأعلى بمشهد الجزائر المحاطة بالجدران الصفر والمعلقة على الهضاب تغطي رأسها بعض أشجار النخيل. وبدأ الجميع مشدوهاً يتدافع بحثاً عن إطلالة أفضل؛ لا لم يتعرضوا للخداع. فمن موضعهم ذاك بين تضاريس متاريسهم، لاحت لهم الجزائر التي تجرأت على أوروبا منذ ألف عام، وقد امتدت أمامهم في بهاء هذا الصباح بمنزلها المتراسة اللامعة كهرم من الثلج تحت الشمس، يحمل الهواء إليها بخار البحر وينثره فوقها ثم يتلاشى فوق الهضاب التي ما زالت دافئة.

من الموضع الذي توقف فيه السيد دو بورمون، لا يمكن رؤية كل المدينة، وإنما جزءها العلوي ومناراتها الأولى فحسب، إنما يمكن تخيل منازلها المتراكمة ببهاء في المقلب الآخر. بين واجهة بوزريعة الحصينة والمدينة وفوق أسنجة الشجر ترتفع هضبة أخرى شبة عارية، مرقطة بنقاط بيض تشبه المسلات، ولكن من مكان أبعد بقليل يمكن قبلها ملاحظة كتلة



دخانية سوداء على شكل قوس، متفرقة من جهة وملوية من الجانب الآخر باتجاه الميناء ثم تشتت بعدها الكتلة الدخانية لتظهر المدينة فاتنة عند أسفل الهضاب السمراء. ومن كل اتجاه، تنطلق الصرخة:

«الجزائر، يا للرب، لقد رأيناها».

شق باسبوا طريقه بين الحشد، واقترب، وكانت أشعة الشمس في هذه اللحظات تضرب البحر وسلسلة التلال بسياطها؛ لحظات من الخدر الكامل. اندفع الرجال ليشاهدوا وكر القراصنة<sup>(1)</sup>، الذي رأوه أخيراً بين جدرانها عند الهضبة المثلثة الشكل والتي تسبح قاعدتها في مياه الشاطئ، وترتفع قمته المروسة فوق كتلة القصبة<sup>(2)</sup>. هذه هي الجزائر، هذه هي المدينة القروسطية، تجثم بين أسوارها، وهذا هو المرفأ الصغير حيث تحتشد صواري السفن خلف برج ورصيف مائي صغير؟ منازل متراصة بلون الخبز بالحليب عند أسفل هضبة ضخمة، محاطة بالوديان التي تقطعها من كل الاتجاهات مجرحة بتواءات عشوائية، وخليط من المنحدرات والتلال والروابي والجرف التي تتكسر في منزلقات حادة على الصخور لجهة الغرب، وتصبح أكثر نعومة لجهة الشرق وصولاً إلى الشواطئ، قبل أن تعاود الارتفاع بعيداً. وعلى كل التلال المكشوفة بالحدائق والأحراج وبعض النخيل، منازل نزهة<sup>(3)</sup> متدرجة. كما تحتفظ رؤوس الجبال بالثلج

- (1) يقصد بوكر القراصنة مدينة الجزائر كلها، إذ كان من دوافع حملة نابوليون بوناپرت الأولى عليها هو ممارسة الجزائر للقرصنة على البواخر الفرنسية والأوروبية.
- (2) قصبة الجزائر وتعرف أيضاً بدون إضافة اسم المدينة هي قسم من مدينة الجزائر أو المدينة القديمة، على الرغم من أنه ثمة في العديد من مدن المغرب العربي «قصبة» غير أن قصبة الجزائر هي الوحيدة التي تدعى القصبة دون إضافة اسم المدينة.
- (3) منازل النزهة هي منازل مبنية لفئة معينة من الارستقراطيين، تقام فيها الحفلات ويستضاف فيها كبار القوم.

في تجويفاتها. هكذا تحتشد القرى خلف المدينة وفي الأعلى ينتصب برج حصن الإمبراطور وأسواره، مدافعاً عنها ومهيماً عليها.

كان الجيش قد تقدّم بفوضى استثنائية. وشوهد الضباط يبحثون في الخرائط ويتبادلون اللوم. وكان عليهم كل ربيع ساعة العودة أدرأجهم، مارّين بجرحى مهملين كالحيوانات، وكلما اعتقد الجيش أنه وجد وجهته، يعود ويتراجع بكل غباء، وسط الصيحات، لسلك وجهه مختلفة تماماً. وسط فوضى الوديان، أضاعت الأفواج كتابتها، والفرق أفواجها، والشعب ألويتها، أما السيد دو بورمون فكان يجهل مكان الجميع. ولكن وبفضل الرب، وعندما أزاحت الشمس الضباب تمكنوا في النهاية أن يعرفوا من أي جهة يهدر البحر.

هكذا مضى يوم النصر الشهير.

«إنه لماخور»، قال بويشو بصوت خفيض خائماً تأملاته. مرة أخرى، يسطع وجه ماري ألدبرام في رأس أنطوان بويشو من فوق الزهور العملاقة لأسيجة الصبار. المياه التي تلمع في عينيها ربما كانت تتبع من هنا، بسوادهما ذاك الذي يقاوم الضوء الذي يلتهم كل شيء. غمره دفء مباغت، وشعر مرة أخرى برغبة في نزع حقيبته ورميها، ثم تحسّس قارورة العطر التي خبأها فيها يوم سطاوالي. يجب أن يغلفها بقارورة معدنية لحمايتها كي يحملها إلى صدر ماري ألدبرام إن لم تكن قد نسيتها بعد. لأنه سيعود بهذا العطر كثرة وحيدة، وسيعدّ السنين على أصابعه.

فعل يعقل أن تنتظره ماري ألدبرام؟

عند الظهر، نصب السيد دو بورمون، الذي لم يطق البقاء منتظراً بلا خبر يصله عن الشعبة الثانية، خيمة القيادة العامة في المنزل الصيفي

لليهودي بكري، عند منحدر بوزيعة الذي يطل على الجزائر، ثم راح يراقب بعيداً عملية الحصار.

وبعد استراحة قصيرة منشّطة، امتطى حصانه ليتفقد القصر مع القائد الأعلى وقائد سلاح الهندسة الجرال فالازيه: الأسوار ترتفع عشرة أمتار وتشكل مستطيلاً مساحته مائة وخمسين متراً طولاً ومائة عرضاً، يقفل على زوايا التحصينات السميكة محتفظاً ببرج دائري في الوسط فوق صخرة. خلت المنطقة من الخنادق، إلا أنها حميت بخنادق شقت جهة الجبل وأيضاً بمدافع عند الطرف الغربي من المدينة. لم يحصن الأتراك أطراف المدينة، وكان بإمكان الجيش استثمار ذلك كما يشاء ومن دون مقاومة تذكر، ما عدا رمي بعض القنابل.

بدأوا بحفر الخط الأول من الخنادق. السيد فازاليه الذي يمكن أحياناً الخلط بينه وبين السيد دو بورمون لشدة الشبه بينهما، يعرف عن ظهر قلب ما كتبه بوتين عن قصر الإمبراطور: لا يمكن الوصول إليه من جهة البحر بسبب شدة انحدار السفح المؤدي إليه والأمر سيان من الجهة المقابلة، فالجهة الوحيدة التي يمكن منها اقتحام القصر بشكل مباشر هي الجنوبية الشرقية، أي من حيث أتوا.

اجتمعت قيادة الأركان تحت أشجار التين بانتظار أن ينهي السيد دو بورمون استطلاع معلوماته، لتبدأ حينئذ القذائف بالسقوط في المحيط من دون أن يتحرك أحد. هل يعقل أن يموتوا بفعل طلقة أو أن تبقر قذيفة بطونهم وهم يطلون على الجزائر ويشمون رائحة المدينة من جهة هضابها ويرون البحر يطوق خليجه كذراع، من دون أن يعرفوا النصر ويصلوا إلى الحریم؟

حتى الرقيب أصبح متوتراً. ففي نهاية هذا الأصيل وخلال هذا اليوم المليء بالمشاحنات والقوضى أمسى الجيش الفرنسي قريباً لا يفصله عن أسوار حصن الإمبراطور سوى مائتي وعشرين متراً فقط. وبالنسبة للباقي، فقد بدت الفرق التي انهارت من التعب عند ضفاف الينابيع أو تحت الأشجار، متداخلة إلى درجة أنه بات لزاماً قرع الطبول لإعادة الجميع إلى شعبهم.

استقروا بقدر الإمكان في الدارة التي اختارها السيد دو دو بورمون، وتكدس قسم الرقيب في غرف الخدم. كانت القذائف تسقط بكثافة حرمتهم لحظة هدوء طوال الليل. تناولوا اللحم المخزن وعندما عطشوا شربوا من مياه الينابيع المخلوطة بالنيذ.

تمدد باسبوا في فناء الدار، بجانب الحائط، وغفا بسرعة والغليون ما زال في يده. إذ كان يوماً شاقاً، لم ينيس خلاله بينت بشفة، واكتفى خلال سيرهما خلف الملائم أول دو روائي بمدّ مطرته من وقتٍ لآخر إلى بويشو، وبدا وهو يسير وكان جسمه يسبح في سترته الطويلة التي كان ذيلها يضرب بمقدمة ساقه، بدا بانساً مثل متشرد.

فجأة اعترى بويشو قلق عليه فناده بصوت مكتوم. وفي سنا الصباح الباهت رآه أخيراً وقد مالت قبعته عن جبهته، رقبته ملوية، شفتاه جافتان، شعره مغبرٌ، ومؤخرة عنقه الطفولية مكشوفة. فخرج للحظة إلى الحديقة حيث يتمدد الرجال في الأفياء. فمنذ ثمانية أيام والجيش يعيش حالة رعب. سقطت القذيفة كصفعةٍ وغارت في التراب، على بعد بعض خطوات من هنا. نوافذ الطابق الذي يبني فيه السيد دو بورمون كانت مضاءة بنور القمر. لجهة الشرق، اتخذت السماء سحنة بيضاء فالقمر سيشرق بعد

قليل، وبعيداً جداً في السهل يتردد عواء بنات آوى في تذبذب بالكاد يمكن التقاطه، أقلّ عنفاً من الليالي الماضية. كان بويشو يفكر بطرقات جبلية مبللة بالمطر، وأراد أن يهزّ بأسبوا فقط لسمع صوته لكنه تراجع وجلس يتأمله وهو نائم. كان بأسبوا يتنفس بسرعة كأنه يتألم، حتى إنه بدا أحياناً وكأنه ينتحب. بحث بويشو عن غطاء، طواه ووضع تحت رأسه، ثم جلس مسنداً رأسه إلى الحائط بالقرب من صديقه، وأخذ منه غليونه وخبأه. كانت القذائف تسقط بعيداً بعض الشيء، باتجاه الخندق الذي بدأ الجيش بحفره، ثم بمحاذاة حصن الإمبراطور أشرق ضوء غمر تدريجياً السماء وحولها إلى بياض كامل، وفي الحديقة اهتزت اشجار النخيل من أعالي جذوعها المقشرة. لقد أمسى الليل أكثر إضاءة، وفجأة على مسافة قصيرة في حقل مجاور، دوى نهيق حمارٍ بعد صرخة طويلة كالعويل. واستنشق بأسبوا عمل فمه الهواء الندي.

## 2

أطفأ السيد دو بورمون شمعات المصابيح باستثناء واحدة بجانب سريره. فهو يحب قبل أن ينام أن يستعيد يومه بما فيه من أحداث ثم يصلي.

الوضع السياسي عادي: باستثناء القنصل البريطاني، فقد استقبل ممثلو الهيئات الدبلوماسية القائد الأعلى بترحابٍ وقدموا له الخمرة في المنزل الصيفي الجميل للقنصل الأمريكي. وحينئذ جاء بكري وبن دوران، اللذان يتنافسان على الاستيراد والتصدير ولكن يجمعهما البؤس، وهذان كانا أساس الرواية المبالغ بها عن المؤن التي لم تسدّد الثورة الفرنسية ثمنها

للداي، وقد جاء ليقدم للقائد العام طاعتها وليهمسا في أذنه، ما بالغا في اعتباره سراً، أي كونهما يعرفان في أي ركن من القصر حُبي الكنز. في الوقت ذاته تذكر نظرات الجنرال برترين إلى سيقان الشابتين اليهوديتين العاريتين وهما تقبلان يديه وكأنه المخلص. آه لم يكن برترين ليرفض أن تقدم مثل هذه الضيافة للقيادة العامة.

باني هذا المنزل هو رجل من آل بكري يدعى يعقوب، أحد أبناء كوهين بكري، ويعرف باسم بن زاهوت، وفي هذا المنزل وجدوا أنفسهم في قلب المسألة.

بنيت مؤسسة بوشناق وبكري في العام 1770 من قبل ميشال كوهين بكري، المعروف بين زاهوت، ونفتالي بوجنة المعروف ببوشناق، وكلاهما من اليهود الإسبان الذين لجأوا من إسبانيا إلى ليفورن<sup>(1)</sup>، جاء بحثاً عن الثروة في الجزائر. كيف تخلى أسلاف حسين باشا تدريجياً عن سلطاتهم إلى درجة أنهم تحولوا إلى متحدثين باسم الآخرين؟ كان بوشناق وبكري متنفذين لديهما وكلاء في كل دول المتوسط وفي أهم بلاطات أوروبا، يقوضان كل المؤسسات المنافسة لهما واشتغلا بالتهريب مع كل الوزراء والقناصل وصولاً حتى أمريكا، كانا أسياد الموانئ والبحار والتجارة والمعتقات، يقيمون السلم ويفضونه بواسطة الدايات. بوشناق وبكري كانا ملكين على الجزائر على امتداد خمسة عشر عاماً، حتى مذبحة العام 1805 بحق اليهود<sup>(2)</sup>.

كيف تعامل اليهود مع الأمر؟ بعد عدة أشهر من المجزرة، خرج من

(1) مدينة إيطالية، تلفظ بالايطالية ليفورنو، وفيها ميناء كبير من جهة سردينيا.

(2) تشير بعض المراجع اليهودية إلى مثل هذه المجزرة من دون أن تأتي على ذكر التفاصيل.

بقي حياً من السجون وعادوا من جديد كمستشارين سرّيين جماعات سرّية. زادوا قضية الديون الفرنسية لصالح العرش إرباكاً وورطوا العرب في فسخ شراء الحبوب وتوزيعها، من خلال أرصدة دين، لم تدفع يوماً للداي. لأنه في النهاية، فإن كل الحبوب التي بيعت للفرنسيين، لم يتقاض العرب ثمنها. يا لقدرتهم على تلميع صورة الفوائد المتراكمة مع الوقت! يا للسرّاب الذي يرسمونه هؤلاء المغوون! حتى في لحظات نفاذ صبره عندما كان يقرر الداي قطع رأس واحد من آل بكري، كان مجبراً على تحييد الباقي من أجل إنقاذ أمواله.

أما آخر سلالة بكري، يعقوب هذا، فكيف يمكن التضحية به من دون التضحية بما سيصبح عليه من دجاجة تبيض ذهباً؟ كان يعقوب يمثل الدار أمام الجمهورية والإمبراطورية في باريس. فيعقوب، هذا اليهودي القلق الفضولي ذو السمات الساذجة، دعي على العشاء من قبل بونابارت وتقرّب من تاليران<sup>(1)</sup> الذي بقي وزيراً للإصلاح، وعاش طويلاً في الصالونات الباريسية وعشق راقصةً فرنسية شهيرة قبل أن يتزوج بعدها في الجزائر، فقد تملق كثيراً الحكومة الفرنسية الجديدة بأمل أن تدفع له أربعاً وعشرين مليون فرنك، من المفترض أن لحسين الجزء الأكبر منها.

ولأن قيادة لويس الثامن عشر كانت مهتمة بأن ينسى الداي ما فعله بونابرت، عادت لأرشييف الحزائن. اعتقدت هيئة المال في الديوان أنه إذا أصّر السيدان بوشناق وبكري، يمكن إحالة الملف إلى اختصاصيين وهذا ما يتطلب وقتاً، ولكن إن قبلا بأن يخفضا المبلغ إلى سبعة ملايين، يمكن

(1) Talleyrand والمقصود به Charles-Maurice de Talleyrand-Périgord (1754-1838) وهو شخصية فرنسية معروفة جداً وتقلب في الكثير من المناصب العالية السياسية والدبلوماسية. تخصص بداية في المجالات الاقتصادية ثم الدبلوماسية.

تسديدها بوقت قريب على دفعات كل خمسة أيام، على أن يدفعوا للداي ما مجموعه اثني عشر قسطاً، تبلغ قيمة كل منها خمسمائة وثلاثة وثمانين ألفاً، وثلاثمائة وثلاث وثلثين فرنكاً وثلاثة وثلثين سنتاً.

لم يتردد يعقوب بكري كثيراً، توقع بأنه سيضطر كثيراً للعب على الحبلين حتى يضطر طرفاً قضية الديون إلى التفاهم من خلال مؤسساتهم أو عائلاتهم، وأقسم بصوتٍ باكٍ واضعاً يده على قلبه بأنه لن يخرج من هذه القضية إلا عارياً مثل يرقه، وأن الملايين السبعة التي أذعن لمبدأ استلامها كاتفاق مؤلم لن يذهب منها شيء لجيبه. وقد أدار القضية جيداً لحد أن أحداً من المفوضين لم يستغرب شطب اسم الداوي من قائمة الدائنين. وباسم ولاية العرش أعلن الداوي عن رضاه وانتهى كل شيء. وعليه طلب يعقوب وبرعاية من القنصل مقابلة حسين ليشرح له كيف أنه وبرأيه أن مشروطيات سير العملية تعود للتعقيدات الأوروبية، حيث اعتبر، هو يعقوب بكري، بأنه أنقذ ما يمكن إنقاذه وبأن الداوي سيكون سعيداً.

فيعقوب هو من أفلح في رشي تالايان. «نعم، هذا هو يعقوب الذي استضاف راقصته في بولفار دي غان، الذي تدافعت عليه باريس بأكملها»، قال السيد دو بورمون لنفسه، «فهو أشبه بموظف بائسٍ لدى كاتبٍ عدلٍ ذي ساقين قصيرين بارد وسيء المزاج، لكن وإن لم يخدع الداوي وأخوته، وإن لم ينته الأمر بأن خدعناه نحن بدورنا، ما كنت لأحكم في الجزائر لأنه ما كان ليكون هناك حملة. لو كنت أملك عشر ثروته فحسب، ما كنت لأنهار يوماً وما كنت لأسأل نفسي إن كان علي أن أبيع جياذ القصر. آه يا لحذق هؤلاء اليهود. وهذا لن يزعج برترين».

أطفأ الشمعة. ثم راح ليتفقد ابنه أميديه في خيمة السيد لوفردو في



سطاوالي. سال الدمع على وجنتيه. «يا إلهي، وحدك من يعلم أنني مستعد أن أفديه بكل ما ملكت وما سأملك يوماً»، قال السيد دو بورمون في سرّه.

## 3

أفاق بويشو بمزاج معتكر. فمنذ ثلاثة أسابيع ما عدا مساء العاصفة لم يبدلوا ملابسهم وقد أثقل العرق والسخام قبعاتهم. الرائحة الكريهة للقمصان والسرراويل الصغيرة والمعاطف والرجال. هنا في الحدائق يمشون بين البراز الذي انقضّ عليه الذباب بشراهة. الديوك تصدح بأعلى صوتها، ثم يبدأ صياحها بالتقطع إلى أن تسكت، عندما تقطع على الأرجح رؤوسها. في المقابل توفر اللحم إلى درجة أنهم لم يتمكنوا من أكل كل الماشية التي غنموا بها. وعند المساء، أيضاً، سيطر لواء دامر بمونت على قطع كان يرعى عند هضاب قصر الإمبراطور وكان الجيش كان يثار من كل المحن التي قاساها من العرب. إذ تبخرت كل خطابات السيد دو بورمون النبيلة المطالبة باحترام الآخرين وممتلكاتهم، فمنذ أن بدأ العرب بتقطيع الرؤوس والأعضاء التناسلية ما عادوا يعرفون معنى الرحمة.

بنوا تحصيناتهم فوق هضبة مشرفة دون خوف من المدافع التي تنهال كالمطر لتجهيز مركز اتصالات ومرابض للمدفعية. مرة أخرى، لم يفهم بويشو لماذا لا يفعلون ذلك بعيداً عن أعين العدو، ففي الجيش يحصل التقدم في عرض صاحب ساذج يتظاهر باللامبالاة! فهل يُعتبر التحايل في الميدان جبناً؟ فهم يعدّون جيداً لحماية المدفعية من خلال أكياس امتلأت بها المراكب والتي كان عليهم ملاءها بالتراب، إنما في حالات الحصار

فحسب. وفي المقابل، فعند الإعداد للحصار يتصرفون وكأنه لا قيمة لحياة البشر.

انتاب بويشو فجأة شعور بالرعب، فهم حتى لا يتعجلون السير في الأماكن التي يتم قصفها. عملوا بالرفش والجاروف بشكل مبالغ به بمعاطفهم وبناطيلهم الحمر مبقيين القبعات على رؤوسهم والحقائب على ظهورهم.

«كما في زمن هنيبعل»، قال الرقيب بتبجح.

ثم أضاف من أجل المزيد من التأثير: «هكذا سيطرنا على الأهرامات».

وفجأة، على بعد ثمانمائة متر، أضيء قصر الإمبراطور مربعاً ضخماً بسوره العابق بدخان كل مدافعه، وخلفه بدا البحر منبسطاً من دون أي موج تجر فوقه بعض كتل الغيم ذبولها. كما انكشف اعوجاج الخليج والأفق الذي ينتهي بسلسلة متعرجة من الجبال فوق السهل، ولجهة اليمين تكّس الضباب الصوفي ثم خلف الهضاب لجهة الشمال وفي مكان أكثر انخفاضاً أسوار الجزائر التي سيحتلونها ما داموا قد جاءوا من أجلها.

«أنت تفكر كثيراً يا بويشو، قياساً لكونك جندياً»، قال لنفسه. أخذ يراقب هذا الرجل غريب الأطوار الذي يمشي أمامه وبندقيته معلقة على كتفه وظهره المتسخ. ومن عنق زجاجة لم يحكم إقفالها يقطر النييد نقطة نقطة، على ذيل معطفه. ومع كل خطوة تثير جزمته بعض الغبار الأصفر، وعلى رقبته يسيل العرق.

## 4

حصلت الضربة بشكل مباغت جمّدتهم لبرهة في أماكنهم. ضربة كمداء جافة كمعول غرز فجأة في ترابٍ رطب. خفض القائد رأسه دون أن يطلق أي صرخة.

توجهوا إليه، عندما انفجرت قبلة في الأرض متبوعةً بصفير حلزوني نائرة الحصى محدثةً غيمة من الغبار. شعر بويشو أنه ضُرب من قبل قوة جبارة رمت به قبالة سياج الصبّار. وبعينين جاحظتين وفم مفتوح على وسعه ترنح وسقط رأسه في التراب. التقطوه فبقي جامداً لبضع ثوانٍ مرعوباً من احتمال أن يكون قد فقد أحد أطرافه. لم يتجرأ على افتعال أي ضجة ثم اكتشف مذهولاً أنه قادر على الوقوف على قدميه. بصق طويلاً وحرك يديه وانحنى لكي ينفض الغبار عن نفسه. ولا نقطة دم. ببساطة أصيب بالدوار وتمزق بنطاله على طول الكاحل الأيسر حتى الفخذين بالصخرة التي وقع عليها، مما أدى إلى جلف ساقه. تلاشت سحابة الغبار تدريجياً باتجاه القبة المستديرة لحصن الإمبراطور بين أسواره الممتلئة بالدخان لينكشف البحر ثانية بلون يقارب البياض.

«حظ خارق، لم تصب البتة»، قال له أحدهم.

استنشق وتنحنح، وتحسّس بطنه ثم جيبه وتأكد من أن قاروة العطر ما زالت هناك.

وعلى عجلة حُمل القائد الذي فقد الكثير من دمه وجرح فخذه.

وهو؟ سأل بويشو.

أصابته قذيفة مدفعية.

هذه المدفيعات عند السور تصيب جيداً، تحمل لمسافات طويلة وقذائفها

كبيرة وكأنها كالكرات. بشكل عام، كانت جروحه مميتة. وصل ضابطٌ وصاح: «ما هذه الفوضى؟».

مرة أخرى، أضع بويشو حقيته ولم يعد لديه بندقية ولا قبة. يمكنهم أن يفقدوا حقائبهم وحتى قمصانهم، لكن ليس أسلحتهم. ركض محني الظهر إذ لمح زند بندقيته بعيداً هناك حيث وقع، أمسك بها وفجأة انتصب واقفاً مطلقاً شهقةً. يا إلهي، لم يصب ولو إصابة طفيفة! أعني ذلك شيئاً ما، وإن لا، فلم نجحاً؟ يبدو مضحكاً بخرقه الثياب التي ترفرف خلفه، كاشفة اللحم الأبيض لريلة ساقه، ولكن لو أصابته القذيفة لكانت عزته بالكامل. فهو أنطوان بويشو، ابن غيوم، عليه أن يثبت أنه جدير بأولئك الذين يقتلون والريش الملون ينتصب أعلى خوداتهم. بقي مزروعاً في مكانه، أمام حصن الإمبراطور الذي كان يطلق حممه على الهضاب المضطربة فوق البحر، عندها اكتشف قبعته التي كانت تتمايل وسط نباتات الصبار فنقرها بطرف سلاحه. إذن بندقيته على كتفه وقبعته منتصبه فوق رأسه مثل تفاحةٍ أو زهرة خشخاش، توقف وأدار ظهره للمدافع ثم أمسك بيده اليسرى قطعة من بنطاله الممزق وراح يلوح بها للأتراك مديراً لهم مؤخرته. وعندما عاد، أضحك رفاقه ملء قلوبهم...

رآه بأسبوا بوجهه المضاء فرحاً تحت قبعته العسكرية الطويلة، والتي تسحقه وتجعله يبدو مثيراً للشفقة، يحمل حيواناً غريباً مقيداً بحبل صغيرٍ يتحرك عند مستوى ساقه.

فتشت عنك في كل مكان، قال له بأسبوا.

ما هذا؟ ثعلب؟

حيوان أصغر من ذئب صغير حاشراً خطمه تحت ذيل معطف بأسبوا

الذي جلس على الأرض الصخرية. كان الحيوان يرتجف فأخذ يمسد الفرو الكثيف عند رقبته. فهو يشبه هذه الكلاب التي يرمونها مباشرة بالنار عندما تعوي قريباً من المزارع بصوتها الأجش المتوعد وكأنها غاضبة. ابن آوى، قال باسبوا، وهو يسكب القهوة في الفنجان. كان هناك من يريد التخلص منه فاشترته لأجلك، عمره يقارب الثلاثة شهور. سيكون مرافقاً جيداً إذا أحسنت ترويضه، أفضل مني.

- لا ليس أفضل منك، قال بويشو.

- لا أدري شعرت بأنك افتقدتني مساء أمس، كنت منهكاً.

- وغليونك؟ سأله بويشو.

- وجدته، ولكنني لا أريد أن أدخن. فهو لا يحب رائحة التبغ.

- أهو ذكر؟

- لا أنثى، قال باسبوا، وتبول في كل مكان من شدة ذعرها.

انحنى بويشو وجلس بدوره وراح يمسد شاربيه اللذين نبتا، ثم راح يدلل الحيوان. فبدأ يهدأ والتصق بباسبوا ضارباً ذيله الغض على فخذه، لكن وبطرف عينيه، كان يراقب بويشو.

- ماذا سنسميها؟

- كما تريد، إنها لك، قال باسبوا. ثم أضاف بعد قليل، يبدو أن وزيراً

من الداوي هو من يدير حامية حصن نابوليون. ولن تتخيل من يكون. فعندنا لن ترى شيئاً من هذا القبيل، وزير مالية مثلاً يضرب المدفعية.

- إذن، أنا نادم تقريباً لأنني أظهرت له مؤخرتي، فهذا الرجل يستحق

الاحترام، قال بويشو.

ذهب باسبوا للتفاوض مع الرقيب، فحاولت بنت آوى للحظة اللحاق به مذعورةً، فجرّها بويشو إليه بهدوء. بدت مبهورة بالضوء وخائفة من الجلبة المحيطة بها. إنه إذن لأمر مرعب بالنسبة لبنت آوى أن تتعرض للملاحقة؟ ولذلك تختبئ في الأجمات أو في الغابات ولا تخرج إلا في العتمة؟ بنت آوى هذه، تطلق أصواتاً خفيفةً كأصوات الأرناب دافئةً أنفها في سطح التراب في المكان نفسه الذي كان يجلس فيه باسبوا. أذناها مروستان مستقيمتان وصلبتان، يكسوهما فرو خشن. لونها أسمر مائل إلى الاصفرار مع لطخات سود أعلى عمودها الفقري، أما جانباها فرماديان مع مسحة من الخضرة. فكر بويشو بأنها ربما تبدل ألوانها مع الفصول ليغدو لونها فاتحاً في الصيف وداكناً في الشتاء. وفجأة وكأنها أدركت محبطةً أن لا مجال للهروب ارتمت على بويشو وراحت ترتجف فغطى بويشو رأسها بيده، ثم بحث عن قطعة بسكويت في جيبه وقدمها لها، لكنها أشاحت بوجهها. «حسناً، أنت لا تحبين هذا. أنت تحبين اللحم، ستحصلين عليه».

«تعال»، قال باسبوا.

ذهبا معاً، باسبوا في المقدمة وخلفه بويشو بسبب بنطاله الممزق وبنت آوى بينهما تشد الحبل وتقفز بصورة زبئية هنا وهناك مثل سنجاب مرعوب. التفت إليها الجميع «ابن آوى، ابن آوى...»، مزيج من مشاعر الفخر والإحباط انتابت بويشو. سعيدٌ بالإعجاب الذي يناله حيوانه، وحزينٌ لأنهم باتوا أقل اهتماماً به، إذ اكتشف أن ساقه اليسرى تؤلمه وأنه يمشي بصعوبة.

تناقشوا طويلاً بخصوص الاسم الذي سيطلقونه على الحيوان. اقترح

الرفيق تسميته بفرج تكريماً لذكرى سيدي فرج، غير أن بويشو لم يعجبه  
رنين الاسم. بوزريعة إذن؟

إنه طويل جداً وغلِيظٌ جداً، لأن العرب يلفظونه: بو زريعة، ثم هذا  
يعني «رجل الذرية». إنه غير مناسب. القصة، حصن الداوي، أو باب  
عزون، أو الحصن الذي يحمي جنوب الجزائر؟

«أريد اسم امرأة»، قال بويشو بعناد.

كان يفكر بماري، ولكن لن يسمي هذا الحيوان باسم مسيحي، فلو  
عرفت الفتيات اللواتي يحملن اسم ماري بذلك، فلن يسامحنه البتة. فهو  
بحاجة فعلاً إلى اسم عربي يتناسب مع هذه الوحشية، هذه النظرة القلقة،  
هذه الهشاشة وهذا الجمال الغريب، وأن يكون أيضاً اسم نبالة وعشق.  
رفضت بنت آوى العظام وحتى اللحم الذي وضع أمامها. في المقابل،  
يبدو أنها قبلت بويشو كسيدٍ لها ولم تغادر حضنه، إذ كانت تغوص فيه  
متشمة كأنها تستنشق روائح جديدة مسكرة، ثم وبشكل غريب حاولت  
الهروب والاختباء في علبة أو في زاوية، مديرةً ظهرها للرجال. خيط لها  
طوق وحبل بواسطة مقود حصان قديم.

جاء الملازم أول دو روائي ليراها وعندما علم بما يبحثون عنه:

«لَمْ لا تسمونها فاطمة؟ إنه اسم عربي معروف»، قال النقيب.

راق الاسم لبويشو وأسمائها فاطمة.

## الفصل الثاني

في هذا الفصل يصف الكاتب معركة حصن الإمبراطور، فجر  
الرابع من يوليو. ويطلق بأسبوا بنت آوى التي يقتلها لاحقاً أحد  
الحراس.

### 1

مع وصول بريد فرنسا، استولت حالة حلمية على المعسكر برمته.  
تباعد الرجال عن بعضهم بعض وأضيئت وجوه نساء بعد أن بهتت بفعل  
الغياب. أمسك بويشو برسالة بدا وكأنه غير قادرٍ على تفكيك حروفها،  
في حين أنه في الحقيقة بالكاد يعرف القراءة والكتابة، ولا يجروء على  
الاعتراف بذلك.

«أطلب من الرقيب أن يقرأها لك»، اقترح عليه بأسبوا.

«هو لا يعرف أكثر منا».

«إذن اطلب من الملازم أول».

«هل تريدني أن أقرأها بصوت عالٍ أو تُفضل...»، سأله السيد دو

رواي.

«عالياً»، صاح الرجال.

تحلقوا حول الملازم أول الذي دنا من الضوء. فظهر وجهه الذي بدأت  
حروق الشمس تمحي تورّده وأنفه المستقيم وفمه الصغير بشفتيه الرقيقتين  
المحاطتين بشعره المفتول الساحر، وبالزغب الأشقر عند شفته العليا.

مونتسيغور (آرياج) 20 يونيو 1830، بدأ النقيب يقرأ معلقاً في البداية:



«وصلت الرسالة بسرعة، بأقل من عشرة أيام». ثم استأنف: حبيبي الغالي. منذ أن غادرت، لم تعد الأرض هنا وبت أفتقد السماء. الحياة كلها سوداء. لا أكفّ عن التفكير بك، أملك بصحة جيدة. عد بسرعة، مارجول. ثم عقب النقيب «مارجول، إنه اسم جميل».

- هذا يعني النذل.

وبعد برهة صمت:

- قلبي لا يخفق إلا لك. والتوقيع ماري ألدا...

- ألدبرام، صرخ بويشو.

- هذه زوجتك؟

- نعم، في النهاية لا. ليست زوجتي التي تقول لي كلمات كهذه، إنها إمراة أخرى، قال بويشو.

أعاد له النقيب رسالته.

- أهنتك، لا يوجد أيّ أخطاء لغوية في هذه الرسالة. مقتضبة قليلاً ربما، ولكن أعترف بأني أرغب في أن ألقى اعترافات كهذه. ويا لهذا الخط الدقيق... قال الملازم أول.

- إنه المدرّس.

- تستحق رداً فورياً، هل تريد ان أخطه لك؟

- لا أتجرأ على...

غاب الضابط للحظة وعاد بعلبة جلدية تتضمن أدوات الكتابة. سكت الجميع وراحوا يراقبونه وهو يفتح العلبة ثم يطوي غطاءها ليصبح سطحاً للكتابة، وضع الورقة الجميلة السميقة إنما المتجعدة قليلاً، ثم غطّس الريشة في المحبرة الصغيرة. كانت بنات آوى، تحت ضوء القمر المكتمل

تقريباً، الصاعد من البحر، تعوي بعنف أكبر، وكان بالإمكان سماع قرع طبول المحاصرين وكأنه حفل للموت. هل كان ذلك بسبب العتمة التي تغلف الأرض؟ شعر بويشو بأن فاطمة تحاول الهروب. وضعها على الأرض ثم تبعها وأرخى لها الحبل، فذهبت مباشرة إلى الطبق الذي قدم لها عبثاً. وفجأة قضمت قطعة من اللحمة وحملتها بفمها المنخفض إلى زاوية وجلست تمضغها بضربات سريعة مضطربة من أسنانها، ضاغطة بشدة على قائمتيها الأماميتين.

- في البداية العنوان، قال الملازم أول الذي كتب: إلى مدام...  
- أوه! مدام، إنها بالأحرى آنسة...

فكتب النقيب «إلى ماديموازيل...» كما في اللغة الأرسقراطية وأكمل بصوت أهدأ «ماديموازيل...» ترك الخبر يجف لبعض الوقت هازأ الورقة قليلاً. فمع هذه الحرارة لن يحتاج الخبر الكثير من الوقت حتى يجفّ. أعد لي الاسم، قال له وأكمل: مونتسيغور (آرياج)، أنا اسمك سنكتب: على مشارف الجزائر، أليس كذلك؟ 30 يونيو 1830، كيف نبدأ؟

- قلبي، امرأتي الجميلة، قال بويشو.

جرت الريشة بسرعة مصحوبة بصوت صريرها. تباعد الرجال: «رسالتك جلبت لي الفرح وقد تكرم السيد الملازم أول... عذراً، ولكن لا أريد أن أخطئ بقلبك».

«دعنا من الألقاب، قال له الملازم أول، لا قيمة لها في هذه اللحظات. لنضع: ... الملازم أول دو روي الذي يخدم مثلي السيد دو بورمون، كتب الملازم أول.

...الذي حثني على عدم التأخر في الرد عليك. سيدي النقيب، ربما أنك لست بحاجة لي لتكمل الرسالة».

«في هذه الحالة، صحح لي ما تراه مناسباً».

ومضى يكتب وهو يقرأ بصوت عالٍ مهجياً الكلمات: بعد معارك بطولية، فرضنا سيادتنا على المنطقة برمتها ما بين سيدي فرج ومدينة الجزائر. وسيصلك بالتاكيد خلال أيام قلائل خبر اقتحامنا المدينة، وبأن راية الملك ترفرف على كل الأسوار. أصيب أحد أبناء القائد الأعلى بجروح بالغة ونأمل بأن ندفع الأتراك غالياً ثمن هذه الآلام. هذه البلاد رائعة ولكنني مشتاق إلى أن أجد نفسي قربك...

- هل أنت موافقٌ على ذلك؟ قال الملازم أول.

- نعم، هذه ليست أرض تناسب المسيحيين، قال بويشو.

... ولأن الطقس سيء، تابع الملازم أول، مما لا يتناسب وتجهيزاتنا. هذا نقد ولكنني أتحمل مسؤوليته. أفكر بك دائماً بحنان.. هل يعجبك ذلك؟ سأل الملازم أول، تحب النساء هذه الملاطفات. وحتى النساء اللواتي لا نجبهن، وأنا أتكلم من خلال خبرتي، نجدهن... كيف أقولها. لا أعرف. ربما قد يؤثر فيها أن تذكر بعض من سماتها الشخصية. هل لها عيانان جميلتان؟

- آه، عيناها مثل النجوم وقد اشتقت إليهما.

- يمكنني أن أتخيل. أنت محظوظ، نعم صدقتي. إذن فلنكتب: نظراتك

لا تفارقني البتة...

- ستعرف أنها ليست كلماتي، قال بويشو.

- لا بأس. ستكون فخورة بوجود مجهول، وستكون مسرورة لأنها

تحبك وأنت تحبها...

انتهيا من كتابة الرسالة، وساد صمت، حمل بعده النقيب علبة الكتابة وذهب. عاد بأسبوا، وقد بدا على محيّا بعض الحزن، وفي الوقت نفسه، بدا مفعماً بريق أمل كأنه آتٍ من مكان افتراضي بعيد.

## 2

راحوا يقلبون العدد الأول من الجريدة الحربية التي صدرت للتو في سيدي فرج في مطبعة القافلة بعنوان «رسول الجزائر» بحروف عريضة، ثم «صحيفة حربية، تاريخية وسياسية» بالحرف القوطي، تحت شعار الجيش الفرنسي يعلوه التاج بين الرايات وشعار الفروسية سان لويس. وزّعت الصحيفة مجاناً، وقرأوا فيها بعض المقالات. تبدو معدة لتحاكي قراء جالسين إلى طاولات «شي تورتوني» أمام أطباق «كوكيي سان جاك»<sup>(1)</sup> أو في مقاهي الـ «باليه رويال»، مع أن محرريها يتباهون بأنهم كتبوا مقالاتها وسط الرصاص وعلى وقع الطبول. لا يمكن اتهامهم بأنهم كتبوا دون معاناة، بما أنهم كانوا برفقة الجنود عندما وصلوا إلى هنا. تبدو الحرب جزءاً مسلياً من الحملة: لم تكن قذائف الأتراك متجعدة كما تخيلوا، وإنما تقريباً كروية مع ذيل صغيرٍ مصنوع من الحديد المسكوب في الماء، والتي يمكن أحياناً أن تسبب جروحاً أبلغ. أما الجرحى فيتمتعون بوضع يحسدون عليه، لأنهم لن يعانون قطّ من حرارة الطقس، بفضل العناية التي يحاطون بها وبفضل «كلورير دي شو»<sup>(2)</sup> الذي تمسح به غرف

(1) Coquilles Saints - Jacques طبق فرنسي يتكون من الأصداف البحرية.

(2) chlorure de chaux مادة تتكون من ايوكلوريت الكالسيوم وكلور الكالسيوم.

المستشفيات. بالنسبة إلى معظمهم، كانت على أية حال رحلة استجمام بحرية إلى ماهون<sup>(1)</sup>.

رمى الملازم أول دو رواي الصحيفة بحركة سريعة غاضبة. لا لأنه يمقت جان-توسان ميرل، بالعكس. فهو يعتبره شخصاً مثيراً للاهتمام، يحترم جرأته ويحسده على شخصيته المنطلقة. وإنما ببساطة لأنه يعتقد أنه كان يجدر بالقائد الأعلى أن يختار شخصاً آخر: فالحملة ليست مسرحاً؛ ثم أن هؤلاء المثقفين كانوا جميعهم تقريباً معارضين للحملة. وما كان بإمكانهم أن يدعوا السيد شاتوبريان أو السيد دو فينيي لتقاسم مشقات المعارك، ما كانا ليأتيا. لن يزعج أيّ من الكتاب أنفسهم لمرافقة الجيش.

«لماذا لا يأتي أحد على ذكر الأنسة جيناتي؟» قال. فمن المعروف، منذ الهجوم المباغت يوم الرابع والعشرين من يونيو، أن البارون دينيه يستضيف راقصة باليه، وأن الخيالة الذين ما زالوا يزورون سيدي فرج يوفرون لها الحماية. كيف حالها؟ من تضاجع؟ إن لم تستسلم لإغراءات المدير السابق لـ«بورت سان مارتين»<sup>(2)</sup>، هل يمكن تركها لتخضع لمدير أو لرجل بحرية؟ كان من المبكر جداً استضافتها على طاولة القائد الأعلى. ومجرد التلميح للفكرة، جعل رأس الجزال ديسبريز أكثر استطلائاً: امرأة لا نعرف كيف أتت، وربما كانت مدفوعة من لندن للتجسس علينا؟».

- سيحملونها ثانية إلى بالمّا<sup>(3)</sup>، حيث سترقص للجرحى، قال السيد دو

(1) Palma de Mallorca وهي مدينة وميناء في جزيرة ميورقة، اليت هي جزء من تجمع جزر البالياريس التي تقع في البحر.

(2) Porte Saint-Martin المسرح المسمى على اسم المنطقة التي يوجد فيها، وقد أنشئ عام

.1781

(3) إشارة إلى القاعدة العسكرية والمستشفى الخاص بالقوات الفرنسية في الجزيرة «ميورقة» في البحر المتوسط، وحيث توقفت قافلة الحملة قبل وصولها إلى الجزائر.

- رواي. وعلى ذلك أن يفقدك الحماسة بأن تكون بين أحضانك.
- هيا، صاح النقيب تاليران، ليس هنا سوى بنات آوى. في غضون يومين ستكفّ عن الأسف على الآنسة جيناتي. سننغمس في جنون الجزائر المليئة بالفتيات الجميلات.
- علينا تعلم العربية، قال الملازم أول دو روي.
- لا شيء مثل الوسادة، أجابه النقيب دو تاليران.
- أعترف بأني معجب بهم، أنا لست متأكداً أنهم هؤلاء البرابرة الذين نتوقعهم. ولكن لا، قال الملازم أول دو روي متوجهاً إلى النقيب لو مير الذي أبدى اعتراضه. أسلافنا الغاليون<sup>(1)</sup> لم يشتهروا بركة عاداتهم، بالنسبة للآنسة جيناتي، فإن جذبتني، فلأن غموضاً ما يحيط بها ولأنها المرأة الوحيدة لدينا في الجيش.
- في البلاد المنتصرة، قال النقيب لو مير، هناك وسائل ضغط. الاحتلال يا روي هو الانتصار، لا الإقناع.
- إذن، أقول لك بكل احترام أيها السيد، نحن سنخسر. هناك ما يوحى لي بهذه الفكرة. هل تفضلون مقاتلة العرب وسحقهم؟ أنا أفضل أن أغريهم. هناك شيء ما بداخلي لا أعرف ما هو يدفعني لتلا أعتبرهم بعد أعداء لي.
- ما زلت فتياً، عزيزي، قال له النقيب. هناك الكثير من الأشياء التي لا تعرفها. المسألة ليست مسألة تدجين بنات آوى.

(1) الغاليون وبالأصل بالفرنسية Les Gaulois وهم الشعوب التي سكنت تاريخياً أجزاء كبرى من فرنسا وبلجيكا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا.

## 3

ليل الثالث من يونيو، أُبلغ سلاح المدفعية بأنه سيفتح النار في اليوم التالي. من أعالي بوزريعة ومثل نجمة قرمزية انطلق فجأة المدفع الذي أعطى الإشارة. ومع أول الضوء بدأوا يميزون الكوى في جدار الحصن. إذن بدا وكأن السماء انفجرت والحصن الذي غمر فجأة بالضوء غمره الدخان الذي ارتفع في لمح البصر. هدير القذيفة الأولى والانفجارات المتتالية، صدّعت الأرض.

لكي يراقب سير العملية، وقف السيد دو بورمون خلف مدفعية هنري الرابع عند القنصلية السويدية. بات الصخب رهيباً حتى إنهم ما عادوا قادرين على سماع بعضهم بعض سوى بالصراخ. وعلى الرغم من أنه يوم الأحد، الخامس بعد عيد العنصرة<sup>(1)</sup>، لم يدع السيد دو بورمون أحداً لإقامة قداس، فقد كان شديد الانشغال أيضاً بحالة ابنه أميديه ولم يشأ أن يدخل موضوع الدين في برنامج أفكاره.

غطى الضباب كل الشاطئ والهضاب والسهل بكثافة تذكّر بكثافته في التاسع والعشرين من يونيو الماضي، إلى درجة أنهم لم يكونوا متأكدين من الموضوع الذي يضعون فيه أقدامهم، وكان عليهم أن يقلقوا الكن الضوء كان قوياً لحد أن السماء نفسها التي أظلمت للحظات بفعل الضباب الخارج من البحر، بدت تتلوى تحت ضربات البشر والشمس.

أفاقت مدينة الجزائر على ذعر عام واتجهت الأنظار إلى البركان. ولأربع ساعات متواصلة بقيت المعركة متكافئة وقصر الأثرak يرد من دون أن يضعف. من الجهتين، جدران تنهار ومخابئ تتفجّر، والقنابل والقذائف

(1) عيد العنصرة هو عيد مسيحي يأتي بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح.

المنهمرة تزرع الموت حتى غدا مستحيلاً انتشال الجثث.

أخفى بويشو فاطمة المرتعبة تحت سترته. وضع يدها على صدرها الذي أخذ يخفق بشدة، كي يطمئنها. فكل مساءً، تصاب بالهيجان إذ تخيفها الأضواء والجلبة. بقيت حتى الصباح في معطف سيدها الذي قضمته ومزقته. ونام بويشو ويده عليها.

«آه، ماري ألدبرام، ولا أحد آخر»، حدّث نفسه.

في الخنادق، ما عاد يُسمع سوى دويّ المدافع عند انطلاقها والتي ما زالت تضرب ولكن بشكل متقطع، يرمونها كما لو كانوا يرمون الرماح في خاصرة خنزير ميت من دون أي إحساس بالأسى. توقف القصر عن الرد. سقط سوره الكبير، وبقرت بطون المتاريس وكان عربة من النار حصدها، وراح آخر المدافعين يحتمون خلف المتاريس الرملية.

وبشكل مباغت، قُذف التراب إلى ارتفاع هائل، كأنما بفعل حممٍ بركانية. نهض النقيب بسرعة. قضت النار على بقايا الحصن وتردّد صدى انهياره بعيداً. عواميدٌ من الدخان الأسود تصاعدت من النار وانتشرت في كل اتجاه، تخرقها حجارةٌ وقطعٌ وحمم مدافعٍ تصاعدت حتى أطفأت نور الشمس.

«احتموا! احتموا!!».

كل ما ابتلعه الانفجار سيعيد لفظه، لذا اختبأ الرجال أسفل المتاريس، في الخنادق أو ركضوا يسندون ظهورهم إلى جدران المنازل، ثم أمطرت رملاً وركاماً من الطوب والقرميد، فولدت غيوماً على شكل زهور الفطر. زوبعة سوداء ممزوجة بشظايا من الخشب والمعدن والرماد والكلس، تحركت ببطء باتجاه الجبل حيث عمّ الصراخ: مدفعات من العيار الثقيل



أطاحت السقوف واقتلعت الأشجار إلى مسافات بعيدة، وتطايرت أشلاء مدماة حتى شرفات وطرقات الجزائر حيث النسوة، اللواتي صمتن في البداية تحت وقع الصدمة، انطلقن في عويل طويل تقطعه الشهقات. عند الهضاب، كما في السهل وعند الخليج، كان العرب المصدومون بهول الدمار يشيرون بأصابعهم إلى كتل الدخان السود التي يحملها الهواء، لتستقر على المرتفعات. وعندما أنبأهم الدخان المتصاعد من أسواره، بأن القصر الذي يحميهم قد دمر، اندفعوا حشوداً مذعورة باتجاهه. وعكس ما كان متوقعا، وبمواجهة رجاله الضائعين، ومأخوذاً بموجة الغضب، أعلن أنه لن يتنازل أمام أي شيء حتى لو طمر تحت الركام. وعندما بدأ يطلق النار ليدفع بالهائمين الخائفين، اعتقدوا هنا أنها مظاهر جنون عجوز. أن يتوارى تحت الحجارة، مثل قبطان سفينة غلبها الطوفان، فذلك شرف له ولكنه شرف أعمى وغير سياسي. فعداوة المسيحيين لا تفرض أن يثقل على المؤمنين أحزانهم.

عندما علموا أن قلعته لم تكن منيعة، زاد التهور من بأسهم: وحده، الطابق العلوي لمخزن البارود والمتفجرات دمر، وكل الجزء السفلي للمستودع الرئيسي لم يمس. وباستثناء الجهة الشمالية والبرج، بدا أن الحصن الذي دك بالقذائف ما يزال منتصباً، ولكن الطريق الملتوية الممتدة إلى السور الشمالي، والتي امتلأت تقريباً بالقذائف والركام، ما عادت صالحة للعبور. كما أجهزت الفرق الأولى التي بدأت بالدخول إلى حرم السور لتنظيفه على كل من تبقى فيه نفس. وعند أسفل ما كان يعتبر برج الحصن، لم يبق سوى حصانين مجروحين، أما ما تبقى فليس إلا أجساداً ممزقة وأشلاء بشرية. ما عاد حصن الإمبراطور سوى قبر.

أخيراً قرر الداي التفاوض، مدفوعاً بشفاعة رجال الدين.

#### 4

لم يجروا أحد على الحديث مع السيد دو بورمون عن ابنه أماديه. فهو يستعلم عن حاله مرتين في اليوم. تصله المعلومات إلى مركز القيادة العامة، موقعة من مسؤول الجراحين، حاملةً الكلمات نفسها: «حالة مستقرة». يرمي السيد دو بورمون نظرةً خاطفةً حزينةً عليها ثم يشيح نظره. الجميع يعرف أن النقيب أميديه دو بورمون هالك لا محالة. فالقذيفة أصابته من الأمام ودخلت في الفاصل السادس ما بين الأضلع وخرجت من الخلف في خط شبه مستقيم بين الضلعين الثامن والتاسع، الشريان الأورطي لم يمس غير أن المنطقة المحيطة بالرتين تضررت كثيراً. أحد الأطباء الضباط حاول إسماع النقيب لو مير بأن هناك أملاً ضئيلاً بإمكانية إنقاذه وقد جاء تقيح الالتهاب ليؤكد هذا التوقع.

متختمً بالمواد المخدرة، كان أميديه دو بورمون يحتضر مع نزيف يومي، بالكاد يتنفس وقد ألقى رأسه فوق كتفه الأيمن والضمادة على بطنه. الحلم نفسه يعاوده، يقطعه أحياناً شعور بالاختناق: جند مشاة جازفوا كثيراً بالتقدم يطلبون النجدة. يطلب من قائده السماح له بالذهاب مع فرقته لإنقاذهم لكن القائد يرد عليه دائماً: «اكتفِ بانتظار الأوامر التي سأرسلها لك، يا سيد، وعندما تلقاها سيكون لك شرف تنفيذها». يخبط الملازم دو بورمون كعب حدائه بالأرض، يلقي التحية، ويعود وهو يقبض على ثمرة قطلب في يده، ثم يتفاجأ عندما يرى يده محمرة. لم يكن ذلك دماً وإنما عصير الفاكهة. حتى الآن فهو يجهل ما هي ثمرة القطلب. لقد تم

قطافها من الأجسام، من شجيرات لها أوراق كأوراق إكليل الغار. فهي تشبه الفراولة القاسية، ذات ملمسٍ شديد الخشونة ولها لبّ أبيض. طعمها الحاد واللاذع، يترك في النهاية في الفم الطعم الغريب والمتوحش لقبلة. لكن الرقيب المصدوم بالتخلي عن جنود المشاة، طار متحدياً الأوامر لإنقاذهم. ولذلك دهن له القائد وجهه بثمرات القطلب. «عار عليك، يا سيد، بعد مخالفتك الأوامر هكذا، أنت تعلم جيداً ما بقي عليك فعله...»، قال له قائده. ولكن قذائف جاءت لتوقفه، ولتحمل النصر للنيقب، وليرفعونه متقلداً الأوسمة في ميدان القتال عند تقاطع سان لويس. ولمرة واحدة نزع دبوسه الفضي ووضع على بطن جندي مشاةٍ مقتول.

أهو مسمار الدبوس؟ في لحظات، اخترقت إبرة طويلة قلبه بسرعة البرق. لم يكن زملاء الجيش محل صداقة. فالرجل الوحيد الذي كان أميديه قادراً على الوثوق به هو رجل مدني وهو مدير المسرح الذي أحضره والده ليكون ملحقاً صحفياً، جان توسين مرل، الذي أرسل له الملازم أول دو بورمون عشية معركة سيدي فرج، جراد ضخمة مذهبة، مزودة بسكاكين مسننة مع هذه الكلمات: «هذا هو أكبر عدو عثرت عليه. إنه من النوع الذي علينا محاربتة، حسب لو جورنال دي ديبا<sup>(1)</sup>، وأتشرف بتقديمه لك». منذ سطاوالي، لم يتمكن الجيش من أسر أحد وقد أثار شجاعة العرب إعجاب الملازم أول دو بورمون وقد فاتح جان توسين مرل بذلك فأجابته: «نحن نتخيل طوعاً بأن الغرباء لا يطبقون أساليبنا. فهم لديهم معايير أخلاقية مختلفة قد تبدو أمامها معاييرنا أحياناً تافهة». أساساً،

(1) Journal des débats هي مجلة فرنسية استمرت في الصدور ما بين 1789 و1944 ببعض

تغييرات في الاسم.

ما عاد الجيش الفرنسي يتخلص من جنوده في الهزائم. لا بل بات يناقش ويقدم التكريمات. في حين أن الأتراك يفضلون أن يطعنوا أنفسهم على أن يستسلموا، وهم يجهزون على جرحاهم حتى لا يتركونهم للأعداء. ربما كان هذا جزءاً من تقاليد تبطل مع تقدم الحضارة، بيد أن الملازم أول دو بورمون يعتقد أن على الجيوش أن تحفظ شرائعها التي لا تشبه شرائع المجتمعات المتحضرة. هذه الفكرة أقلقته. والآن ماذا يمكنه أن يقول للنساء لإغوائهن: «فمك يعبق برائحة القطن». سيسألنه ما هو القطن وسيجيب: «زهرة من أفريقيا، سيدتي، ولك طعم ألد من طعمها...». لا يحق لأحد أن يترك جنود المشاة يذبحون، وهو أكثر من أي أحد آخر، لأنه ابن الرجل المتهم بالخيانة.

## 5

يدو أن الجيش لن يعرف الراحة هذه الليلة. أذلك بسبب القمر الذي يشع بقوة صنعت للبيوت والأشجار ظلالاً، أم أنها مهابة اللحظة الاحتفالية؟ عندما سيطلع النهار سيدخلون إلى الجزائر، وحينئذ...

- الجزائر، لا تهمني، ليست هي الأرض التي سأترك فيها عظامي، قال بأسبوا.

- ولا أنا، إلا إذا عينوني قائداً لجيش أفريقيا. سأخذك معي، ستكون واحداً من حاشيتي، قال له بويشو.

وعندما قهقهه بأسبوا، أستدرك بويشو قائلاً بصوت أجش وهو يلوح بقبضته المتكورة كقوقعة:

- في الوقت ذاته، طبعاً، سأكافئ أصحاب الإرادات الطيبة. هل

فهمت؟ ساكون كريماً.

- خاصة مع النساء، قال له باسبوا.

- لا تتحدث عن النساء، لن أحدثك عن كل ما يزعجني يا صديقي

ولكن بالنسبة للنساء، ليس لدي سوى واحدة. واحدة لا اثنتان،

لا تكلمني عن الأخريات. واحدة، أتفهم، لا تفارق عمق أعماق

جمجمتي.

- وما يبقى من الجمجمة.

- ما يبقى أيضاً.

- لو كنت في مكانك، قال له باسبوا وهو يسحب نفساً من غليونه،

سأنام لا يهم أين، متكئاً على حائطٍ أو في حفرةٍ حتى لا تسحقني

قذيفةً. أضع بنت آوى في عهدة صديقي باسبوا وأنام.

- لماذا؟

- لأنك ثمل.

وقف بويشو مرتبكاً: «ألم يسبق لك أن شربت؟ الحقيقة في الشجير<sup>(1)</sup>:

هذا ما يقال عندنا. من دون الشجير لن تمتلك الجرأة قطّ».

يمقت باسبوا السكرارى. حتى هذه اللحظة، فقد اكتفى بمنع بويشو من

الشرب أو بأن يسكب له سراً الماء في مطرته. ولكن احتفالات الجيش،

تقوم بشكل أساسي، حتى لدى الضباط على رفع أنخاب النبيذ. إلى جانب

ذلك، كان النبيذ يلزمهم من أجل أن يتقدموا عندما يسرون على وقع

الطبول في الصفوف الأولى في مواجهة مدفيعات الأعداء. في المعسكرات

(1) الشجير هو ما يبقى من الثفل والعصارة في تقطير المشروبات الكحولية. أما «الحقيقة في

الشجير» فهي ترجمة لثمل شعبي dans la vinasse la veritasse حرفت فيه كلمة verite

(الحقيقة) إلى veritasse (وهي كلمة غير موجودة في اللغة) لتناسب الإيقاع.

المؤقتة ومن أجل تحريض الرجال على الاعتدال، كان الضباط يقرأون لهم جملة من الكراس عن دولة الجزائر: «الرجال المسرفون هم الأكثر قابلية للمصائب التي يستسلمون لها غالباً». ولكن صباح الإنزال، يوم معركة سطاوالي ويوم سيدي خالف ويوم عملية حصن الإمبراطور، لم يمنع عاملو المطبخ من توزيع الزاج<sup>(1)</sup> على المخبولين. لا بل سمح لهم بحصة إضافية، بحجة أنه ولدواع صحية يجب كسر الماء ببعض قطرات من الكحول. في الحقيقة كانوا كتلاً من اللحم الثمل تقاتل، تتقدم أو تسقط تحت القنابل.

«أحب من يواجه الحياة، والموت أيضاً. أعطني هذا»، قال باسبوا بصوته الطفولي الحاد.

أخذ منه بنت آوى وحملها في ذراعه اليسرى.

في مركز القيادة، على ضوء النار، حاول الرقيب إعادة قراءة رسالة من زوجته مردداً لنفسه إحدى الجمل: «لا تنسى أن لك زوجة تحبك وابتناً بحاجة لرعايتك...» وضع بويشو بندقيته، وتمدد بالقرب من الرقيب.

- أين أنت ذاهب أيها الكاهن؟ سأله بويشو.

- سأعود، نم أيها المغفل، أجا به باسبوا.

خرج متقافزاً فوق الأجساد المتمددة.

بدا الليل، المليء بنباح بنات آوى الذي يحاصره، رقيقاً كامرأة؛ القمر يغرق القمة في حليبه والنجوم تلمع في درع البحر وفوق الهضاب. التصقت فاطمة ببطن باسبوا وهي تخذش القماش السميك لحزام البندقية، ووصلت حتى وجهه ولعقته على حين غرة.

مسح باسبوا لعابها بقفا يده.

(1) الزاج: حامض كبريتي يخلط مع المياه.

«اهدئي، اهدئي يا حلوتي»، قال.

في فرنسا، في بعض الليالي، إنه نقيق الضفادع ما يسمع من بعيد في الوديان، كقطرات ماءٍ تسقط في حوض ثم تبدّد بهدوء.

إلى الشمال تمكن رؤية تحصينات مدفعية هنري الرابع أمام القنصلية السويدية. وعلى الطريق، ما زالت عربات العتاد والإمدادات العسكرية التي تجرها الجياد تتقدم بفوانيس معلقة على أطرافها، عند سفوح الوادي حيث خيم لواء دامريمو الليلة الماضية. ولكن ترتيبات الجيش تبدلت حالياً. وفي مكانٍ أبعد، تظهر مراكز تموين الجيش لقسمي الهندسة والمدفعية. وقبل الوصول اليهم، ثمة طريق تتشعب باتجاه هضابٍ أخرى لتهبط في منحنياتٍ خفيفةٍ من جهة السهل حيث ترتعش النيران. وثمة سياج من أشجار السرو ينتصب عند تخوم مزرعة تبدو مهجورة.

وضع باسبوا بنت آوى على الأرض، فجثت على قوائمها، استعداداً للاستلقاء. انحنى وداعبها طويلاً، من رأسها حتى ذيلها، مرتباً خطمها المبلل، ثم فك الحبل عن عنقها. في البداية بقيت من دون حراكٍ ثم تقدمت قليلاً، كأنما تتأكد من أنه لم يعد هناك أي رابط، ثم وبأنفٍ لصيق بالأرض انزلقت في العتمة واختفت.

سيدير باسبوا ظهره ويمشي باتجاه القوافل التي تسير متهادية. وكان ليقول لبويشو إنه جاء الوقت لإعادة فاطمة إلى الغابات لأن الحرب انتهت ولأن بنت آوى العربية هذه لن تعتاد قطّ على الرجال الآتين من الجهة الأخرى من البحر. وانه سيأتي يوم يجب تحريرها فيه، أو أنها ستهرب، وسيقتلها ساذج ما على سبيل التسلية. لقد أنقذناها ولم نحولها إلى حزمةٍ من التبغ. حرية الحيوان مهمة فهي الآن ستعود للصيد وللركض والخوف

ولن تكون مجبرةً على احتمال رائحة الشمالى. فقد أبهجته فكرة أنه أعادها في الليل وبأنها ستبدأ قريباً بالنباح باتجاه القمر شبه المكتمل أو الهواء الذي يهب من الصحراء في المقلب الثاني من الجبال وللمرة الأولى منذ الإنزال. فجأة تحولت السماء إلى كتلة نارٍ. لم يشعر بأسبوا بشيء. رأى فقط شعلة حمراء يغلفها حزامٌ ذهبيّ، وقع أرضاً، واستقر وجهه على التراب الحار.



# الجزء الثالث

## حفنة فاصولياء

### الفصل الأول

يشاهد بويشو دخول السيد دو بورمون إلى الجزائر: رداً فعله وخوفه من احتمال إصابة صديقه بمكروه، في حين يقتحم الجيش الفرنسي الأبواب على وقع يودل<sup>(1)</sup> «غيوم تل»<sup>(2)</sup>.

#### 1

تشرف القصبة على جميع الأراضي وصولاً إلى المرفأ، وهي ترصد كل التحركات في البحر وحتى عند البوابات. هنا فقط، يشعر الداى حسين بأنه سيد هذه الأرض. يتحسّس مقبض سيفه القرمزي في حزامه، لابساً

(1) يودل وبأصلها الفرنسي Tyrolienne: هي تقنية غناء اليودل والتي تقوم على الانتقال السريع من أصوات الجسم إلى أصوات الرأس. وهي تقنية اعتمدتها شعوب في مناطق جبال الألب في سويسرا والمانيا والنمسا. وغالباً ما تقدم هذه الأغاني في الأعراس القروية، وتكون عامة هزلية.

(2) Guillaume Tell أو وليام تل: بطل وطني سويسري وجزء من حكايات استقلال سويسرا عن النمسا، وهو الذي تحدى الحاكم النمساوي الذي وضع قبعته في منتصف سوق البلدة وأمر الناس بالانحناء لها، وهذا ما رفضه غيوم المشهور بالرماية، فأمره الحاكم برمي تفاحة فوق رأس ابنه، ونجح في إصابة التفاحة بسهمين متتاليين، وعندما سئل لماذا أحضر سهمين بدل واحد، قال إنه كان ليقتل الحاكم لو أصاب ابنه، فأمر الحاكم بأسره وهذا ما أشعل أحداث الصراع الذي انتهى باستقلال سويسرا.

سرواله الفضفاض، متدثراً بجلاية مطرزة من الجوخ الناعم، تصل حتى لحيته الشائبة، ويغطي رأسه لفأخ حريري يلامس طرفه أذنيه.

إنه لا يصدق أن فرنسا أرسلت كل هذه القوات من أجل نصرٍ غير مؤكد. وكما علم أيضاً، كادت تحرك سلطان مصر ضده، وهذا ما يتجاوز الاتفاق بينهما<sup>(1)</sup>. وكان الله أراد له هذا الامتحان، بما أنه يتزامن مع الاحتفالات بمرور أربعين يوماً على نهاية رمضان، تماماً كالأحداث التي وقعت قبل ثلاث سنوات والتي تسبب بها كلابه الخونة، والتي يمكن تسميتها بـ«حادثة المروحة»<sup>(2)</sup>. فقد راجع الداوي الأرشيف مراراً وحفظ ما فيه عن ظهر قلب. واسودت يده من الغبار وهو يقلب في أكوام الرسائل

(1) تصادف في ذلك الوقت أن كان قنصل فرنسا في مصر السيد دروفيتي من أصدقاء محمد علي حاكم مصر الذي كان ينوي الاستيلاء على بلاد الشام فأشار عليه دروفيتي بأن يزحف بحراً إلى شمال أفريقيا لينشئ فيها مملكة أوسع فسأل لعاب محمد علي وهو يستمع لفكرة صديقه دروفيتي. كما تم التفاوض مع محمد علي بواسطة دروفيتي على وضع اتفاق بشأن الحملة، يتعهد فيه محمد علي بأن يخوض الحملة وحده وبجيته، في مقابل ذلك تقدم له فرنسا قرضاً بقيمة عشرة ملايين فرنك تدفع على أقساط في أثناء الحملة، ويسددها بعد ذلك في مدة عشر سنوات، كما ستساعده فرنسا على تشديد الحصار البحري على شواطئ طرابلس الغرب وتونس والجزائر.. قبل محمد علي هذه الشروط، لكنه طلب من فرنسا أن تقدم له مجانا أربع سفن حربية كبيرة، في كل منها 40 مدفعاً، وأن تقرضه واحداً وعشرين مليوناً فرنكاً يسددها في أربع سنوات تبدأ في اليوم الذي يتم فيه احتلال الجزائر، وفي مقابل ذلك يتعهد محمد علي بأن يطلق يد فرنسا في شمال أفريقيا ويمنحها امتيازات اقتصادية استثنائية، وأن يقضي على القرصنة في البحر المتوسط، وأن يدفع لخزينة السلطان مثل ما يدفعه لها عن مصر.

(2) Coup d'eventail أو ما بات يعرف بـ«حادثة المروحة» وهي الحادثة التي رمى فيها الداوي القنصل الفرنسي بالمروحة، ففي 29 أبريل 1827 سأل داي الجزائر القنصل دوفال - الذي قَدِمَ للتهنئة بالعيد - عن سبب عدم رد الحكومة الفرنسية على رسائله فردّ القنصل «إن ملك فرنسا وشعبها لا يحتران لك ورقة، ولا يرسلان رداً حتى على رسائلك المرسله»، حينئذ نهض الداوي من مكانه محتثاً وضرب مخاطبه بالمروحة (منشة الذباب) التي كانت بيده مرتين أو ثلاث مرات.

القديمة للوزراء والملوك. وفي واقع الأمر، بدأت هذه المباحكات، منذ أن اقترح تقديم الخيول والحبوب والزيوت وحتى الأموال للجمهورية الفرنسية في حربها ضد الأوربيين، وكتب أحد أسلافه، سيدي حسن، في 12 يوليو 1795 إلى أعضاء مجلس الأمن الوطني<sup>(1)</sup>، ليوصي بوكيله في مجال الاستيراد والتصدير يعقوب كوهين بكري. بدأت القضية في هذا اليوم، ومذاك باتت تعرف بقضية بكري.

لم يعد هناك من مجال للشك أمام الداي حسين. فقد تبدد الغضب الشديد الذي استبد به الليلة الماضية، ولم يبق له سوى الموت أو الخيانة. عليه الإذعان إذا ما أراد ألا تستحيل المدينة رماداً. عند الصباح أيضاً، أشعل الحراس النار في مخزن الخنطة في القصبية. وفي المساء علم حسين أن المفتي الأكبر المعزول جمع نحو ألفي ضابط ومقاتل في ثكنة الآغا. في البداية أيد المجتمعون التحرك باتجاه الحراش<sup>(2)</sup>، حيث لم يتمركز الفرنسيون بعد، ثم مالت الأغلبية إلى خيار البحث عن تسوية، وذلك تفادياً لردود الأفعال الانتقامية. هذا ما يحصل عندما يهجن عرق ما. في القديم، كان الأتراك قادرون على فعل كل شيء، أما اليوم، فتحكمهم دموع النساء الجزائريات. ما عاد يجدي شيئاً استقدام مقاتلين متزوجين أساساً من القسطنطينية، ما داموا كانوا قد سمحوا برؤية العازبين يرتبطون بالجزائريات. فهو يفضل أن يكون تحت إمرته مرتدين على أن يكون هؤلاء الأبناء غير الشرعيين للكراغلة<sup>(3)</sup>. فعندما يحارب الجيش بذهنية عدم خسارة أي من ممتلكاته،

(1) Comite de Salut public: أول جهاز لحكومة الثورة الفرنسية أوصى به الميثاق من أجل التصدي للمخاطر التي واجهت الجمهورية في العام 1793.

(2) الحراش: مدينة جزائرية تابعة لولاية الجزائر.

(3) Coulougli ويسمون الكراغلة أو القواغليين وهم أبناء الأتراك المتزوجين من أهل =

ينتفي وجوده.

ماذا حصل؟ كيف وقعت الجزائر المظفرة، الجزائر المحمية في يد الخونة؟ أهو عمى جماعي؟ أم استخفافاً بإمكانيات العدو، أم سلسلة أضاليل، أم مشيئة إلهية؟ كان شيئاً من كل هذا على الأرجح، لأنه لم يبق أي أمل وأفسدت الهزيمة الضمائر. فعند القلعة جماهير لم يشتها الليل تفرع الأبواب، وهو، حسين المسالم المؤمن البورجوازي الهادئ، يجد نفسه مضطراً إلى لعب دور البطل.

وجد الداوي حسين نفسه عاجزاً عن فهم ما يحصل. هو ضابط المشاة القديم الذي «مثل بونابرت» - كان يحب تكرار ذلك - وخدم كل مدته تقريباً في القسطنطينية، قبل أن يرسل إلى الجزائر، وعند موت علي خوجة بالطاعون<sup>(1)</sup>، انتخبه العسكر للحكم بسبب حزمه وعدله وطيبته، وإيمانه أيضاً، إذ أنه كان يطبق الدين بصرامة ولم يكن له سوى امرأة واحدة.

بالنسبة إلى البرابرة، كما في السابق، فإن الرجال النحفاء يستدعون إماماً الشفقة وإماماً الريبة. هو وفي سن الخامسة والستين، بمهابة لا يقلل من شأنها قصر قامته، تكسبه الثقل الذي ينبغي توافره لدى أهل الصلاح. فما الذي عليهم أن يخافوه من أمير، يوحى بحق بامتلاكه ثلاثمائة ليرة، لأن لديه مائدة عامرة وخداماً مخلصين، فالحياة الكريمة التي عاشها كانت معروفة للجميع. كان يتحاشى الفاسدين والفاسقين ويبحث عن البساطة في الحكم ما عدا عندما يتعلق الأمر بإرسال الرسائل الخارجية عن حجم نفوذه: خمسون من العبدات السود الحسناوات من الصحراء، وجيش

= الجزائر، أكانوا من البدو أم من المواطنين.

(1) هو الداوي علي باشا خوجة الذي توفي بسبب مرض الطاعون الذي أصاب المدينة في 1818م، وهو نفسه الذي أوصى بولاية الداوي حسين من بعده.

حسن التجهيز، ولو بأجور زهيدة، من أجل الدفاع عن الجزائر. إن لم يكن كذلك، كيف كان سيُنظر إليه؟ لم يعد يرغب في صرف الأموال، منذ أن شحّت موارد التجارة أو بالأحرى انعدمت، وبلاد من دون موارد تكلف الكثير. كان يتأمل نقطة ضعفه الوحيدة، من تحت نظارتيه الدائريتين بإطارهما الذهبي: تمتد عبر الأروقة والردهات وتمتعه على امتداد النهار. كل ربع ساعة، أربعمئة بندول مثل العصافير، تملأ الدنيا بغنائها. هؤلاء النصرانيون الذين لا يكفون عن مراجعة ساعاتهم ويحددون مواعيدهم بالدقيقة، عرفوا جيداً كيف يصنعون للوقت أصواتاً مبهجة، على الرغم من أنهم يجهلون استخدامه. فما إن تدور الآلة المبدعة في ساعات الحائط هذه، حتى يبدأ أناس أو حيوانات بالرقص أو بإلقاء التحية. إذ أولى حسين للنصرانيين هذه المهمة. ولا شيء آخر. لم يملك يوماً جارية، كما يفعل حكامه الذين يعاقرون الخمرة ويأكلون الأطعمة المحرمة مع النساء.

داخل القصر، ومنذ أن اختفى الساعاتي، والساعات تقرر على سجيّتها وتبتكر المواقيت. ويتكدّس الحراس في الأروقة والأفنية. أعاد حسين قراءة فقرة الاتفاقية المترجمة كلمةً كلمةً مع إعادات لا تترك أي مجالٍ للشك: «للداي حرية الانسحاب مع عائلته وثوراته إلى الوجهة التي يحددها. وسيوفر القائد الأعلى للجيش الفرنسي الحماية له طوال فترة بقائه في الجزائر. كما سيؤمن له حرساً يسهر على أمنه وأمن وعائلته». هذه رحمة من الله، ولكن هل يمكن الوثوق بكلام نصراني؟

طلع الفجر. وفي عجلةٍ من أمره، وما داموا يتهمونه بكل مآسي الماضي، المحاضرة وتلك الآتية، أوفد مساعده إلى السيد دو بورمون.

## 2

عندما حان موعد نوبة الصباح، استغرب بويشو غياب بنت آوى، تلك التي كان يشدّها إليه في الليل، وتوقظه بحركتها وأصواتها، حتى يضطر لمعاملتها بقسوة أحياناً. اشتم الرائحة المتوحشة لفروها. ومذاق مرّ لاذع في فمه، ممطّى ثم نهض بسرعة وهزّ جعبة باسبوا وحقيبة ظهره المركونتين بقربه.

انجلى الأفق بسرعة، واختفت آخر النجوم في السماء خلف جذوع النخيل حيث كان الرجال يبدلون ملابسهم. سأل بويشو زملاءه والريب عن باسبوا وبنت آوى، لكنّ أحداً لم يرها.

«كنت متعتاً من السكر مساء أمس، ابحت عنهما»، قال له الريب. تجهّز وانطلق، من دون وجهة محددة، منادياً فاطمة. بالقرب من مركز الميرة<sup>(1)</sup>، سمع نباحاً فاقترب من معالف الكلاب. جال بين المدفيعات والأفواج والمخازن التي تحيط بحصن الإمبراطور. الجميع يبدلون ستراتهم العسكرية وينظفون أسلحتهم ويجددون عتادهم. وعندما خطر له احتمال أن يكون باسبوا قد ذهب إلى القيادة العامة هرع إلى هناك، بيد أنه لم يجده. عاد محبطاً ثم توقف ضائعاً. الشمس تلسع بقوة، أراد العودة من جديد لكن هذه المرة أوقفه الريب.

في البعيد، خلف السيد دو بورمون، ممتطياً حصانه مع مساعديه الميدانيين وكل قيادة الأركان بقبعاتهم المزينة بالريش، والكتفيات<sup>(2)</sup> المذهبة والثياب المزخرقة، تقدمت مجموعة الريب، وخلفها فقط عربات

(1) الميرة: نظام الطعام في الجيش.

(2) الكتافية هي نسيج مقصّب على كنف السترة العسكرية.

القيادة العامة لنقل الأمتعة والإمدادات العسكرية. فبعد سلسلة من التلال المشجرة، وحصن الإمبراطور الساقط، تظهر المدينة فجأة على بعد ربع فرسخ خلف جدران القصبية العالية المحصنة. المتاريس المرصوفة على زاوية مستقيمة تنحدر حتى الشاطئ، وخلف السماء اللازوردية الناصعة حتى الإبهار، تبدو المنازل المترصّة، الواحد تلو الآخر على تلة مستديرة، حيث تلمع المنارات من وقت لآخر. هذه هي الجزائر، هذه المكعبات المترصّة المسحوقة تحت الهضبة الكبيرة لبوزريعة، هذا المرفأ الصغير المحتشد بالمراكب. في الأسفل ولجهة الشرق في نتوء عند الشاطئ، يقع حصن باب عزون. «مدينة من الشرق، مع الأسواق الشرقية وبؤسها، هذا كل شيء»، قال بويشو ساخراً. تذكّر صباح القذيفة الشهير ذاك، حين اعتقد بأسبوا أن صديقه متكدر فأحضر له بنت آوى. قال له بأسبوا حينها «لا يمكنك أن تعرف». أعرف ماذا؟ أي ما عدت قادراً على الاحتمال؟ في العادة بأسبوا هو من يهدئ روعه.

من دونه هو وفاطمة، يشعر بويشو بالوحدة والحزن. لكن أيضاً وبالرغم من شدة القيظ يشعر بأنه على ما يرام هنا. ربما بسبب عذوبة الليل أو الكثافة الممتعة في الجو. شرب قارورة النبيذ المخفف من صنف «لانغيدوك»، التهم الوجبة اليومية الرديئة وتمدد على الأرض، ولكن ما إن نظر إلى البحر من فوق الهضاب حتى شعر بوخز الشوق. فقد حمل له الضوء عويل الرغبة وعندما هبط الليل بدا أن النجوم تعدّه بشيء ما. ربما بماري ألدبرام، جوهرته.

## 3

تتقدّم الألوية عشوائياً، لكي تلتفّ على المدينة من جهة الأطراف. سلاح المدفعية حائرٌ والسيد دو بورمون انطلق مستاءً بمفرده، مثل مرافق تافه في القيادة، مع من تبقى له من مساعدين ميدانيين، للبحث عن فوج جنود ضائع، في حين أن السيد دو لاهيت غاضب من هذه الفوضى ومن غياب الخط الموحد - ولكن ماذا يمكن الانتظار من روح دنيئة مثل روح النقيب الجنرال ديسبريز؟ قرر أن يسبق الجميع إلى قصر الداوي. وانطلق بسرعة باتجاه المتاريس، مع ضباطه المجلّلين بالأسود والذهبي، على صهوات جيادهم، مخلفين وراءهم غيمة من الغبار.

في النهاية، عاد السيد دو بورمون خلف موسيقى الطابور السابع عشر وراياته، وشوهد وهو يمر قبل أن يختفي خلف الكتائب.

تذكر بويشو أن باسبوا الام السيد دو بورمون في تولون لأنه وصل من دون طلقات نارية أو قرع للموسيقى. ثم اخترقته فكرة مأساوية: ماذا لو كان باسبوا قد خرج للحاق ببنت آوى، فقتله العرب الذين يحومون كل ليلة حول مراكز الجيش. في هذه الحالة سيطوف بويشو وبدلاً من القائد الأعلى، بالنعش الذي سيحمله قدامى رفاق فوجه خلف رماة المدفعية. ولن يكون نعشاً عادياً من خشب الصنوبر مثل ذلك الذي أفرغ من البواخر، ولا من خشب شجر الكستناء من سيفين<sup>(1)</sup>، وإنما من السنديان السميك، له مقابض مذهبة من الخشب الصلب ومغطىّ بالعلم الملكي بزهور الزنبق المذهبة الحواف. النصر لباسبوا إذن؟ نصر تقام له المراسم الطنانة التي تليق بكل من يقضي مثله خدمةً للملك والأمة كرمى للحق

(1) سلسلة جبلية في جنوب وسط فرنسا.



واللاحق، لا نعرف قطّ، مسحوقين تحت ركام قلعة نابوليون، متشظين في الهواء بفعل انفجار مهشمين بالقنابل ممزقين بالقذائف مطعونين بالسيف أو معثوراً عليهم مبتوري الرؤوس أو الأعضاء التناسلية. وإن شاء سوء الطالع أن يكون العرب قد فعلوا هذا بباسبوا، فسيجعلهم بويشو يدفعون ثمناً باهظاً جداً.

يتقدّم الجنود في آخر الفوج بصورة عشوائية حاملين بنادقهم بالقلوب. فالطريق مليئة بالأثلام لا تلائم استعراضاً إيقاعياً والغبار التي تخلفه أحذيتهم خانق. تنسدّ الطريق أمام «باب الجديد»<sup>(1)</sup> والمتاريس هناك كانت فارغة. المدينة صامتة وكأنها تصيخ السمع. من يدري، ربما أخلّيت في الليل بحراً وبراً، لأن بويشو يتذكر الآن أنه رأى الخليج مليئاً بالقوارب: الناس لم يذهبوا إلى الصيد، لقد هربوا، حتى إن الأسطول الحربي لم يعد هنا ليؤمن الشاطئ.

الموسيقى تصدح حتى الأبواب الكبيرة.  
«غيوم تل، هذا جميل» قال الرقيب وصفرّ.  
«انظروا»، قال أحدهم.

فوق الأبواب التي تقطر دماً، أطلقت رؤوس فرنسية لا يمكن الخلط بينها وبين رؤوس أهل القبائل بسبب شعورها الطويلة وسوالفها الصهباء.

تحت الشرفة، حيث تعبق رائحة البول والروث الخانقة، سمع صوت

(1) «باب الجديد» كما يسمونه في الجزائر، وPorte Neuve كما أسماه الكاتب، وهو أحد الأبواب الرئيسة لمدينة القصبة وسط الجزائر، والذي بات هناك اليوم حيّ باسمه. ومن الجدير ذكره أيضاً أن مدينة القصبة (والتي تعتبر المدينة القديمة في الجزائر) هي واحدة من المدن التي صنفتها اليونسكو ضمن التراث العالمي، وهي المدينة التي كانت تعد 10 آلاف بناية قبل الاحتلال الفرنسي وتقلص العدد إلى ألف مبنى بسبب محاولة تجديد فرنسية لخلق حياة فرنسية جديدة على أنقاض تلك العثمانية التي سبقها.

قريب جداً لزغرودة أغنية اليودل. وقع خطي يتردد تحت القنطرة، ومسامير النعال تصر على البلاط. ثم من الجهة الأخرى، من مكان ناء جداً، وكان المنازل المتكدسة تقطع انسيابه، تصل متهادية دندانات مرحة لـ موسى في مصر<sup>(1)</sup>. وأمام حشدٍ من الفضوليين بوجوه غريبة ومرّوعة أفواهاها فاغرةٌ وعيونها تحدّق تحت قلنسوات ملفوفة بعصابات من كل الألوان وأقدام حافية أو منتعلة بابوجاً مهترئاً، مر الطابور المزدوج من الجند بملاحمهم الباردة وكأنه موكب جنائزي أكثر مما هو عرض، اخترق زقاقاً ضيقاً عند المنحنى القاسي الذي تقطعه ممرات موحلة حيث كانت تتزحلق عليها الجياد وأحياناً تتلاطم. وبالرغم من أن الموكب تخطى القمة غير أن الشمس لم تكن قد لفحت سوى أعالي الجدران من دون أن تصل إلى الزقاق إلا بشكل متقطع وبحدود مساحات ضيقة. للظلال هنا رائحة الزيت النتن والتوابل. وفي النهاية وصلوا إلى باحة مرصوفة بالرخام ترجل فيها السيد دو بورمون وأعضاء القيادة العامة بين نافورة وشجرة ليمون عملاقة محملة بالثمار.

كان الداي قد أنهى للتو إخلاء المكان وتكدّست أروقة القصر وأفنيته بالصناديق والأسلحة ولفائف الحرير التي لم يتبق وقت لحملها. وفي الغرف تبعثرت على الأرض صناديق وعلب ومرايا.

(1) Moise en Egypte أي موسى في مصر، وهي أوبرا إيطالية للمؤلف الموسيقي الإيطالي الشهير جواكينو روسيني (1792-1868) من أربعة فصول ألفها في العام 1818 وقدمها في مسرح «سان كارلو» في نابولي. وأعاد توزيعها من أجل الأكاديمية الملكية للموسيقى في باريس العام 1827 تحت عنوان «موسى والفرعون أو عبور البحر الأحمر». وتحكي الأوبرا قصة موسى والفرعون وهروبه في البحر الأحمر، بناء على العمل التراجيدي لفرانسيسكو رينغيري.

## 4

وهكذا دخل الجيش إلى الجزائر.

خلف النوافذ الضيقة وعلى الشرفات، كانوا يلمحون وجوهاً وأشكالاً مبهمّة. وبعد إقفال الأبواب، وحدهم اليهود تقريباً من خرج إلى الطرقات. هم الذين، وحتى الليلة الفائتة، لم يكونوا قادرين على الخروج إلا مشياً على الأقدام متدثرين بالسواد يهرولون جماعاتٍ أو ممتطين ظهور البغال بأزيائهم المضحكة الفاقعة وأحياناً يكونون برفقة الزوج. وفجأة يبدو وكأنه لم يعد هناك لا عبدٌ ولا سيّدٌ وأن النعم ستنتقل من يدٍ لأخرى كنقل البندقية من كتفٍ لأخرى. اقترب اليهود من الجند وعرضوا عليهم خدماتهم وقبلوا أيديهم متممين بلغة مطعّمة بكل المفردات الشرق أوسطية. وبوضوح، بدوا الوحيدين السعداء بسقوط الأتراك. أما الجيش فلم يتحرش به أحد وبدا أن العرب يتجاهلون. فلا أحد يتفاعل لا مع نظراتهم الشرسة التي تتفرّس بكل ما يحيط بهم ولا حتى أحياناً مع التحيات التي يلقونها، وكأنهم يمرون بعميان.

أشعرتهم هذه اللامبالاة بالضيق. كانوا ينتظرون اكتشاف العجائب في حين لم تكن سوى مهلكة متعفنة وبيوت متشابكة. ومن أجل منع الصفوف من التشتت كان من الضروري قرع الطبول.

ما عدا يوم الاستعراض وصولاً حتى حصن الإمبراطور، لم يشهد الجيش أي تطواف فضيق الطرقات التي لا يمكن فيها لثلاثة جنودٍ من التقدم بشكل متوازٍ ناهيك عن ضيق الساحات العامة، أجهض كل محاولة نشر للجنود. هذه هي الأعدار التي قدمت لشرح التحفّظ في إعلان النصر.

كان القصر مكتظاً، إلى درجة أنه لم يتمكن سوى القائد الأعلى، ورئيس

الأركان، والبارون دينيه من الحصول على حجرات لهم. وحُشر الضباط قدر الإمكان، في حين رمى الجنود معداتهم في الأروقة والأفنية. انسحب السيد دو بورمون ليدون جدول أعمال اليوم. فعل ذلك بخطٍ محايدٍ شديد الدقة، ففي الوقت الذي كان فيه الجميع ينتظر وصول خبر وفاة ابنه، لم يكن أحد ليجرؤ على إضافة شيء: «احتلال الجزائر كان هدف الحملة» كتب السيد دو بورمون بخطه الصغير الحاد، وأضاف «إخلاء الجيش اختصر المهمة التي يجب إتمامها. عشرون يوماً كانت كافية من أجل تدمير هذه البلاد التي يسبب وجودها المتاعب لأوروبا منذ ثلاثة عهود... وقریباً ستضاف ثروات الوصاية على العرش إلى ثروات فرنسا».

وبعد نسخه تداولت قيادة الأركان النص. بدا محبطاً إذ لا يرقى إلى مستوى الحدث، فقد جاء حتى من دون اعتماد أسلوب بونابرت ولا إذاعة خبر النصر العسكري بصوتٍ عال. كان يمكن للسيد دو بورمون أن يجد في آلامه وحدها ما يمكن أن يعطي روحاً للنصر. ربما تواضعه يفرض عليه عدم استثارة غيرة الضباط الذين بقوا في باريس بإعلان نصرٍ مدو. لم يفهم بأنه لا يحق له أن يكون باهتاً عندما يكون الجيش بانتظار صدئٍ لكل آلامه الخاصة وآماله. وبالخط نفسه، بدأ يخطط برقية إلى الحكومة.

- في النهاية، كل شيء ينتهي إلى موضوع المال. هل أنا مخطئ؟ في البداية، كانت تبدو الأهداف مختلفة، قال الملازم أول دو روي لصديقه تاليران.

- ما رأيك بذلك حضرة السيد؟ استدار النقيب تاليران سائلاً النقيب لو مير.

- لن يؤول هذا الذهب إلينا على أي حال. أتما تدر كان ذلك بالتأكد أكثر مني. وإن لم أكن مخطئاً، فإن عمك أمير تالايران أصّر على أن تدفع ديون جيش الثورة.

- وهذا ما حصل، فقد صدّق مجلس النواب على هذا القانون.

- ولكن المدينين اعترضوا ولم يصل للداي شيء. كان سيكتفي من دون شك بالمليونين ونصف المليون التي ذهبت إلى صندوق الضرائب والودائع الفرنسي. فرما لزمه عشرة قرون لتحصيل هذا المبلغ. ضعوا أنفسكم مكان الداى. انتهى المسكين بأن اسشتاط غضباً، وسأل القنصل هل تعتبرني قواداً. وطرده بدفعة خفيفة ناعماً اياه بالكلب. هذه هي حادثة المروحة في 1827...

بالنسبة إلى النقيب لو مير فإن القنصل وفرنسا عاشا فترة طويلة الإحساس بالمهانة. ومع إعلان التحدي قلبا المعادلة فكان النصر من نصيب دعاة الحرب في باريس. وبدأ النقيب لو مير يتحدث بطريقته الساخرة عن الأعداء بصوتٍ أراد ان يجعل له وقعاً فروسياً أرسقراطياً لأنه يخجل وهو البورجوازي المنشأ، أن يكون جندي مشاة:

- إنهم شعب كسول، هؤلاء الجزائريون، هل تتذكرون البدو يقعدون طوال اليوم أمام أكوأخهم وأحيائهم ويكتفون بأكل البطيخ وشرب القهوة في حين تعمل نساؤهم. وفيما يخص الجزائر، فالقليل الذي أتيج لي رؤيته حتى الآن، يجعلني أعتقد أن هؤلاء السكان بلداء وأن الضجر يفوح من طرقاتهم. فنحن نشرف كثيراً هذه المدينة بدخولنا إليها. أعتقد أني أجبطكم. أليس كذلك؟

- الكثير من رجالنا قضاوا الكي ينقلوا إليهم حضارتنا، هل قضاوا عبثاً؟

قال الملازم أول دو روي.

- أنت رومانسي، عزيزي، وتعيش في الأوهام، كن حذراً إن أردت البقاء هنا.

- وهل تعتقد بأننا سنبقى؟

- «لا فكرة لدي.. ما المانع؟ قالها بعدم اكتراث.

## 5

قبل بزوغ أولى أشعة الفجر تردّد صوت الأذان البطيء وحلّق فوق المدينة. لم تكن فقط مجرد صلاة ترتفع من المآذن، وإنما تحدّ للعالم وللغرباء. وعلى الفور تقريباً، وعند قمم التلال بين القلعة وحصن الإمبراطور، لجهة إصطبلات الداي عند أول القصبّة، أعلنت أبواق الفرسان النحاسية بدء نوبة الصباح، ووصل دويها إلى النجوم وجعلتها ترتعش وكأن ثمة أساطيل تتحضر لاقتحام أعماق الليل باتجاه جياد الشمس التي ستشب إلى الجبال، بأعرافها المنطلقة في الهواء تقفز بين السهول ثم تضرب فجأةً بحوافرها النارية سطح البحر. يتبع ذلك، قرع طبول مفاجئ للمشاة من كل جوانب السور وحتى في القصر. كان النهار قد طلع، لا ضباب، ومراكب السيد ديري التي تقدمت خلال الليل استراحت مرخية صواريتها المكشوفة فوق سطح البحيرة الذهبي الواسع. وفي ذرى أشجار النخيل، كانت عصافير الدوري ترقزق بأعلى صوتها ودخان ينبعث عامودياً من الشرفات وعند أسفل المتاريس. وشيئاً فشيئاً عمت المدينة جلبة الجيش.

تقدم بويشو نحو الحديقة مستنشقاً الهواء مثل كلب. الرائحة تأتي على الأرجح من أشجار الليمون والسرور. لم تكن أشجار الليمون قد أزهرت

بعد، بيد أن الرائحة بدأت تفوح دافئة نفاذة مدوّخة من أوراقها ومن أغصان السرو.

ظهر الملازم أول دو روي في القسم. وجهه الرقيق المؤطر بالسوالف بدا لبرهة وكأنه يخفي قلقاً.

«أيها الرقيب، لقد أحضرت بويشو».

– لقد اهتممت بصديقك باسبوا، أنت تحبه كثيراً، أليس كذلك؟»، قال له عندما خرجا.

– كثيراً، سيدي.

– إذن، يجب أن تستعد للألم.

مشيا بصمت سالكين طريق الهضبة التي كان يشغلها لواء البارون هيرل، الواقعة على بعد نحو نصف فرسخ من حصن الإمبراطور، وذلك لتفادي الغبار المتصاعد من الأشغال والقوافل. كان هناك ملازمٌ برفقة بضعة جنود بانتظار ضابط القيادة العامة بالقرب من القبر المحفور ونصف المفتوح الذي ما زال يظهر منه أعلى الجسد.

«كان يحمل قلادة ما، على ما أذكر».

بحثا ليجدا ميدالية فضيةً تتدلى من سلسلة، نقش عليها رسم للسيدة العذراء من جهة، ومن الجهة الأخرى حفر تاريخ «25 ديسمبر 1808»، قد يكون يوم ولادته أو معموديته.

«إنه هو»، قال بويشو.

وفجأة وقبل أن يذهب، توقف الملازم أول، استل سيفه ومدّه باتجاه جثمان باسبوا للحظات، بقي خلالها متجمداً، ثم أعاده إلى غمده وغادر بهامة منتصبه تحت الشمس. في حين كان سروالا ضابط القيادة العامة

وبويشو الحمراوان يتوهجان تحت الشمس. «أنا من قتل باسبوا، لقد ثملت ذلك المساء»، قال بويشو.

فجأة تخرج صوته، وغمرته موجة من الحزن. «لا أريد أصلاً أن أنتحب»، قال محدثاً نفسه. ولكن بسرعة انقبض صدره وشعر بالدموع تنهمر على وجنتيه. مشى تحت الشمس، وكان كل شيء متداخلاً. شعر بأنه يختنق.

«بنت آوى، كنت لأهديك إياها سيدي الملازم أول»، قال بويشو.

في القصر، طلب السيد دو بورمون، أن يتم ترتيل واحدة من الـ «تي دوم»<sup>(1)</sup>.

في وسط الباحة الرخامية، وضعت صناديق مزخرفة مغطاة بسجادة وملاءة وفوقها صليب وشمعدانان من النحاس، بدأ الكهنة بالبطرشييل<sup>(2)</sup> تلاوة القداس، في الوقت الذي كانت تقرر فيه الطبول. وصل خبر وفاة النقيب أميديه دو بورمون إلى قيادة الأركان، ولكن لم يكن أحد بعد قد تجرأ على نقله إلى القائد الأعلى. وشعر بعض الضباط بالأسف لعدم إمكانية تنظيم موكب كبير احتفالاً بانتصار النصرانية بمشاركة كل الجيش وأمام كل المدينة وعند أعالي القصبية أو في ساحة باب الواد حيث كانوا يعدمون سابقاً النصارى واليهود. آخرون رأوا، ومن أجل تأكيد أكبر للنصر وجوب أن يحصل ذلك في الجامع الكبير في الجزائر.

(1) Te Deum نشيد مسيحي، عنوانه هو اختصار لكلمات باللاتينية «te deum laudamus» أي «نحمدك أيها الرب». وهي صلاة غير معروفة كثيراً اليوم، تعود إلى القرون الوسطى، يمكن ترتيلها أيام الآحاد وخلال بعض الأعياد، وأيضاً في المناسبات الاحتفالية مثل أوقات الانتصارات والمواكب.

(2) البطرشييل الثوب الذي يلبسه الكهنة خلال القداديس.



بعد الصلاة الافتتاحية، ترتج القسيس ذو الستة وسبعين عاماً وهو يرتقي المذبح، فوق ألواح خشبية لم ترص جيداً، وكاد يسقط دون أن يتقدم أحد من زملائه لمساعدته. بعض ضحكات مكبوتة، تلاها شيء من الفوضى اكتشف خلالها الملازم أول دو روي الآنسة جيناتي في فستان قائم إلى جانب البارون دينيه. أخفضت عينيها وكأنها تحتمي من لهيب النظرات الموجهة نحوها. طرحة سوداء مخزّمة لا تخفي سوى القليل من صدرها المكتنز.

لكز الملازم أول دو روي زميله تالايان:

«لا أعرف إن كانت تجيد الرقص، ولكن لو شرفتني بمشاطرة السرير هذا المساء...»، قال بصوت منخفض.

اخترقت صمت كأس القربان رنين القطع النقدية المنهمرة في خزانة المال القريبة. كور النقيب تالايان إبهام يده اليمنى على السبابة عدة مرات قائلاً:

«أليس هذا عجل الذهب<sup>(1)</sup> هو الذي نعبده».

في النهاية، انتهى القداس، نزل القساوسة بحذر حتى آخر الدرج، وراح العجوز يرتّم بصوت مرتعشٍ نشيد الشكر.  
«تي دوم لومادوس...».

غطّى أحد المؤدّين السيئين للنشيد بحنجرته القوية على البقية. ابتسم

(1) صنم صنع للإسرائيليين خلال غياب موسى عندما ذهب ليصعد جبل سيناء، وحسب الكتاب العبري المقدس صنعه هارون لإرضاء الإسرائيليين بينما يقول القرآن إن صانعه السامري. تعرف الحادثة بالعبرية بـ«خطيئة العجل». وقد ذكرت هذه الحادثة في القرآن، حيث ذهب موسى إلى جبل الطور ليناجي ربه، فصنع رجل يدعى السامري عجلاً في غيابه فعاد موسى ليرى ما هم عليه من عبادة العجل.

الحضور. وهذا ما ذكر الملازم أول دو روائي فجأة بنهيق الحمير، وانفجار صرخاتها التي تنقلب إلى نغمات مربية في صعود وهبوطٍ مفاجعين. قاوم قدر مستطاعه ولكن فجأةً راح بطنه يهتز بشهقاتٍ فاستسلم لموجة ضحكٍ حاول كبتها مخفياً رأسه بين يديه.

بأي فخرٍ تغنى دون مرافقة الأرغن على لسان كهنةٍ من الكنيسة الكاثوليكية والرسولية والرومانية يتتعلون أحذية كاحذية فرسان الأرجل<sup>(1)</sup>، هل هناك منهم الكثير في الأرض والسماء؟ أي ذراعين ستحضنان الآنسة جيناتي السمراء التي من المفترض أن لها إبطان متعرقان؟ استؤنف الآن النشيد بايقاعٍ جنائزي وبدأ الملازم أول دو روائي الذي لمع في الدراسات القديمة، بتصحيح الترتيل الخاطئ باللغة اللاتينية. وشيئاً فشيئاً هدأت موجة ضحكه.

فهم القائد الأعلى أن عليه قول شيء ما، وبعد أن تنحج قليلاً ألقى نظرة سريعةً فرضت في لحظة الصمت على الحاضرين، ثم وبطريقة تلقائية جداً وضع يده اليسرى على مقبض سيفه وأدخل إبهام يده اليمنى في حزامه الجلدي. كانت ياقته العالية تزعجه. فإن كانوا راغبين في البقاء في أفريقيا فسيكون عليه أن يخطط للضباط والجنود بزات جديدة تناسب التقلبات المناخية فيها.

أوما الكاهن العام الى القائد الأعلى بحركة صغيرة من رأسه لكنه لم يتكلم وبقي كل منهما عالقاً في حرجه.

ثم تصاعدت جلبة، واحتشد الجميع حول الآنسة جيناتي إلى درجة أن الملازم أول دو روائي فقد الأمل بالوصول إليها.

(1) Dragon هم الفرسان الذين كان بإمكانهم أن يحاربوا أيضاً بأرجلهم.

«اتركها، ستلتقيها عند الغداء، لقد تمت دعوتها».

ثم، بعد حين، أضاف برقة:

- لقد رمتك الآنسة جيناتي بغمزة، يجدر بي أن أغار.

- شارة واحدة، عزيزي، هذا قليل. لا أشعر بأني على قدر المقام.

- واسمك السيد..؟ قال له تالايان متباهياً.

- الآنسة جيناتي امرأة.

لمس السيد دو بورمون كأسه بأطراف أصابعه الطويلة وتلفت قليلاً

بالاتجاهين. وساد الصمت.

«سيد الكاهن العام، قال بصوت لم يجهد ليجعله قوياً، لقد نقلت

إلى الملك تأثرك أنت ورفاقتك، من أجل جرحى المعركة. بصفتي وزيراً

للحرب، أؤكد لكم جميعاً، باسمي وباسم الأمير دو كروا، عرفاني

بالجميل. أنتم جئتم لتفتحوها معنا باب النصرانية في أفريقيا. ولنأمل أن

تزرعون فيها الحضارة التي انطفأت جذوتها».

اعتبر السيد دو بورمون أنه قال ما يجدر به قوله. في النهاية فالرب

الذي تم شكره هنا، هو رب المعارك. وأضاف ببساطة، متوجهاً إلى الآنسة

جيناتي:

«وبما أن بيننا الجمال والحسن بعينهما، فهذا يتيح لي أن أقدم التحية

لكل ما يترك أثره في نفوس الرجال في الحرب».

وقف ومثله فعل الجميع.

«باسم الملك»، قال.

كانت الشمبانيا ساخنة وتقريباً كريهة والغداء طويلاً مملاً. بعينين

لامعتين استمعت الآنسة جيناتي للدوق دو كار مائلةً إليه. وبحركة لا

إرادية، كانت تشد أطراف طرحتها إلى صدرها. في مقابلها، جلس الكونت فيلوزوفوف يبتسم بكياسته وقوته وثيابه الخضراء المزدانة بالشارة اللماعة. ومن غرف الطوابق السفلى، حيث مدت موائد للضباط الأدنى رتبة، تعالت أصوات الغناء. اتجهت أنظار الجميع إلى الأنسة جيناتي، بما فيها نظرات القساوسة الحانقة.

قدمت القهوة، ودّع السيد دو بورمون الجميع وذهب وتفرق بعدئذ الجمع. وعندما ذهب الملازم أول دو روي للبحث عن الأنسة جيناتي وجد أنها اختفت.

## 7

ابنه لويس هو من نقل إلى السيد دو بورمون خبر وفاة أميديه. وقف أمامه، باحترام، وفاض وجهه بالدموع والشهقات.

أسند السيد دو بورمون مرفقيه إلى الطاولة.

«أتريد أن تخبرني عن أميديه؟ أنا أعلم. اذهب إلى سيدي فرج مع أخويك واحرصا على أن يتم كل شيء بصورة تناسب مقامه. سأتي لو استطعت، الآن، اذهب واتركني».

اختار السيد دو بورمون ورقة معنونة، غمّس مجدداً ريشته في الحبر وأضاف: «الحرارة مرتفعة منذ بضعة أيام، ولعدة مرات أشار ميزان ريومر إلى ثمانية وعشرين درجة. وبالرغم من أن الحصار لم يدم أكثر من ستة أيام، فوتيرة الأشغال التي قام بها الجنود سببت لهم الكثير من المتاعب. أصبحت حالات الإسهال أكثر شيوعاً، بيد أن حالة المصابين لم تصل إلى درجة الخطر، فعدد المصابين بالحمى لم يتعدّ المائتين وخمسين. علماً أن عدد

من خرجوا من المعركة منذ تاريخ الرابع عشر، هو ألفي ومائتي جندي: أربعمئة قتيل، مائة وتسعة عشر جريحاً أرسلوا إلى المشافي؛ ولكن هنا كما في مصر يشفون فوراً. معظم الآباء الذين ضحوا بدمائهم من أجل الملك والوطن سيكونون أكثر سعادة مني: فابني الثاني أصيب بجرح بالغ في معركة الرابع والعشرين. وعندما كان لي شرف إعلان ذلك إلى سيادتكم، كنت مليئاً بالأمل بالحفاظ عليه لكنه كان أملاً خادعاً، فقد توفي للتو».

حاول السيد دو بورمون التوقف هنا. ثم فكر، قد يعتقد رئيس الوزراء أن الحادث سيأخذ في قلب القائد الأعلى أبعاداً قد تؤثر على مسؤولياته. وبعد لحظة تفكير، أضاف من دون تردد: «لقد خسر الجيش واحداً من أبنائه البواسل، وأنا فقدت ابناً رائعاً. أتمنى عليكم أن تنقلوا إلى الملك، أنه بالرغم من هذا الجرح العائلي، لن يضعف عزمي على أداء الواجبات المقدسة التي يفرضها عليّ ضميري».

أصبح القائد الأعلى يملك غرفة قريبة، فيها منضدة من الخشب المطعم والمرصع باللؤلؤ والأصداف وعلب مذهب وسرير بعواميد علقت عليها ستائر عازلة للحشرات. نوافذ تفتح على رواقٍ توطّر جانباً من السماء الشديدة الزرقة وأعالي أشجار الليمون في الحديقة. وفي مكانٍ أبعد أولى الأرصفة الجزائرية التي يقطعها البحر. يعود إليه وجه ابنه أميديه، يوم إصابته، تحت خيمة السيد لوفردو. أبقى جثمان أميديه في البداية في سيدي فرج، كما حال الجنود الذين قضوا في الحرب أو المرض، حتى تمكنوا في النهاية من إعادته إلى وطنه، لأن العرب الذين يعاملون أعداءهم الأحياء باحتقار، سيتدبرون طريفة لتحقيهم وهم موتى.

«سيكون جنوناً أن ننسحب من الجزائر»، قال لنفسه.

## الفصل الثاني

حفل باليه الأنسة جيناتى، في ليلة ترصعت سماؤها بالنجوم،  
أمام البحر، على وقع الحان موسيقي يكاد يكون مجهولاً.

### 1

ينظر بويشو إلى البحر، من دون أن يراه. يخبئ يديه في جيبه ويشتم رائحة غليون باسبوا وقارورة عطر سطاوالي التي تعبق في يده كلما لمسها. قال لنفسه إن عليه أن يغيّر علبه غليونه من أجل أن يحفظ بشكل أفضل رائحة التبغ. أخرجته ثم شمّه خفيةً. تفوح منه رائحة الورد والقرنفل، إلا إذا كانت رائحة إبرة الراعي ممزوجة برائحة موقد الغليون الغامضة، ولكي ينأى بنفسه عن الأسئلة أطبق عليه للحظة بين أصابعه. فهو في الحقيقة غليون صغير، منحوت من خشب الخلنج الأسود، وله أنبوب رفيع ملتو مثل جناح غراب أسود تصفرّ فيه عصارة التبغ. بطرف سبّابته، استشعر بويشو داخل الموقد حفراً رديناً لرسم قلب قد يكون ذكرى من المرأة التي أهدته إياه، وقد حفره باسبوا هنا خافياً القلب القريب دائماً من النار، أو ربما من أجل أن تغطي القشرة التي يصنعها التبغ عند احتراقه الرسم تدريجياً مثل النسيان، إذ كان لدى بويشو إحساس دائم بأنه يقترب من كشف سرٍ ما. لم يحك له باسبوا قطّ عن امرأة أحبها من طرف واحد وربما بسبب ذلك كان يحمل هذا الحزن الرقيق واليائس تقريباً، فعلى الرغم من أنه لا يزال في مقتبل شبابه، فإنه لم يكن يصبو إلى شيء، وما كانت نجاحات الآخرين تستدعي عنده سوى السخرية اللاذعة. ولذلك ولكي لا يوقظ

لديه جروحاً قديمة، لم يحك له بويشو إلا القليل عن ماري ألدبرام وعن كل اللواتي التقاهن صدفة. على أية حال ما كان لباسوا أن يفهم. فبعمره ذلك، كان يؤمن بأبدية الوعود. فقد يكون العرب المشهورون بهوسهم بالجنس قد نشروا بذور عرقهم من بنات آوى في كل مكان. ربما كان ثمة دم بدوي يجري في عروق ماري ألدبرام، وربما اسم بويشو يعني في اللغة العبرية أو الآرامية، مثلما يقول الملازم أول دو روي «رجل المسيح» بو إشو. كل هذا على أية حال ينتهي في الفوضى والبؤس والموت. سترك باسبوا عظامه في أعالي الجزائر، ويعود بويشو مع غليون صديق، وعبوة عطر إبرة الراعي كغنيمة حرب، وممنصب فخري واحد هو أنه كان مساعداً شخصياً للسيد دو روي لأنه حدث اليوم بالنسبة إليه هو الخبر الذي حمله إليه الرقيب<sup>(1)</sup>.

وحتى في القصر كان الذباب يهجم منذ أول النهار. فهو يملك المدينة والجبل وعشرات الآلاف منه تحوم كالزوبعة ملتصقة بالفاكهة والخبز واللحوم، مستقرة على الوجوه والأيدي، ومالئة أسرابها الجدران التي تلفحها الشمس. وإن لم يحتاطوا جيداً، فقد يتلعون واحدة منها وهم يشربون المياه وربما وهم يتنفسون. لا يزعجها الدخان. في سطاوالي، رأوها تحتشد على رؤوس الجمال وأبدانها، في الجزائر، تضطهد البشر والحياد والكلاب. وعندما تستخدم حرارة النهار، تلسع فتسحق بغضب. في الشوارع ما عاد الأطفال يهتمون بصيدها إذ أمست تغطي جباههم وكأنها تمتص ماء عيونهم أيضاً. العتمة وحدها تخفيها ولكن أسراباً منها

(1) تقصد الكاتب على الأرجح هنا أن يقول أن الحدث بالنسبة إليه في هذا اليوم كان وفاة صديقه وليس إعلان انتصار الجيش.

تنقُصُ على الكواحل والأيدي والوجوه والرقاب مخلقة آثارها.  
لا يمكن الاحتماء منها سوى بالتغطية حتى الاختناق لأن واقيات  
الذباب لا تتوافر إلا لدى العائلات الثرية. وربما لأن بوتين لم يتحدث عن  
ذلك، فقد تحضّر البارون دينيه لكل شيء إلا الحشرات. وهل كان لهم  
أن يتوقعوا أن تكون هذه الوقاية واحدة من الإمتيازات المحصورة فقط  
بالضباط العامين. ذلك أن إخفاء الوجه واليدين داخل المعاطف لا يمنع  
البرغوت والبق. فخلال بضعة أيام من وصوله إلى القصر وظّف البارون  
دينيه عمال سخرة من اليهود والرقيق السود السابقين ليمسحوا بالخل  
وبكلورور الكلس البلاط والجدران وحتى الأسرة. لم يتوقف النقيب لو  
مير عن الغضب: «وكان لهؤلاء الناس دروعاً على أجسادهم، فماذا ستجد  
الحشرات الطفيلية لديهم. لا تستغربوا بأنها ستستمتع بالتهاมนา نحن»،  
كان يردّد. أما الحرارة، وعدا أنهم يعانون من الرطوبة ويجدون صعوبة  
في الاغتسال، فإنها تسبب تهيجاً في الجلد وتحت الإبط وعلى الظهر،  
تظهر على شكل طفح جلدي وحَب شباب. يطلق على هذا المرض اسم  
مخيف: الحزاز<sup>(1)</sup>. في إطار الإجراءات الاحترازية التي وضعت ضد مخاطر  
مياه الاستحمام والتي وصفت بالـ «الخطيرة في أوقات التعب والقيظ»،  
طلب بشكل حازم عدم غسل الوجوه والأقدام إلا بالمياه الدافئة الممزوجة  
ببضع قطرات من الخل، والتي يحاول الملازم أول دو روي عبثاً إقناع  
قيادة الأركان بتنظيمها على شكل حملات استحمام كالتّي طبّقت بعد  
الإنزال.

(1) Bourbouille أو الحزاز: الاسم الذي أطلقه البحارة على أمراض الحساسية الجلدية التي تسببها الرطوبة في المناطق الحارة.



لكن الهم الأساسي الذي يبقى هو النساء وخيبة الأمل هنا ما فتئت تتعاضم. فهؤلاء النساء ما زلن متواريات. تمكن مراقبتهن بالمنظير الصغيرة عندما يخرجن إلى الشرفات ليتنفسن عذوبة الليل في لحظة اختفاء الشمس خلف بوزريعة. يجري تخيلهن عاريات تحت قمصان طويلة من الحرير. فمن حدائق القصر والأسوار التي تشرف على المنازل يطلقون صرخاتهم فيهرين، ثم يعدن بعد وقتٍ طويل عندما يهبط الليل متخفيات خلف الزنجيات والنقاب. لذا النزاهات في المدينة التي تبدو ميتة لا تجلب لهم لا المفاجأة ولا المغامرة فالعرب يقفلون على نسائهم.

وتبقى المتعة الوحيدة للجنود في هذا الانتصار هو شغفهم بالطعام وما يعدونه بأنفسهم. متعهد الطعام في مطعم هنيكين، كان يقدم لباب الواد فطائره المحشوة والأومليت بالكماة. تجار يأتون من إسبانيا وإيطاليا وجزر المتوسط مع زوجاتهم وبناتهم لبيع الخضار والفاكهة والأسماك، أو افتتاح حانات حيث يمكن أن يعبّ الجنود ما شاؤوا من الشراب. فقد بات هناك «أوتيل دو مالط<sup>(1)</sup>» في شارع البحرية، وفي شارع السفارات فندق «أومبسادور<sup>(2)</sup>» حيث نزلت الآنسة جيناتي.

## 2

لو أرادت مسكناً أميرياً في واحد من الفيلات التي يسكن فيها قادة الشعب، لما رُدّ طلبها: برترين في منزل الداوي الصيفي ليس بعيداً عن البحر بعد باب الواد، لوفردو في منزل الآغا، ودوق دو كار في منزل مصطفى

(1) De Malte Hôtel أي فندق مالطا.

(2) Hôtel des Ambassadeurs أي فندق السفراء.

باشا وهو الأكثر رفاهيةً كما يبدو بعد باب عزون. فإن كانت طامحة إلى المزيد من الثروات أو متمسكة بحرية ما زالت تبدو هشة، أو مترددة في الدخول في مغامرة، أو تتظاهر بالحشمة خلف مظاهر خارجية متواضعة، فهي في كل الأحوال، أعلنت أنها لن تنتمي إلا إلى فناها وأن البارون دينيه ما عاد على أية حال هو حاميتها. فقد بدأ يعاني من الحمى وفقد روحه المرحة وبدأ يكون عصيباً.

تحررت منه في اليوم الثاني بعد «تي دوم»، بعد أن تخفت بثوب جوكي إنكليزي رثٍ لخادمة عجوز وتوجهت إلى المنطقة ما بين المرفأ وفندقها بحذاء من الساتان وستان شرقي ليلكي بدائر عريض وأكمام منتفخة، معتمرةً قبةً أيضاً من الساتان الزهر والريش الأبيض ووشاحاً من الكريب الصيني الأرجواني على الكتفين، يتبعها حشد من اليهود المشدوهين والبرابرة والأطفال.

ومنذ أن علم ضباط قيادة الأركان بأنها انتقلت إلى فندق أومبسادور، أصبحوا يتناولون عشاءهم معظم الأحيان فيه.

«أعتقد ان الأحياء السفلى من المدينة أجمل من قصر الداوي حيث لا يمكننا أن نأكل إلا البق. على أية حال، فهي تستقطب الناس بشكل أكبر. لم يعد هناك من سلاطين بما أن سُمّوه استدعاهم وإنما زوجات الكونتات، فماذا توقعون؟»، قال النقيب لو مير.

قامت الآنسة جيناتي بكل جهدها لتقدم نفسها على أنها الكونتيسة جوانيتا من الأكاديمية الملكية للموسيقى في باريس، ومن سكالادي ميلان ومسرح سان شارل دي نابولي، وحصلت على الموافقة بتقديم عرض باليه منفرد، روّجت له في ملصقاتٍ إعلانية.

إنها لخارقة، قال الملازم أول دو روائي.

- ماذا تتوقعون من النساء؟

- لا نوافقك الرأي، حضرة السيد. أنت تحوّل فتاة صيتها السيء على كل لسانٍ إلى امرأة ناجحة. أنا أحب أن أنتصر بانجازاتِي الشخصية. فالكونتيسة كانت لتتكلم بصوتٍ أقل ارتفاعاً وترمش بصورة هادئة ولا تحمل مظلة لازوردية.

وعندما دخل مرافقه الشخصي الجديد بحزام البندقية والحذاء العالي الذي عقد للتو خيوطه:

«بويشو، لو خيرت بالبقاء هنا، مع أراضٍ وعبيد ونساء، ما رأيك؟...»،  
سأله.

بات الملازم أول يرفع معه الكلفة. ثم أراض وعبيد ونساء في أفريقيا؟  
فبالرغم من وجودهم في الهواء الطلق، تحت النجوم، على بعد خطوات من البحر الوردي الساكن، فهم يستنشقون الرطوبة.

خلف أعمدة الشمع التي يحملها الجنود، احتشد على المقاعد ضباط من كل الرتب ومن كل الأقسام، وهناك من يصلون والسيجار في أفواههم يطنطنون بسيوفهم، يتقدمون ما بين الصفوف يتبادلون الكلام عن بعد ويستقرون بصعوبة ليختفوا خلف بعضهم بعض متأملين المنصة حيث تلمتع الأضواء: ثريتان من الكريستال علقتا بعارضة خشبية عريضة وشمعدانات برونزية عند أسفل السلم المؤدي إلى المسرح، أمام الكراسي المحجوزة للقادة والعقدا.

تداخلت بانسجام أصوات الكمان والناي.

«سيكون ذلك مدعاةً للسخرية»، قال الملازم أول دو روائي للنقيب

تالاييران.

كان تقريباً يصرخ، لأن موسيقى الطابور السادس القرية جداً تسبب صخباً كمدفعية، وعندما لا تضاف إليها آلات النفخ، تغطي رعيد طولها أحياناً على آلات النفخ.

«أنفضّل القداس؟»، سأل النقيب تالاييران.

كان عرضاً للموسيقى الشهيرة لـ لا دام بلانش التي لم تتوقف شهرتها عن التنامي منذ أن جعل لويس الثامن عشر من بويلديو<sup>(1)</sup> مؤلفه الموسيقي الخاص. لقد جلبت هذه الأوبرا لمؤلفها مجداً سريعاً. فموسيقاها كانت رقيقة وخفيفة مرحة.

«آه! يا لفرحة، آه! يا لفرحة، آه! يا لفرحة أن أكون جندياً»، دندن

النقيب تالاييران.

بدأت الفرقة تصدح بلحن، بدا عسكري الإيقاع والروح، ثم تحول فجأة إلى نغمٍ عذبٍ وملهيٍّ بالفرح ولكن مع تباطؤات مفاجئة وإيقاعات سريعة لاهثة كما لروح على شفير الانفجار. توقفت النقاشات.

بافتتان، تابع الملازم أول دو روي الإيقاع الذي يألفه للمؤلف النمساوي المتوفي منذ نحو أربعين عاماً والذي لم تعد موسيقاه رائجة. ولكنه جاء إلى باريس في العام 1778 واستضيف مع جان-كريتيان باخ في سان جرمان لدى دو روي. ولأنه آمن بنبوغه، ولأن بيولدوي أمّنه على نقل رسالته إلى أحفاده، لم يتوقف لويس دو روي مذ ذاك عن تنظيم حفلات عزف من ألقانه للبيانو والكمان والكلارينيت في غياب الأوبرا

(1) François-Adrien Boieldieu (1775 - 1843): مؤلف موسيقي، عرف مؤلفاته شهرة كبيرة. ويمكن اعتباره مؤلف موسيقى الأوبرا الأبرز في الربع الأول من القرن التاسع عشر.

والسمفونيات التي كانت تتطلب إمكانات كبيرة. كذلك، كان الملازم أول دو روي يستمع على امتداد فترة طفولته ومراهقته إلى موسيقى الحجرة للولفجانج أماديوس موزارت. وهذا ما أطلق روحه، وربما أسس له حساسية ميزته عن الآخرين.

«ماذا إذن؟ من أين نبشت فتاتنا الإسبانية هذا؟»، سأل النقيب تاليران، مقطباً حاجبيه.

وفجأة، مرت فوق حشد الرؤوس بالشعور المقتولة والثياب المطرزة، صلاة شكرٍ يحتاج إليها الجيش بعد تلقيم المدافع وضربها وموجات الغضب والدم والموكب الجنائزي الطويل للرفاق الذين تُركوا في رمال سيدي فرج وسطاوالي وفي التراب الأحمر للمقبرة الجديدة حيث حمل باسبوا إلى أعالي الجزائر. وكانت تلك المقطوعة التي سماها موزارت «موسيقى صغيرة ليل»<sup>(1)</sup>. سرح فيها الملازم أول دو روي متذكراً زميله أميديه دو بورمون وكل الراحلين في هذه الحملة، وليس قصر سان جرمان حيث عزفت المقطوعة لمرات عديدة، وترك الموسيقى تحمله بعدوبتها وبايقاعها الهادئ إليهم.

ملأت موسيقى موزارت، التي كانت تبدو تارة حماسية وتارة أخرى حنونة، يقاطعها تصفيق فرح، ويكسر انسيابها الهتاف والتهليل، ملأت روح الملازم أول دو روي بنشوة قلبت كيانه. لقد كتبها موزارت للآلات الوترية لكنهم لم يجدوا في الجيش كله، سوى موسيقيين اثنين يمكنهما العزف على الكمان أو يحملان آلاتهما معهما، كما انضم إليهما عازفا ناي، فداعت الألمان الأرواح برقة مخملية.

نظروا إلى بعضهم بعض باستغراب. جباة تهتز على ايقاع الجمل الموسيقية وغلايين تنفث دخانها بمتعة كبيرة. اعتقد الحاضرون أنهم يستمعون لمقطوعاتٍ لبيني وميهول وروسيني والتي عادةً ترفع معها الكؤوس والتي لا تستحث على التأمل وإنما على الحلم بنساء الحفلات الراقصة بالبرق على صدورهن، وأيديهن تستريح على الكتافيات المذهبة للبدلات العسكرية. لم يكن الحاضرون يعرفون إنهم يستمعون إلى موزارت، وإن علم بعضهم، فرمما تذكروا مؤلفاً موسيقياً يقال إن عزفه سيء أو إنه يدخل الكثير من النوتات في مقطوعاته أو إن موسيقاه كثيرة التقطيع، ولكن وكان نعمة إلهية مستهم وتسلّت إليهم شيئاً فشيئاً وخففتهم من أثقال أسلحتهم التي تمثل حياتهم، وحتى من دون أن يعوا ذلك، أضاءت وجوههم.

بدأ الألترو<sup>(1)</sup> الأول بتوليفات متسارعة ثم بطيئة وبعدها عمّ السكون. علت الرقاب لتراقب الكمان وقد رُفعت قوسها، وتركت الحاضرين في ترقب.

### 3

ظهرت الآنسة جيناتي في بداية المقطع الثاني، الرومانسي، فسرت بين الحشد دمدمة، وما عادوا يرون سوى المرأة الشابة المأخوذة بالدوار العذب للحن وقد أسرى جمالها رعشةً في الأجساد. لم يتعرف الملازم أول دو روي الكونيتسة النزقة المزينة بالريش بثوبها ذات الطيّات المزخرفة والألوان المثيرة. تغطي ركبتها تنورة منتفخة طويلة من المسلمين، ومن

(1) Allegro ويعني في اللغة الموسيقية المقطوعة بالإيقاع السريع.

القماش الشفاف الذي يصل حتى الكاحلين. أما في الجهة الأعلى فقد ارتدت صداراً مكشوفاً يبرز منه ثدياها وكأنهما يستعدان للقفز. مشت بخطوات بطيئة زلقة ثم نقرت الأرض للحظات برؤوس أصابعها واستدارت ببطء لتكشف عن وردة كبيرة من الحرير الأبيض، انحنت بقوة ثم نهضت بحركة أرابيسك<sup>(1)</sup> وكأنها ترسل قبلةً للسماء، ثم تعود بخطواتها الرشيقة الراقصة نفسها التي تستقطعها وثبات وخفقات ثم استدارات بالساقين. الفم متورد كالدم، العينان سوداوان وقد زاد الكحل من اتساعهما وارتفعتا باتجاه الصدغ، وكأنها تحوّلت لروح سديمية تبدلت وخطفها إلهٌ ما. زادها نور الثريات التماعاً، شعرها ملموم تحت تاجٍ من الماس مجسدةً صورة المرأة التي يحلم بها الرجال في الحرب عندما يسحقهم التعب أو يتوقفون عن التفكير في الموت ذات مساءً أمام نيران المعسكر. بذراعها المرفوعتين المنقوستين والأصابع الممدودة نحو النجوم والوجه المتوهج بالكبرياء والصدر المرتج، تحولت الراقصة إلى معبودةٍ لا تستدعي سوى سؤال واحد: «هل تحبيني، حبيبتني؟». وفجأة طرحت الآنسة جيناتي التي لم يحسب أحدٌ أن لها جسداً مثالياً إلى هذا الحد، الأسئلة التي على الرجال وحدهم الرد عليها عندما تنتهي حرب الجزائر؟

وجد الملازم أول دو روي نفسه يتساءل هل فعلاً أحب الآنسة سانت - ميهيال. «هل كان عليّ أن آتي إلى الجزائر لأعرف أنها لم تثرني يوماً»، قال في سرّه.

وعادت إليه ذكرى النقيب أميديه دو بورمون، محمولاً من قبل زملائه

(1) أرابيسك، هي وضعية في رقصة البالية مستوحاة من الشرق تقف فيها الراقصة على رجل واحدة وترفع الأخرى لملخلف وتمد ذراعاً إلى الأمام وأخرى إلى الوراء على امتداد الرجل المرفوعة للخلف.

في المدفعية في كيس تخزين. كم كانت الحرارة خانقةً ذاك الأصيل من الرابع والعشرين من يونيو، وذاك الخط من السحب النحاسية التي شكلتها الانفجارات التركية على هضاب سيدي خالف. كان الملازم أول دو رواي يتابع بنظره بقعة الدم التي راحت تكبر على قماش الحمالة المرتجلة ثم اقترب من رفيقه فرأى الخيوط الغريبة التي رسمها العرق على وجهه المتسخ بالغبار، ابتسم له وقال له مطرباً بما خطر له من كلمات:

- لقد حصلت على جرحٍ جميل....

- نعم، في المكان الصحيح... أجابه أمنيديه.

لم يعد بين الأحياء وما عاد قادراً على تذوق سكرة النصر، الذي ولمرة لم يثمر المواخير وإنما راقصة ترقص على أنغام موزارت، بينما مرآة البحر المظلمة الآن تعكس نيران المشاعل والثريات.

يزداد صوت الناي ارتعاشاً وتبدو الآنسة جيناتي وكأنها تتحرش بالضباط: تنزلق باتجاههم، تستفزهم بحركات متتالية تبدو فيها يداها أشبه بسعف نخيل، تتبعها بقفزاتٍ بجبهتها العالية وبكل كبرياء محياها. «إذن، هل شئت أن تقول بذلك هذا هو الرقص، هذه هي المرأة، أقوى من مدافعكم وقذائفكم. هذا هو النصر الأبدي للعالم...» ثم تعود النغمة الأولى متباطئة. تقترب الآنسة جيناتي مجدداً على رؤوس أصابعها، ذراعاها مرفوعتان، وتبتسم. وكأنها تقدم اعتراضاً. وبعد التوليفات المطولة للأوركسترا، توقفت الراقصة لتحنني احتراماً. هل كان يفترض هنا الانتظار حتى نهاية الرقص لإطلاق صيحات الحماسة؟ ما هي الأعراف في حالة كهذه؟ انفجر التصفيق وراح الضباط يتلفتون لبعضهم بعض بنظرات افتتان. لقد صعقتهم الآنسة جيناتي. كمانان ومزماران



يعزفان لمؤلف موسيقي لا يعرفونه وراقصة تخبرهم أن هناك أشياء أخطر من الحرب يمكنها أن تمزق أرواحهم وعلى نحو أعنف.

نظر الملازم أول دو روي إلى النقيب تاليران الذي كان يتسم كأنه يدافع عن نفسه وقال له: «وأنا، لماذا عليّ أن أنكر بأنها أسرتني؟ هذه الإسبانية التي لم نكن قد أعجبنا حتى اللحظة إلا بفمها وصدرها أو ما تركتنا نتخيله، ليست أبداً ما اعتقدناه عنها. لم يمض أكثر من ثلاث سنوات على ما أثبتته تاغليون<sup>(1)</sup> بأن بإمكان الأرابيسك أن يدخل على الأوبرا الإحساس باللامتناهي أكثر من القفزات المتفخرة، والطيران وانزلاق الطير في السماء، ولقد نجحت في ذلك. وبالرغم من أنه لم يمر وقتٌ طويلٌ على أسلوب الرقص على رؤوس الأصابع، إلا أنها أظهرت سيطرة كاملة عليها. إنها موهوبة حقاً».

انتظرت الآنسة جيناتي طويلاً، برأسها المنخفض ثم رفعته على وقع التصفيق وأرسلت إشارة صغيرة إلى الفرقة الموسيقية. استعادت الصالة صمتها. لتبدأ بعدها موسيقى المينيويت نزقةً خفيفةً ولتتفجر القاعة بالتصفيق عند الإعادة الثانية على وقع موسيقى وغناء الباليه «لا-لا-لا-...» فلم يكن من العادة الغناء مع موسيقى الباليه ولكن لا يمكن مقاومة شيء هذا المساء. وظن المشاهدون أنهم بأصواتهم وعلى أكفهم يحملون الراقصة والليل والنجوم وأفريقيا التي تبدو نائمة والأحياء والموتى.

(1) Marie Taglioni تعتبر راقصة الباليه الرومانسية الأولى الكبيرة، ولدت في 1804 في ستوكهولم وتوفيت في مارسيليا 1884. أرست اسلوباً جديداً في الرقص يقوم على بساطة الحركة ورقتها، وعلى الرقص بخفة على رؤوس الأصابع. وقد كسب على قبرها «أيتها الأرض لا تنقلي عليها كثيراً، فهي لم تنقل عليك إلا قليلاً».

لم تعد الآنسة جيناتي وحدها، كما لو كانت درع حماية فوق الرؤوس، مخفياً رشيماً محتشماً، انطلقت كشهب نارٍ تدور وتخبط الأرض بقدمها، تقف على رؤوس أصابعها، تنهجم. وحولها كأنما انفتح عرض باليه كامل وأخذ يتسع بين النجوم «لا-لا-لا-لا-لا...» ليروا معها راقصاتٍ مفترضات يتقدمن، يلقين التحية ويدرن ويرتفعن إلى السماء، ثم يتزوبعن في رقصة فالس قبل أن يعودوا للالزمة الحماسية التي يدندنونها «لا-لا-لا-لا-لا...». لم تعد تلك رقصة المينيوت الرقيقة على الموسيقى التي يتذكر الملازم أول دو روي كيف كان يرقص عليها نبلاءً بشابهم الحريية مع راقصات يرتدين تنانير الكرينولين<sup>(1)</sup>، وأتما رقصة فاروندول<sup>(2)</sup> حربية، حفلة مدافعٍ معربةٍ تلي معركة سطاوالي لها رائحة البارود مضاءةً بغيمةٍ من الغبار الأحمر.

وتقريباً من دون مقطع انتقالي، وبعد توقفٍ وجيزٍ عادت الموسيقى. فبمواجهة كل هذه القوة الذكورية كانت لها رشاقة الجياد. دارت الآنسة جيناتي فوق شاراتهم العسكرية، توقفت وضربت بساقيها، اندفعت ودارت من جديد وصولاً حتى المقطع الأخير الوجيز جداً. هنا بدأ انتصارها. نعباء يقفزون إلى المسرح ويأخذونها بين سواعدهم لتبدو زنبقة فوق الأكتاف على وقع التصفيق والتهليل.

بدأوا يهتفون بيس، بيس<sup>(3)</sup>، ومن فوق الرؤوس أخذت هي ترسل القبلات. أنزلت بهدوء لتختفي بعدها خلف أشجار المضاض<sup>(4)</sup> والنخيل

(1) الكرينولين: تنورة منتفخة ذات أسلاك.

(2) الفاروندول: موكب راقص.

(3) Bis: هتاف يعبر عن الإعجاب بالمؤدي أو المغني. بمعنى أعد أو مرة ثانية.

(4) المضاض: جنس من الشجر من الفصيلة القاتية يابانية الأصل كثيف الورق، وقد =

المزروعة في الأوص، حيث المقصورة والكواليس. استأنفت الأوركسترا  
ثيمة المقطع الأول. نهض الملازم أول دو روي.

- أين تذهب؟ سأله النقيب تالايران.

- سأذهب.

- بعد هذا؟ أنت مجنون! ابق، سندعوها إلى العشاء. وقل لي لمن هذه

الموسيقى؟ ميهول، شيروبيني؟ كريترير؟

- إنه المؤلف الموسيقي الوحيد الذي لا أعرفه. أهو يافع؟

يافع جداً وأبدئي، أعذربي، قال له الملازم أول دو روي ومشى حتى

آخر صفوف المقاعد، وضع بعناية قبعته العسكرية على رأسه كما يضع  
أسقف تيجانه وابتعد يتبعه بويشو.

صوت الآلات الموسيقية ما عاد مسموعاً، فقط صدى التصفيق.

استدار النقيب، لقد عاودت الآنسة جيناتى الظهور. ومن دون الموسيقى،

بدا ظلها الأبيض الخفيف يتموج فوق يد الهواء الذي لا يمكن الشعور به

استجابة لرغبة الليل. ولكن الأغنية ما زالت تتردد في روح النقيب. «أهي

وردة أم فرس أصيل؟» تساءل ثم متفاجئاً بردة فعله التي قام بها للتو ساءل

نفسه: «هل سأصبح رجلاً غيوراً؟ وإن حصل ذلك فممن وعلام؟».

لا يمكن الغيرة على الكونتيسة جيناتى ولكن يمكن التوجع لأن المرأة

التي رقصت على موسيقى الليل الصغيرة لم تغرم بنا. لم يفعل الملازم أول

شيئاً لكي تغرم به أساساً. فهو في الحقيقة لم يظهر سوى تلك الجراة في

النقاشات التي جرت في حفلات الغداء والتي يتمنى أن يجذب بها النساء.

فهو الذي يملك شعوراً بالمهانة بسبب قصر قامته، كان عليه دائماً أن يذكر

نفسه بأن نابوليون الذي لم يكن أطول منه حقق نجاحات غرامية كبيرة. «نعم ولكنه كان إمبرطوراً وكانت كل النساء تحلم به»، حدث نفسه. فهو لم يستغل البتة نسبه. «لو كان لاسم عائلتي أهمية كنت لألاحظ ذلك في العيون». لقد كان لديه الآنسة دي سان- ميهيال لتؤكد له أن بالإمكان الغرام به، بيد أنها ليست جميلةً كفايةً ووحده ذلك الحب الذيبادلها إياه كان من شأنه جعلها امرأة معشوقة. في أحد الأيام شبه عينيها بعيني أرملة وهذا ما وضع نهاية لمشاعره التي لم تبدأ بعد والتي كان يأمل أن توقظها داخله. يمكنها أن تكون زوجة رائعة لكنه غير متعجلٍ أبداً للزواج وأكثر بكثيرٍ للموت.

«لنعد»، قال صائحاً.

فمن قصر الجنيينة حيث عاش قديماً الدايات قبل أن ينزروا في أعالي المدينة يمكن رؤية القصبه بزقاق الدرج الوحيد الذي يبدو إلى حد ما عامودياً ويمتد متلوياً باتجاه الغرب. كل مائة متر حاجز لجند المشاة يحرسون المنعطفات المؤدية إلى دروب معتمة غارقة في الصمت. انزلقا على العشب وتردد صدى خطاهما على البلاط، وفوقهما كانت النجوم تلتمع في الهواء الثقيل.

ارتقى الملازم أول الطريق بهدوء لاهتاً بعض الشيء، وقبل أن يعرف عن نفسه لحرس القلعة، قال لبويشو:

«لا أعرف بم تفكر، وقد يبدو أحياناً غير مريح، ولكنني أحب ذلك».

## الفصل الثالث

يتبلغ السيد دو بورمون بأنه قُلت رتبة مارشال، من دون أن يث  
ذلك الفرح في نفسه بسبب رسالة من مرسليليا حول أخبار ثورة  
يوليو<sup>(1)</sup>.

### 1

كانوا يعتقدون أن الحرب انتهت.

وصل من تولون في الثامن من يوليو، خبر تعيين السيد دو بورمون  
مارشالاً والبارون دو برية عضو مجلس اللوردات فقط، وذلك إلى بريد  
السيد دو برية، الذي كان ينتظر رتبة الأدميرال الكبرى وإضافة زهور زنبق  
ومرساتين إلى رايته كقائد، مما سبب له خيبة أمل أقرب إلى الاستياء. أما  
بالنسبة إلى السيد دو بورمون الذي كان لا يزال في حداد فلم يبد سوى  
رضا محدود لا بل ما يشبه الامتعاض.

كان ليرغب السيد دو بورمون أن يؤكد اعترافه بالجميل لجيشه عند  
رحيله، لأن الجميع يتوقعون الرحيل، طالما كان يقال إنه سيقى في الجزائر  
فقط شعبة واحدة من أربعة ألوية مع السيد برترين في حين سيعود الجزء  
الأكبر إلى فرنسا، لكن كل اقتراحاته للترقية ومنح الأوسمة رفضت من  
قبل الدوفين<sup>(2)</sup>، واقتراحه باستقطاع ثلاثة ملايين في الجزائر وتوزيعها

(1) في عام 1830 في الحادي عشر من أغسطس، حدثت ثورة في فرنسا هي ثورة شهر يوليو التي  
خلعت الملك شارل العاشر وجاءت بأبن عمه (دوق أورليان) باسم (لويس فيليب) الملك  
الأول ونصب ملكاً على فرنسا. وكان من المعروف أن الكونت دو بورمون من المقربين  
من الملك المخلوع، وبمجرد قيام الثورة استدعي دو بورمون ليحل مكانه كلوزيل.

(2) الدوفين هو ولي العهد في فرنسا.

كإكراميات على الجيش أثارَت موجات استهجانٍ في باريس.  
 فقد تلاشى كل دخان الانتصار، وباتوا يعيشون في الجنائز.  
 لم تعد السعادة في الجزائر، وطلب الكثير من الضباط سحبهم. وآخرون  
 مثل الزمر الصغيرة لبانكور وتالايران وبرتيزي وشاليه الذين كانوا يخافون  
 من ثورة في فرنسا عادوا إلى تولون. حَلَّت قيادة الأركان وتدفق الجرحى  
 إلى الخدمة الصحية، وبات ضرورياً فتح المزيد من المشافي في الروضات  
 خارج المدينة، مثلما فعل الدوق دو كار الذي حوّل المنزل الصيفي لمصطفى  
 باشا إلى مستشفى. فقد رافق الإسهال حالات إجهاد كبيرة وحمى خبيثة  
 حوَّلت الرجال في أيام إلى هياكل عظمية وخاصة أنها كانت معدية.  
 وطوال ما يزيد على عشرة أيام، لم يصلهم أي بريدٍ وأي سفينةٍ حربيةٍ  
 من تولون، ثم في الحادي عشر من أغسطس، حملت سفينة تجارية الخبر  
 الذي كان يخشاه الجميع: لقد اندلعت ثورة في فرنسا. رفضت باريس في  
 أيام السابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين الرضوخ لأي  
 من الأوامر الملكية.  
 فحملة الجزائر لم تفد الحكم بشيء والأسوأ من ذلك، أن الانتصارات  
 التي باتت محل اتهام ما عادت أكيدة وتمّ التكرّر لها. وزيادةً في الطين بلةً  
 ما عاد للجيش حتى راية.

## 2

في شقته في القصر، أعاد السيد دو بورمون قراءة الرسالة من مرسيليا  
 التي حملها يعقوب بكري لتتو، وفيها عرض للتطورات. «هناك الكثير  
 من الفوضى. أكثر من عشرين ألف رجلٍ في العراء في باريس، وقد أعلن

الدوق أورليان وصياً على العرش. غادر الملك سان كلود مع عائلته. وقد رفع هنا العلم المثلث الألوان<sup>(1)</sup>. ويقال إنه رفع أيضاً في باريس...».

كان السيد دو بورمون يعلم أن السفينة التي حملت الرسالة هي نفسها ترفع العلم المثلث الألوان، على حبل الصارية ولكنها أنزلته مع دخولها الجزائر من أجل تفادي أي إشكال.

لو كان أميراً آخر لحل الأمر ببساطة. فمن خلال الرسائل السابقة تبين أن ضربات مدفعية «إليزافاليد»<sup>(2)</sup> التي حيت فتح الجزائر جلبت فرحاً أكبر من الدخول إلى فيينا وبرلين أيام الإمبراطورية. وأنعش حينها النصر باريس.

مرر السيد دو بورمون يده على كدسة الصحف الموضوعة على الطاولة التي كان قد تصفحها. فهذه الصحف هي التي تضمنت الانتقادات اللاذعة للحملة وكشفت أسرارها وقدمت المعلومات للعدو: فالجيش تسبب بغضب قوافل الجمال، قاد الجزائريين ضباطاً أوروبيين مارقون، تم سجن جاسوس فرنسي وآخر تركي بلباس امرأة، وأيضاً روائي شاب كان يرتدي بدلة الطابور السابع والثلاثين؛ نام الجنود في مساكن الحریم، وروج أيضاً أن المخصيين من الجيش سوف يرسلون إلى فرنسا. بتهكم ميزت شدته تلك المرحلة، اقترحت لو فيغارو أن يتم استخدامهم في الرقابة وأظهر كاريكاتور في ديبا السيد دو بورمون متوجاً براقصة بتنورة

(1) العلم المثلث الألوان هو العلم الفرنسي الذي أعتد في 1794 ولكن مع عودة الملكية من العام 1814 وحتى العام 1830 اعتمد العلم الأبيض بالزنبق، ليستعاد مع ثورة 1830 العلم المثلث.

(2) Les Invalides مجمع لمؤسسات بحرية في الدائرة السابعة في باريس، بني في العام 1670، ويضم مستشفى وماوى للجنود. وتحول اليوم لسلسلة متاحف ذات صلة بالتاريخ الحربي لفرنسا.

رقصٍ متنكرة بزي فيكتور<sup>(1)</sup>. في المقابل طالبت لو سيمافور في مرسيليا بأن تصبح مدن الجزائر ووهران والقسنطينة مقاطعات فرنسية، وآخرون سخروا من حماسة كهذه وتندروا بها.

بسط السيد دو بورمون يديه معبراً عن خضوعه للقدر: هنا تتجسد تناقضات العبقرية الفرنسية. لو نجحت الثورة الجديدة فذلك لأن الملك لم يجرؤ لا على فرض الرجال الذين أنقذوه رغماً عنه ولا على سحق الذين وقعوا تحت تأثير المعارضة حتى في عز سلطة الحكومة وأجهزتها الكبيرة. فالجيش يتهم حالياً بنهب القصبية: أربعة زوارقٍ حربية كبيرة وبارجة محملة بالكنوز وصلت إلى تولون. مسكوكات ذهبية وعملات مختلفة وقروش من إسبانيا تعد أكثر من ثلاثة وأربعين قطعةً وتزن نحو الخمسمائة ألف كيلو، أكثر من صندوقين من الفضيّات، وصندوق من البنادل لا تقدر قيمتها بثمن. كل ذلك حسب تقدير السيد فيرينو، أمين خزانة الجيش التي كانت مصداقته حتى من وجهة نظر البارون دوبريه، فوق كل شك. يجب أيضاً إضافة مليونين آخرين كأموال جارية في كل الجزائر بالإضافة إلى طاقم كبير من معدات المدفعية، بعض الأبنية الجزائرية وخمسة وثلاثين كيلو من البارود الممتاز، من دون احتساب الصوف والقمح والسكر والنحاس والرصاص، الذي حمل في سفن ممتلئة متجهة إلى فرنسا. وفي تولون، يجري تفتيش أمتعة الضباط الآتين من شمال أفريقيا. من يعلم إن لم يتم أيضاً اتهام القائد الأعلى بتهرب الخزائن؟

مع ذلك يجب أن يهبوا النجدة الملكية. نعم، مع أميرال آخر...

(1) Victoire أو باللاتينية Victoria وهي رمز للنصر، تقدم غالباً على شكل إلهة مجنحة، مرتدية فستاناً طويلاً، حاسرة الرأس تحمل تاجاً مصنوعاً من الغار، وهي مرادف لـ «نيكي». Niké في الميثولوجيا الإغريقية.



نهض السيد دو بورمون ببطء، اجتاز حجرته ليجد الباب الذي يفصله عن رئيس الأركان التابع له مفتوحاً، ثم عاد ليتكى على إحدى النوافذ. دخل النقيب العام ديسريز، أقفل الباب واقترب منه. بوجهه الطويل الذي ازداد شحوباً ولكن ابتسامة ما ارتسمت خفتت من استطالته. فهو لا يظهر للقائد الأعلى سوى إخلاصه واستعداده لخدمته بفرح أقرب إلى الدهشة. فبنظرته المرتابة وبسبب تخيله الجميع كمراهقين بنفوس ضعيفة، لا يتلفظ سوى بعبارات غامضة ويختار لذلك أماكن عامة، نياقته توحى بيقظة عالية مبالغ بها. فليس من الغريب أن يصل إلى رتبة رفيعة كهذه: رجلٌ مستعد للمنافسة، اجتاز جميع امتحانات المدرسة الحربية بنجاح ويملك صفات الخادم الجيد والشهامة والدقة وذاكرته لا تهمل واجباً. وهو معروف، خاصةً، بعدم قدرته على الكراهية.

«لديّ سؤال واحد فحسب»، قال السيد دو بورمون.

انتصب الجنرال ديسريز. كانت الشمس تضرب مباشرةً جبهته الرطبة ولباسه المزخرف مع الهالات الآخذة في الاتساع تحت إبطه.

«رسالة بكري هذه، هل يعلم الجيش بمضمونها؟»، رفع رئيس الأركان

يديه بطريقة توحى بالخضوع:

– الجميع، سيدي المارشال. وحتى ما لا يوجد فيها حقاً. أنا أتساءل من الذي اخترع هذه التخيلات. يقولون حتى إن الملك بات في إنكلترا.

– أشكرك، قال له السيد دو بورمون.

## 3

العاشرة مساءً. مرتدياً مبذله استعداداً للنوم، عندما نقل إليه رئيس الأركان برقية حملتها الباخرة التي وصلت بعد الظهر والتي يقودها النقيب دوبيتي - توار، مع إشارة: «شخصي. سري. لا يفتح إلا من قبل القائد الأعلى نفسه». كانت برقية بسيطة بدلاً من تلك الرسائل الضخمة المعتادة.

يعود تاريخ الرسالة إلى الثاني من أغسطس، موقعةً من وزير الحرب الجديد الجنرال جيرار - «بالطبع، قال السيد دو بورمون، سيكون هو دائماً العزيز جيرار...» - والتي تعلن عن تغيير الحكم وتدعو المارشال إلى إعلام الجيش بالتطورات وتدعو إلى اعتماد العلم المثلث الألوان.

شد السيد دو بورمون حزام مبذله، وضع الرسالة على الطاولة، بالقرب من الشمعدان، التقط علبة تبغ وأشعل بنار الشمعة سيجاراً، وراح يتمشى في حجرته. إذن، لن ينتهي ذلك أبداً؟ ثوار ملكيون مع نابوليون، من نابوليون إلى لويس الثامن، والآن من شارل العاشر إلى دوق أورليون، جرى تغيير العلم والشارة أربع مرات. تقلب بين الأحداث التاريخية والمآسي، شهد أحداثاً سياسية بانتظار أن يحكم بنفسه. لم لا؟ في العام 1815، خضع مرة أخرى لحكم الإمبراطور نابوليون من دون أن يقاوم. حتى من دون إبداء أي اعتراض<sup>(1)</sup>. ضد ماذا؟ حتى إنه عندما أبلغه

(1) الكلام هنا يدور عن كيف انتقل دو بورمون من وصاية الملكية التي كانت تحكم، إلى وصاية الامبراطورية أي وصاية نابوليون الأول التي دامت مائة يوم فقط العام 1815 وانتهت بهزيمته في معركة واترلو، والذي استشعر بها دو بورمون وهرب من المعركة ليلتحق مرة أخرى بالملكية التي عادت للحكم لحظة سقوط نابوليون، ثم الآن يقصى من منصبه بسبب سقوط شارل العاشر وبجيء دوق أورليان، وهذه المرة لم يتمكن =

المارشال ناي. بمحتوى البلاغ، قال له السيد دو بورمون: «يمكنك أن تقرأ ذلك على الجنود». لا بل هو من جمعهم بنفسه، ليرى إن كان سييدي أحدٌ منهم أي مقاومة وشارك في الوليمة الاحتفالية بعد ذلك. هل هتف حينها: «يحييا الإمبراطور» أم «يحييا الملك» كما طلب منه حسب بلاغ المارشال ناي؟

أخفض السيد دو بورمون عينيه عند تذكره هذه الحادثة التي وقعت منذ نحو خمسة عشر عاماً، لم يطلق حينها أي هتاف. عندما يكون لدينا مسيرة مهنية علينا أن نخوضها، يكفي ألا نقف لجهة الشجرة التي ستقع. لكن يجب أن نعطي المغامرات حقها عندما تفرض علينا. وعلى النقد والمنطق والاعتدال والتحليل أن يحكموا تصرفاتنا وحب الذات أيضاً. عندما عاد نابوليون منتصراً وأصبح بإمكان المارشال المتهور ناي أن يغامر بكلام وقح، عاد السيد دو بورمون إلى باريس متوسلاً منصب مدير شعبة. تردد الإمبراطور كثيراً ثم منحه إياه وبالتالي، هكذا إذن وجد السيد دو بورمون نفسه في واترلو، أيضاً تحت إمرة الجنرال جيرار الذي يحكمه اليوم كوزير حرب. ولكن هذه المرة، كما لاحظ السيد دو بورمون لم يخفف الجنرال جيرار لهجته الرسمية الصارمة بأي إشارة شخصية.

بين ليل الرابع عشر والخامس عشر من يونيو 1815، حل السيد دو بورمون أزمته: المستقبل ليس لصالح نابوليون فالإمبراطورية الواقعة تحت وطأة الديون لن تتمكن من الصمود: بعد الخامسة فجراً بقليل، ركب حصانه في موكب ضمّ كل قيادة أركانه. بعد اجتياز المواقع الأمامية سلّم

= من تبديل ولائه، إذ لم يكن مخيراً، لأن الملك الجديد فرض إقصاءه، بالرغم من تحقيقه النصر في الجزائر، وبعد أن كان قد تبلغ قبل أيام فقط تقليده رتبة مارشال.

لعميد من موكب حراسته رسالة وجهها إلى الجنرال جيران، ثم شبك ضباطه شارة الملكية البيضاء على ستراتهم وركبوا جيادهم باتجاه الحدود. قرئت هذه الرسالة على أنها هجوم ضد المارشال ناي حينها. وجه اللوم خاصةً للسيد دو بورمون لتأخره حتى عشية المعركة حتى يخلي. هل كان بإمكانه حل الأمر قبل ذلك من دون المخاطرة بالموت أو بالسجن؟ وماذا يغيّر في الجيش، أن يتحول مجرد مسؤول شعبة إلى المعارضة، من دون جنوده، معلناً قراره لضباطه ومرؤوسيه؟

اقترب من النافذة منصتاً لسكون الليل المرصع بالنجوم. وعلى سطح الماء رأى وهج أنوار بعض السفن يتألاً. «خمسة عشر يوماً، حدثت نفسه قائلاً، كان يلزمنا فقط خمسة عشر يوماً حتى يسقط هذا الحيوان دو بريه في البلما». وجه أمراً رسمياً يطلب فيه نزول أميرال البحرية على الأرض بسرعة للتشاور معه، ثم توجه إلى حجرة رئيس الأركان الذي كان يراجع الأحداث المهمة.

من شق باب حجرة رئيس الأركان، والتي كانت في السابق الغرفة القديمة لأكبر بنات الداوي، رأى الكثير من السجاد والوسادات المخملية ذات الخطوط المذهبة وعلب اللؤلؤ وعند قدم السرير رأى بابو جاً. سبق للسيد دو بورمون أن جرب هذا النوع من الأحذية، لكنه يفضل بالتأكيد خفيه الجلديين الرقيقين. رمق السيد دينسبريز بنظرة ساخرة بعض الشيء. «إنه يتصرف كرئيس»، قال لنفسه، «أنا شبه متأكد من أنه بدلاً من الحورية ينام مع صدرية من الحرير لكي تكتمل تخيلاته». ذهب إليه وقال له: «عليك أن تنزع يافتك عند المساء، أو أن ترتدي ثياباً أكثر بساطة. وليس عليّ أنا أن أتبهك».

## 4

عندما أفاق، وجد السيد دو بورمون نفسه في مزاج رائع. وفجأة خطر له أن يسأل النقيب الشاب دو رواي الذي يجله. «هو أيضاً ضابط ليس ذي أهمية، ولكنه من عائلة خرّجت الكثير من المارشالات وتتمتع بمستوى عالٍ من الثقافة»، حدّث نفسه.

كان السيد دو بورمون قد أنهى طعامه عندما وصل الملازم أول دو رواي وقد حلق ذقنه للتو وتفوح منه رائحة كولونيا ناعمة. ضرب الأرض بحذائه وألقى التحية، بشكل صارم جداً، كان وجهه ينضح بالبراءة. ومن دون أن يصفحه دعاه السيد دو بورمون إلى الجلوس وأجبره على شرب كأسٍ من الشاي وهي العادة التي درج عليها منذ إقامته في إنجلترا. في البداية سأله إن كانت لديه أخبار جديدة.

- لم أسمع شيئاً، حضرة السيد المارشال، وهي الطريقة الأنسب حتى لا نصاب بالإحباط، أجابه النقيب.

- هل تزوجت أخواتك؟

- كلهن تقريباً. ومن أفضل الرجال.

- وأنت؟

- أمامي متسع من الوقت.

وبالرغم من تمتع الملازم أول دو رواي بمزاج جيد إلا أنه كان متيقظاً جداً. «لم يستدعني المارشال لي طرح عليّ هذه الأسئلة التافهة. أم لعلّ الضجة السخيفة حول زواجي من الآنسة جيناتي وصلت إلى هنا؟ في هذه الحالة...»، كان يحدّث نفسه.

- هل تطلّع على ما يجري؟

- ربما بحكم موقعي كضابط.
- موقعك، هذا بالضبط ما يهمني. أن تكون في رتبة ملازم أول فهذا لا يعني أنه ينقصك الحس الجيد. كيف ستتصرف لو بدّل الجيش علمه؟
- أعاد الملازم أول دو روي كأس الشاي الذي كاد يلامس شفتيه.
- لو بدّل الجيش العلم، فلن يكون ذلك بالطبع. عمل إرادته حضرة السيد المارشال. لذلك أنا أخضع للبند الأول من قانون الواجبات العامة: «يشكل النظام اللبنة الأساسية في الجيوش، والمملك يريد أن...»
- وإن لم يعد هناك من ملك؟
- من دون تردد قال الملازم أول:
- على أية حال الحدث ما كان ليفاجئنا، كان لدينا بالأمس متسع من الوقت لتتناقش في ما بيننا كضباط. أشعر بأنه من الطبيعي أن ألتزم. زملائي لا يوافقونني في كل شيء. وحتى إنه بالنسبة لبعضهم فإن قرارك بتركنا سيحدث حالة وعي.
- والجنود؟
- لقد سألت مرافقي، وهو رجل شجاع من آرياج. قال إنه سيعود بكل سرور إلى فرنسا، ولكن أخشى ألا يكون ذلك من أجل زوجته وإنما...
- لن يقتل نفسه من أجل الملك؟
- تظاهر الملازم أول بالتردد:
- لا أعتقد، قال.
- وأنت؟ سأله السيد دو بورمون بابتسامة عريضة.

- أنا أتبعك في كل شيء، سيدي.

احتراماً لمشاعر السيد دو بورمون نهض الملازم أول وقدم التحية ثم صافح يد المارشال التي امتدت إليه هو المعروف بأنه لا يبالي بتقديم الاحترام. فشهرة عائلة دو رواي تتخطى بكثير شهرة عائلته.

## 5

كان الرقيب يراقب وجوه الجنرالات الخارجين من الاجتماع ولاحظ أنهم لم يتصافحوا إلا قليلاً، آخرون حاولوا التجاهل. ركب المارشال الحربي<sup>(1)</sup> كلوي حصانه وانتظر السيد برتزين الذي امتطى هو الآخر حصانه كي يلتفت نحوه. وبسبب شديدة الرزانة، رفع يديه إلى قبعته العسكرية في حين رد السيد برتزين عليه بإهمال، ولم ينطلق إلا بعدما ابتعد السيد برتزين. ولوقت طويل بقيت حوافر الجياد تطرطق على البلاط.

«إذن، أيها الرقيب، هل ستخرج شارتك، أظهرها على الأقل، لو كانت لدي واحدة...»، قال له بويشو.

فمنذ أن انتشرت أخبار التغييرات الجديدة، لم يتوقفوا عن إغاضة الرقيب. يقولون له إنه سيتم إعلان الإمبراطورية وإن نابوليون يتململ في قبره.

- لماذا؟ هل كنت لتعلقها أنت؟

- لا أملك واحدة منها، ويمكنني قول ذلك من دون إغضابك: لا يهمني أن أملكها، أجابه بويشو.

- لا تقترب إلى هذا الحد، قال له الرقيب. أنت تغمغم ثم....

(1) Marechal de camp رتبة عسكرية أسس لها قسم في الجيش الفرنسي في القرن الخامس عشر، ووظيفتها الإشراف على مساكن الجيش وتوزيعهم في ميدان القتال.

صَفَّر الرقيب مشمئزاً:  
«لقد أطلقت رائحة».

أحب بويشو الطعام الجزائري. والسيد دو بورمون، وبالإضافة إلى طبائخه، فقد احتفظ ببعض طبائخي القصر ليقدموا له الأطباق والحلوى مع كل وجبة طعام. وقسم الضباط في معسكرين، الأول للذين بقوا أوفياء لعاصمتهم، والثاني لمن أعلنوا ميلهم للمطبخ الجزائري والذين كانوا يطلبون الكسكس من فندق «أومباسادور». فمن لهم الأفضلية كانوا يتمتعون برفاهية تناول الطعام في مطبخ القيادة العامة وشيئاً فشيئاً بدأ بويشو بالتلذذ بالبهارات والصلصات الحمر وبالتوابل التي تمنح اللحوم والأسماك نكهة جديدة. أما بالنسبة لخبز الميرة، فكان يفضل كعك الشعير أو السميد.

إن جئت إلى مونتسيغور، السيد الرقيب، أوكد لك ستشتم رائحة الثوم. ومن أجل أن تعانق النساء عليك أن تشرب الكثير من النبيذ. هيا، رايتك!».

اسكت، قال الرقيب. الراية لا تعني شيئاً. الملازم أول دو رواي مثلاً، أتفهم...

«باسبوا، ستكون مسلية جداً هذه الحكاية» قال بويشو في سره. أن يتقاتل الضباط من أجل راية.. من أجل أي راية قتل باسبوا من قبل جندي من معسكره وأكلته بنات آوى؟ فالملازم أول دو رواي هو من أنقذ باسبوا من القبر الجماعي، ويرتاح الآن تحت صليب بسيط إلى جانب ضباط استقروا تحت الرخام في مربع القناصلة، أسفل الهضبة حيث تمتد المقبرة العربية من جهة باب الواد.



«يوماً ما سأصبح ثرياً، وسأنقله إلى أرضه»، حدث بويشو نفسه. ثم سمع جواب باسبوا المفترض: «اترك عظامي في سلام، أيها المخبول». فقد علموا في النهاية بأنه ولد في هيلزاس في لوزير في منخفضات ميحيان. هذا الاسم الغريب الذي يوحى بالهرطقة خفف من حماسة بويشو لنقل رفاتة. وكما يذكر، فإن باسبوا كان يكره كثيراً الذباب لذا وضع على قبره أصيصاً من الحبق خافياً إياه عن أشعة الشمس التي تحرق كل شيء، والتي تحمي رائحتها القوية من اللسعات. وهو ذاهب، مَدَّ يديه ولمس الحبق ثم اشتم أصابعه مقلداً العرب. والآن بات الملازم أول دو رواي يقلده بدوره إذ أحضر بويشو أصيصاً آخر مثله إلى غرفته.

راقب الرقيب بويشو وهو يختفي في أعلى السلم الرخامي، ببنتاله الذي بدأ لونه الأحمر يبهت. وفي غرفة النقيب التي اتسعت منذ أن عاد الضباط الآخرون إلى فرنسا، كان النقيب لو مير يتمشى وهو يضرب بالسوط حذاءه.

- ماذا أحضرت من هذا الجبل؟ قال النقيب. ربما مرضاً خبيثاً. ولا حتى الشارة التي تستحقها كغيرك. ففي صحيفة المعارضة، اتهمونا بأننا ما زلنا نخفي عندنا صناديق من أدوات المائدة الذهبية. بالنسبة إلي، كان ذلك ليصح لو تمكنت من الحصول على سيف انكشاري بقيمة أربعة بنساتٍ فقط. وأنت؟ ربما، وشاح من الحرير وجدته في صندوق للعصبات والبابوج. وهل ستسمح لموظفي الجمارك بتزوير هويتك في تولون؟ العلم المثلث الألوان هو إشارة على انتصار الأوباش. يكفيننا لإعادة النظام، إنزال شعبة في البروفنس.

- وهل ستحصل على تأييد الشعب؟

- ثم يتألف الجيش؟ من الفلاحين، والناس المجهولين. وبالرغم من ذلك هم أنفسهم الذين يدافعون عن مصالح الملك.
- لا أعلم، الكثير من الأشياء تغيرت. رايات مثلثة الألوان تصنع في كل مكان، قال الملازم أول دو روي.
- الرأي العام، يمكن صناعته! قبل الإقلاع، كان لدينا في كل شعبة متمردون. هل تذكر ذلك النائب الذي لم يتوقف عن الصراخ: «حربكم ليست عادلة؟ وبالرغم من ذلك، فقد قامت الحملة. يمكننا أن نبدأ بالعكس.
- والبحرية؟
- أوه! البحرية...، قال النقيب بحركة استخفاف.
- تخيل، أيها السيد، بأننا لا نعلم شيئاً بدقة. إذا تخلى الملك شارل العاشر عن العرش لصالح الأمير هنري، هنا يمكننا الحديث عن إجراء شرعي، وحتى لو شاء البوربونيون<sup>(1)</sup> أنفسهم أن يبدلوا العلم، فلن تجدوا في كل البلاد ألفي ضابط معكم. وإذا اتحى البوربونيون أمام آل أورليون فهذه قضية عائلية.
- عائلتك لا تكترث؟
- عائلتي كانت دائماً في الخدمة.
- أنت لا تقيم الكثير من الوزن لقسمك، قال له النقيب وتوقف فجأة عن السير.
- نهض الملازم أول دو روي وذهب ليتكئ على الشرفة، حيث يمكن

(1) البوربوني نسبة إلى أسرة البوربون التي حكمت فرنسا قديماً. والتي كان منها الملك شارل العاشر الذي سقط، ليحل مكانه آخر من أسرة أورليان.

- رؤية وريقات أشجار البرتقال تلمع تحت الشمس بخضرة غامقة.
- لا أيها السيد، لقد أقسمت عهداً للملك، مثلك، وكما فعل الكثيرون قبلنا أمام الإمبراطور، لمن وبماذا؟ إني ما زلت صغيراً جداً لأستبدل قسماً بآخر. ولكن ماذا نفعل عندما يتراجع الأمير الذي أقسمنا بالوفاء له؟ كم مرة حلف مارشالنا القسم؟ سأفعل مثله.
- ولكن لو طلبت منك الحكومة الجديدة مغادرة هذه البلاد؟
- سأتألم، ولكنني سألتزم.
- في هذه الحالة، كان من الأفضل لنا البقاء في بيوتنا.
- لا يمكننا أن نصنع أوطاناً في الأحلام، أيها السيد.
- «بلى، أعتقد أنه يمكننا! هيا دو رواي! صرخ به النقيب، جالداً الهواء بسوطة، في البداية باريس ومن بعدها كل هذا.
- مال على النافذة، اكتشف وجود قمم ترمي بثقلها بين الغيوم، في الجانب الآخر من الخليج. في الجنوب، تنفجر عاصفة وترتفع باتجاه السماء، كسندان حداد أسود حيث ستضرب الصاعقة.
- «البحر، كل هذه السهول حيث تنتظر جياندا لتعدو، وخلف الجبال، الصحراء، والتي لا تشبه بشيء مقاطعاتنا الصغيرة التافهة! هل كنت ستجراً على أن تحكي لاحقاً كيف فوّت كل هذا؟»، قال بصوت مكتوم.

## الفصل الرابع

هنا يخرج السيد دو بورمون من الجزائر تراقبه نظرة بويشو  
الساخرة، والذي سيعود إلى مونتسيغور بحفنة من الفاصولياء  
في جيبه.

كان السيد دو بورمون قد بدأ للتو خطابه أمام كبار الضباط المجموعين  
في القاعة التي أقيمت فيها مأدبة العشاء بعد «تي دوم»، الذي سيعلن فيه  
للجيش عن الخبر الطارئ القاضي باعتماد العلم المثلث الألوان، عندما  
استلّ مقدّم من فوج المشاة سيفه من غمده، وكسره على ركبته، وبصمت  
دراماتيكي، رمى بحطامه عند قدمي المارشال.

شعر السيد دو بورمون بقلبه يطرق بقوة تشبه الارتطام، لحظات سريعة  
ثم استعاد نظرتة المراوغة:

«أيها السادة، لا يمكن أن تحسبونني عديم الإحساس تجاه انفعالات  
البعض. هذا الإنفعال الذي لا يمكنهم السيطرة عليه، أعرفه تماماً لأنني  
عشته قبلهم وسيطرت عليه. فالاحترام الذي أكنّه لهم، أتمنى أن يكونه هم  
أيضاً للقائد الأعلى. فهم لا يعرفون ما يخبئه لهم المستقبل».

انسحب بعدها مباشرة وخلال أيام قليلة تبدلت الظروف، ففي التاسع  
عشر من يوليو اجتمع الضباط من أجل تهنئته بربته كمارشال، وها هو  
اليوم موضوع شتيمة.

فكّ السيد دو بورمون ياقته ووقف متصلباً أمام طاولته الفارغة الملساء

وردةً بابتسامة على تحية الملازم أول دو روائي.

- بالأمس شرفتنني بأن طلبت رأيي، قال له الملازم أول دو روائي،

واجبي يقضي بأن أعلمك بأن الوقت جعلني أغير رأيي قليلاً.

- لم تعد مستعداً للامتحان للأوامر؟

- الامتحان للأوامر سيؤدي حتماً إلى ترك الجزائر. أعتقد أنه يجب

الاستمرار في الحملة وإكمال المهمة.

- وهذا ما فتئت أردده، بأن الحكومة الجديدة ستقوم بهذا، قال السيد

دو بورمون، هل تشك أنت في ذلك؟

سكت النقيب. فتابع السيد دو بورمون:

- ها، لذلك أنت متخوف. أنت مخطئ إذ لن يكون هناك أسوأ من

القوميين سوى الليبراليين عندما يتحكمون بمصير البلاد. تتغير

الدوافع وتصبح طموحات الآخر المشينة شرعية. ولكن لنفترض

بأنك محق ورضخت لتصوري الأول فأني سفين تريدها أن تنقلني

إلى فرنسا؟

- ولكن في سفنك، السيد المارشال.

- لا أملك سفناً. إنها ملك الأميرال<sup>(1)</sup>، وسوف يرفض تقديمها لي.

- يمكنك أن تجره على ذلك.

- لو تعلق الأمر بأمن الجيش لفعلتها ولكنها مسألة سياسية. هل تلمح

لما يتردد، من أن بإمكانني توقيف الأميرال وبأن مدفعية الجنرال

لا هيئت يمكنها أن تتدخل عند اللزوم؟ بادئ ذي بدء، إن الأميرال

(1) الأميرال: قائد القوات البحرية، وهنا هو الأميرال دوبريه الذي يملك عداً للسيد دو

بورمون بسبب إيلاء قيادة الحملة للسيد دو بورمون وليس له.

محاط بالحماية على متن سفينته التي لا يمكن لأحد الصعود إليها، والتي تقع على مسافة ميل من أقرب مبنى، وهو لم يكن يوماً مؤيداً لنا. إنه لأمر مؤسف ولكن هذا واجبه. ففي النهاية، عملية كالتى تفكر بها تتطلب تحضيرات طويلة ودقيقة. هل تتذكر كم تطلب الأمر من أسابيع في تولون. فالوقت الذي يلزمنا لتحضير كل شيء طويل وسيكون في النهاية قد أصبح كل شيء مستحيلاً. فلن يكون أمامنا إلا البواخر الجزائرية: ثلاث خطافات بحرية، قلعتان<sup>(1)</sup> ومرفقتان<sup>(2)</sup>. يمكننا استئجارها من الخارج. تخيل أيضاً الوقت المتاح، لم يبق لدينا سوى شهر واحد. ولكن لنفترض أنه وبالمصادفة حصلنا على البواخر أي فرق في الجيش يجب نقلها؟  
- فرقنا، سيدي المارشال.

أشاح السيد دو بورمون للحظات بنظره.

«لقد حدثتني بالأمس عن التزامك. وقد علمت أيضاً بميول فرق الجيش. كل مسؤول يخترع من عنده والحقيقة، بخلاف بعض الاستثناءات، هو أننا سنعاني لنشكل فقط أربع فرق للوصول إلى لي تويلوري<sup>(3)</sup>، وسيكون معظمهم من الباريسيين الذين سيبدلون بالكامل رأيهم عند دخول الضواحي. لا نملك أي حظ. أضف إلى ذلك أننا ما زلنا نجهل ما يحصل. هل أوقف الملك في سان - كلود أو أنه ما زال مسيطراً على باريس، هل

(1) القاعية هي سفينة شرعية بصارين متعددة القلوع المربعة.

(2) مرفئة وهي قارب كبير يستعمل عادة لنقل المسافرين من السفن إلى المرفأ.

(3) Les Tuileries ويقصد بها Le palais des Tuileries هو القصر الباريسي الذي بني في العام 1564، مكان معمل النسيج سابقاً، وقد توسع خلال الحقبات اللاحقة لتصبح له واجهة كبيرة جداً (بطول 266 متراً) واتخذه العديد من الحكام كمقر رئيسي للحكم.

حشد ولي العهد القوي في الشمال؟ حصل ذلك قبل خمسة عشر عاماً ربما...».

كلما تكلم ازداد وجهه إشراقاً وشعّت عيناه بالسخرية والشك وعلى صدغيه الأشيبين تقريباً، كان ينبض على سطح بشرته شريان أشبه بأخدود شقّه قنفذ على وجه الأرض. وخلفه، في زاوية الغرفة، الراية الخاصة بقيادته التي ترسم عليها زنابق على الحرير معلقة بقضيب يتدلى منه ذيل حصان.

«أنا أجهل كل شيء عن المستقبل ولكنني لن أنسى أبداً ما أدين به للجيش وما حملته من الجزائر لا قيمة له. يجب العودة إلى هنا وليس في موقع قيادة عامة من أجل أن أتنفس هواء أكثر نقاء». سكت. قدم الملازم أول دو روابي التحية وانسحب.

## 2

بالأغلبية العامة، أوصى آخر اجتماعٍ للقيادة برفع العلم المثلث الألوان بمجرد تلقي الأوامر الرسمية بذلك. فاقت طلبات الاستقالة العدد المتوقع بكثير واحتشدت القيادة العامة بعسكريين من كل الرتب يطالبون بالعودة إلى فرنسا.

كان من الواضح أن السيد دو بورمون يعيش آخر أيامه في الجزائر. لم يعزز أي إشارة بخصوص مصيره، عندما علم في الوقت نفسه بتسمية خليفته الكونت كلوزيل الذي اشتهر في سان - دومينغ والبرتغال قبل أن ينفي، والبارون دوبريه في رتبة أميرال، امتيازات وتقدير وأجور كأجور مارشال فرنسي. عانت السيد دو بورمون الكثير من المصاعب مما يجعله

لا يقلل من أهمية هذه الأزمة. دار دورة كاملة، وأصدر أخيراً، جدول أعمالٍ الملح فيه إلى أنه لا يمكن أن نكون ملكيين أكثر من الملك، بما أن شارل العاشر وولي العرش تخليا عن حقوقهما في العرش لصالح الأمير هنري وسلما القيادة العامة في البلاد لدوق أورليون، فإن الشارة والعلم المثلث الألوان يحلان محل العلم والشارة البيضاوين.

أدار النقيب لو مير ظهره للبحر وأشعل سيجاراً وسأل الملازم أول دو رواي:

- متى سترحلون؟

- في باخرة المارشال نفسها، كما أعتقد.

- أتريد رأيي؟ السيد دو بورمون رجل ضائع ونحن الذين خدموه لا يمكننا أن نتأمل بشيء قبل وقتٍ طويل.

- لا يمكن لأي كان أن يكون أميراً، أما عزة النفس فندفع ثمنها.

- عزة النفس؟ صرخ النقيب لو مير. عندما تقول هذه الكلمة، هل تعرف أن السيد دو بورمون لم يستقل يوماً من منصبه كوزير أو حتى كقائد للشعبة الثانية من الحرس؟ عزة نفس؟ ما هذه النكتة! الرواتب: مائة ألف فرنك في العام كوزير، ثمانية عشر ألفاً كقائد شعبة، بالإضافة إلى راتب قائد أعلى، إنه تعدد وظائف يا عزيزي.

- أراك متشدداً كثيراً، قال الملازم أول دو رواي. لأنه في النهاية لماذا علينا أن نرحل سوى لأننا مستائين؟ وأنت سيدي، سيقدمون لك كتيبة لكي تقودها...

لم يجب النقيب. كان الصباح قد حلّ. والشمس بددت حشداً من الضباب الدافئ الذي كان يلتصق. استدار النقيب وتظاهر بعدم رؤية العلم



مرفرفاً عند خفر الشاطئي وعلى كل السفن. إذ ترفرف الآن فوق ذرى الأشجار وخيم الثكنات وحتى على الشرفات رايات خيطة من البناتيل والقمصان والثياب.

«على أية حال، لا يجب أن يتكلوا عليّ لتقديم التحية لهذا العلم الحريري المثلث الألوان»، صرخ النقيب.

مر رجالٌ بدا عليهم تشنج و غضب غامضين. ابتعد النقيب واستبد بالملازم أول شعورٌ بالوحدة المكابرة. نزل إلى الساحة، مر بالقرب من النافورة الرخامية حيث كان المترجم غوريه يمشي أمام مركز القيادة العامة مطأطأ رأسه، وحيث كانوا مايزالون يشربون. رفع الرقيب هوغو، وشارة الإمبراطور على قبعته العسكرية، كأسه عند مرور الملازم أول دو رواي.

«بصحتكم!»، قال بصوتٍ مربكٍ بعض الشيء.

ثم واضعاً كأسه على الدرازين، اقترب وألقى التحية باحترام.

«السيد الملازم أول، إن الجيش الفرنسي سعيدٌ بأن يكرم ضابطاً في.. في.. ربتك. يمكننا أن نثمن ذلك».

ثم حمل ثانية كأسه ورفعها إلى الملازم أول.

«هل ستشرفنا بشرب النخب معنا؟».

تردد الملازم أول، ثم قبل، ليجتمع بعدها الجنود حوله ضاربين كؤوسهم. لاحظ الملازم أول أن ذقونهم جميعاً طرية حلقت للتو، ومعافطهم نظفت بالفراشي وأحزمة بنادقهم نظيفة كالطبشور الأبيض. بويشو الذي كان يطلّ عليهم جميعاً بقامته السامقة، اقترب منه كأنه يحميه. ولأول مرة لاحظ النقيب أن عينيه صفراوين، محاطين بلون أخضر. ارتشف النقيب القليل من النبيذ الأحمر الفاتر جداً بطعم البرميل الذي حفظ فيه.

«باسم الملك»، قال الرقيب.  
 قهقهه الرجال الواقفون خلفه.  
 - باسم الإمبراطور!، صرخ أحدهم.  
 - بصحتكم، سيدي الملازم أول، قال بويشو.  
 «لن يسامحني النقيب لو مير أبدأ على ذلك»، فكر الملازم أول دو  
 روي. ثم تحسّس طرف سيفه.  
 «بصحتكم أيها السادة»، قال بأقصى ما يمكنه من صرامة.

## 3

شعر الملازم أول دو روي بغثيان غامض، استسلم له دون أن يفكر بمقاومته أساساً. «لا بأس»، قال لنفسه، «فلأبدو مرحاً أحياناً، فتقتضي اللياقة في هذه الحالة، بأن أعيش مشاعري دون أن أظهر شيئاً». استعلم عن مكان بيت الراحة، ثم استراح. فعندما سيشعر بالرغبة في التقيؤ، سيلجأ إليه، لأنه لا يريد أن يروه يفعل ذلك منحنيّاً فوق الدرايزين، حاملاً قبعته والسيف يخفي ساقيه. بدأ الصداع يتمدّد شيئاً فشيئاً في عمق دماغه، يصل إلى التجويف ثم الجبهة. الجو مفعّم بروائح الملح والبحر وما زالت الفرقاطة الراسية بمرساتين عند الشاطئ، تتمايل مثل العادة بفعل الريح التي تهبّ من الشرق والتي لا تستكين إلا قبيل الغروب.

في ترتيب خاص، حصل بويشو والنقيب لو مير على آخر غرفة من الحجرات المتبقية في السفينة والتي كانت مخصصة لضباط خدموا مع السيد دو بورمون. نقل بويشو إليها المؤونة طالباً الإذن بأن يجد مكاناً لكيسٍ واحد يخصه. والآن ها هو يعود عند الجسر وهو ينفض معطفه

وينطاله من الغبار.

- انظر جيداً، لن تتاح لك رؤية ذلك مرةً أخرى، قال له الملازم أول دو روي.

- أنا، بالتأكيد لا. أن أعود، من أجل ماذا؟

- على أية حال، قال الملازم أول، لا أعرف إن كان من سيأتون بعدنا سيتصرفون بشكل أفضل، ولكنهم سيتألمون. لو نزل الآن ألفان من رجال القبائل من الجبال، ستكون فعلاً رحلت في اللحظة المناسبة، وأنا في اللحظة الخطأ»، ثم تابع:

- إذن النساء، ألم تلمس إحداهن هنا؟

- حتى وحده. ولا حتى واحدة.

- وتكلم أيضاً العربية.

- بعض الكلمات. لقد طالما سخر مني بأسبوا. مع النساء...

- هل كنت لتبقى؟

- لا أعرف

- هل أنت نادم؟

فكر بويشو بماري ألدبرام واخترق قلبه نصلّ حاد. لن يعرف البتة من أين تأتي بهذه الرائحة المتوحشة لصدرها، وهذا الليل المرصع بالنجوم الذي يضيع في أعماق عينيها.

- قليلاً، أجابه.

- أنا أيضاً، تخيّل.

- رغم أن...

- آه، قال النقيب.

تذكر الضباط الذين وصلوا الليلة الماضية بقيادة السيد كلوزيل، القائد الأعلى الجديد، وزمرة الشباب اليافعين بيناطيلهم الضيقة مثل المغازل، ومعافطهم المشدودة على قياس الجسم، المزخرفة بالشرائط الملونة. وحدث نفسه بشيءٍ من المرارة «عندما نحب الزخرفة لهذه الدرجة، فنحن لا نظهر كل هذه الرهافة من أجل عرضٍ بسيط». ربما سيقضي أحدهم سهراته مع العنيدة الإسبانية ويشاطرهما السرير في فندق أومبادور. وحدث نفسه «في النهاية، لو شئت تكبد عناء ذلك لعلمتهم ما معنى الأناقة الحقيقية. عندما نتمتع بكل هذه المواهب ونحب موزارت إلى هذه الدرجة...». ولكن وبسرعة حملته هذه الفكرة الحزينة إلى ذكرى الوجه الدهني للجنرال كلوزيل المكتنز قليلاً وأنفه الدقيق ووجنتيه الثقيلتين وفمه الصغير المتفاخر. «بالنسبة لكل البارونات الذين يرافقونه، الجلفين مثل جلد الأبقار... هيا، لا تكتئب، فالسيد دو بورمون أكثر حزناً منك...»، قال في سرّه.

في هذا اليوم، غادر المارشال الجزائر برفقة ابنه شارل وأدولف دو بورمون وخادمين والقليل من الحقائب. ابنه الثالث لويس ركب في البواخر التي رفعت أعلاماً اعتبرت عدوة فجاءهم الخبر بأن وزير الحرب أمر بنقلهم ليلاً إلى مركز إينفاليد العسكري من دون طبول أو أبواق، بشكل شبه مخز. بالنسبة لأميديه فقد تجرأت مصلحة الضرائب على فتح نعشه وتفتيشه مفترضين وجود ذهب سيحمل إلى مدافن العائلة.

كان على السفينة سفينكس أن تنقل المارشال إلى تولون، ولكن سرت شائعات دفعته لتغيير مساره. إذ بدأ الكلام عن أنه وعند بداية الحملة العسكرية قدم له سراً مليون قطعة لم يقبل سوى ثلاثين ألفاً منها وترك الباقي لخليفته، كما أوردت صحيفة «مرسيليا» بأن عاملي مصلحة الضرائب

اكتشفوا أربعة ملايين في صناديق تحمل إشارة «ثياب متسخة تعود للسيد دو بورمون». ويقال إن القائد الأعلى الجديد تلقى أمراً من الحكومة بأن يوقف خلفه بأنجع الطرق التي يراها مناسبة، بتهمة وزيرٍ أطلق النار على الحشود. كان الجنرال كلوزيل وقياً في مفاخته السيد دو بورمون ليتيح له تدبر أمره. ولأنه كان مقتنعاً بأنه سيُسجن ما إن تطأ قدماه أرض فرنسا، ولأنه لم يشأ هذه المرة أن يعيد من جديد بناء نفسه، فقد قرر السيد دو بورمون التوقف في ماهون<sup>(1)</sup>. إذن، فقد كان القرار بيد الأميرال دوبريه ليقرر ما إذا كان سيساعد القائد الأعلى السابق، إلا أن الأميرال، برأسه الذي انتفخ بلقبه الجديد والذي أطلق لأجله طلقات احتفالية في البحر، والذي وجد في النهاية فرصته للانتقام من الشخص الذي أذله فأجابه إن أراد العودة لفرنسا، ستكون له حرية اختيار الأسطول الذي يريد، وإن رفض فلا يعتقد الأميرال بأنه سيكون قادراً على تلبية طلبه. وبالرغم من وجود مشافٍ فرنسية، في ماهون، فإن البحرية ترفض أي مساعدة.

## 4

استدار فجأة الملازم أول دو روابي.

إنه النقيب لو مير يتقدم بتعالٍ مسترٍ وبأنفٍ شامخٍ قليلاً مثل فرس يستنشق الهواء منتعلاً حذاءً طويلاً ملوناً من جلد الأيل الأبيض قابضاً بيده اليسرى على سيفه الذهبي، بهامته الطويلة وبخطواتٍ متمهلة متعبة نجح في أن ينقل عدواها للخيالة. وكانت زخارف بزته العسكرية وكتافيته تتطاير.

(1) Mahon عاصفة جزيرة مينورك في تجمع الجزر بالياريس الواقعة في البحر المتوسط.

وعندما أصبح على مقربة من الملازم أول دو روي توقف قبل الدرايزين بقليل، وكأنه خشي أن يتسخ بمجرد الاحتكاك، ونظر إلى الملاحين حوله الذين كانوا يلفون حبال السفينة ثم إلى المدينة التي بدأت شمسها تغرق في الجهة الأخرى من القصة والتي لن تتأخر عن لفح ظهره. وعندها نحى بويشو جانباً خجلاً مرتباً حزامه وفجأة شعر بأنه قدر. ففي هذه الحرارة تطول الذقون بسرعة.

- هل حظي المارشال بباخرة؟ سأله الملازم أول.

- انتهى الأمر بأننا وجدنا سفينة شراعية نمساوية سيئة التجهيز، تم نقله بها نحو الشمال، هنا، يمكنك أن تراها أمام حصن باب عزون. إنها أشبه بحمام عمومي يقوده سرديني، النقيب غاغريسا، الذي له فم وشارب قرصان، قال لو مير مقلداً لهجة الإيطاليين. لقد استدعى السيد دو بورمون ضابط الشرطة، وفرض عليه أن يفتش ضابط من مكتب الجزائر كلوزيل متاعه ليتأكد من محتوياتها. انظر يا عزيزي، كيف يرحل مارشال فرنسا من الشاطئ الذي احتله، لن يخدمك منصبك الشهير بشيء.

لم يبد الملازم أول دو روي أي رد فعل. كان يبحث، على سطح الماء اللامع، وما بين حبال الأشرعة والصواري وبين حمولة الباخرة البائسة عن ظل القائد الأعلى. فهل وضع السيد دو بورمون قبعته بالريش أم أنه اكتفى بقبعة عسكرية عادية أو قبعة شرطي؟ كان السؤال يلسع شفثيه بيد أنه اعتبره بلا فائدة، ولم يجروء على طرحه.

«وهل تعلم ما اسم قارب اللاجئيين هذا، تابع النقيب قائلاً، والذي يصعد إليه الآن الرجل الذي أدار كل جنود الحملة وأسطولاً من خمسمائة

باخرة؟ لاماتيسيمو. كيف يمكن ترجمة ذلك عن الإيطالية؟ «المعشوق»؟  
 «المفضّل»؟ انظر عزيزي كيف يكون مصيرنا عندما تنقصنا الجرأة. نحن  
 أفضل حالاً. وربما سيحق لنا بعض احترام».

نشر الحر رائحة القطران اللاذعة التي اخترقت قلب الملازم أول دو  
 رواي.

«اعذرني للحظة»، قال مبتعداً.

تردد بويشو في اللحاق به ثم تراجع. اتكأ على إحدى الرفاعات وراح  
 يتأمل حصن الإمبراطور.

سرى في الجو هدير. أصاخ الملازم أول السمع؛ وكأنه يأتي من جهة  
 البليدة:

«العاصفة»، قال النقيب.

مزّق البرق كتلة الغيوم السود لجهة الجنوب، ثم انفجر الهدير ثانية  
 على نحو مكتوم. وفجأة غادرت القلعية<sup>(1)</sup> المرسى. أشرعتها عالية منتفخة،  
 لتبتعد مئات الأمتار عن الفرقاطة يتبعها سربٌ من النوارس. تمسك السيد دو  
 بورمون مع ابنه، بأسفل السارية التي كانت لا تزال تهتز. توجه الضابطان  
 إلى السطح العلوي الخلفي للسفينة ووقفا بثبات يلقيان التحية. رد السيد  
 دو بورمون برفع يديه كالكاهن الذي يبارك في الوقت نفسه المخلصين  
 له، وأيضاً العلم المثلث الألوان الذي يرفرف تحت شرع الفرقاطة بقليل.  
 وحدها القلعية رفعت الراية ذات الخطوط الحمراء والبيضاء.

- آه، لقد نسيت، قال النقيب لو مير، هناك علبه فولاذية صغيرة،

(1) القاعية: سفينة شرعية بصاريين متعددة القلوع المربعة.

رفض السيد دو بورمون فتحها، وقال للعميد «هم يتهمونني بأني حملت ثرواتٍ وسيكونون على حق: إنها ماسة ولكن لا يمكنني أن أفتحها لك».

- ماذا كانت؟

- إنها قلب ابنه أميديه.

وكان العاصفة دارت في المدينة من جهة الشمال. صدّع البرق الجدار الذي يرتفع عند الطرف الآخر من الهضاب التي يجب اجتيازها لبلوغ سهل متيجة، وبعدها بقليل ستمتطي العاصفة نهر الخراش. على المراكب، لعلت أصوات الأوامر، بحارة يتراکضون على الجسور من أجل أن يشدوا قدر الإمكان سلسلة المراسي ويتسلقون الصواري للتأكد من تماسك الأشرعة. استعدّ الأسطول بأكمله لمجابهة العاصفة. عندما انطلقت ضربة المدفعية الأولى من المرفأ ظن الضباط للحظة بأنه دوي رعدٍ لكن الضربات الأخرى بدّدت ظنونهم.

«لا بد أن الأميرال فتح الشمبانيا محتفلاً بمغادرة منافسه».

وراح يعدّ:

«أربعة عشر، خمسة عشر.. سيتوقفون عند السابعة عشر، أو حتى الواحدة والعشرين؟ ثمانية عشر، تسعة عشر... إنهم الأسياد»، أضاف بصوتٍ حاد.

لم يجب الملازم أول، تذكر كل الرشق المدفعي عند الجبال عند سيدي فرج وسطاوالي وسيدي خالف حيث أصيب السيد دو بورمون بجروح قاتلة، وتلك الزوبعة الرهيبة من الحديد والنار في الرابع من يوليو التي انهمرت عند ساعات الفجر الأولى على حصن الإمبراطور. فالخط الأسود



الذي حفره البرق ساداً الأفق يشبه تلك الزوبعة التي خلفها انفجار القلعة ذلك اليوم. ويبدو الآن أن العاصفة تلاشت إلى سرب من السحاب القطني الذي تطاول فوق البحر. والنوارس التي فرقها ضربات المدفع عادت بسرعةٍ باتجاه القاعية وهي تصرخ.

وللحظات، ظلوا يسمعون قرقعة خفيفة مكتومة كأنها تنبعث من علبة خشبية كبيرة. «المدافع التي أطلقت كانت آمنة، فالطبول لم تعد تقرع من أجل التعبئة. وقریباً جداً عند نهاية اليوم، سيكون علينا أن نلقي التحية كما كل الناس على ما يسميه النقيب، خرقة. ومن أجل ألا نتسبب بحادث غير ضروري، علينا أن ننسحب إلى غرفنا». وتساءل إن كان السيد دو بورمون حمل معه راية قيادته. ربما أن السيد دو بورمون، حدث الملازم أول نفسه مرة أخرى، سيبحث عن الأسطول الذي رافقه، وسيجد نفسه وحيداً بعد ثلاثة أشهر. على الأقل قد يجد نفسه بالقرب من أزهار الزنبق التي تمثل نصره.

رغب الملازم أول دو روي بأن ينهار للحظة ويسقط على ركبتيه. ولكنه عالج الوضع بضحكة صغيرة، ثم استدار وعاد. مرافقه بويشو أو لنقل مارجول، أو كويك، هو أيضاً كان هنا، واضعاً يده في جيبٍ مليء بحبوب الفاصولياء، والشمس تلفح ظهره، متأملاً ما يجري بعين ساخرة.



## البدايات

الجزء التالي كان يشكّل مقدمة الكتاب الأول من «ملحمة الجزائر» عندما نشر جول روميل في ستة أجزاء منفصلة في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، لكن عند جمع الأجزاء الستة في مجلد واحد لاحقاً، حذف الكاتب هذا الجزء الذي أسميناه «البدايات» وأعاد إضافة بعض مما فيه في الجزء الأول المعنون «سيدي فرج»، لذا نضع بين يدي القارئ هذا الجزء المحذوف لمن يرغب في معرفة بداية الحملة وظروفها والرحلة من فرنسا إلى الجزائر ويتعرف مبكراً إلى الشخصيات الرئيسية في الجزء الأول، وقد يجد للأسباب التي ذكرناها بعض الفقرات مكررة بين «سيدي فرج» و«البدايات».

## انطلاق الحملة

### 1

رياح غربية تدفع الغيوم المحملة بالمطر، فتغطي أحياناً الأسطول الضخم ولسان شبه جزيرة سيني<sup>(1)</sup> الذي يحمي الميناء. ما فتئ المطر ينهمر طوال الليل.

كل عام، تتكرر الظاهرة نفسها، وتدمر الأسطورة الجميلة لشهر مايو. إذ يبدو أن الشتاء قد انتهى وبدأت الأيام الجميلة، في حين لا يكون في

(1) La Seyne-sur-Mer: مدينة على الشاطئ الجنوبي لفرنسا الذي يطل على البحر المتوسط.

الانتظار سوى العواصف والبرد. أما في أفريقيا، فالوضع معاكس تماماً، وإلا لكانوا اختاروا توقيتاً آخر للحملة. وقد مكّنته الحظوة الاستثنائية التي يتمتع بها قسم الخدمة في القيادة العامة، من الاحتماء من المطر في حظيرة كبيرة مع قيادة الأركان. أما الجنود الذين ينتظرون إقلاع السفن فقد أغرقهم المطر حتى العظام. ولم يكن لديهم ما يشعلون به النار، المحظورة على أية حال، ولكنّ أحداً لم يشتك. بل حصل أمر غريب جداً عندما خرج المجنّد أنطوان بويشو، من فرع الاتصال في الطابور السادس، مع رفقائه إلى المطر. لتبدأ حينئذ سرية من فوج المشاة من الشعبة الأولى بالغناء أمام هرم البنادق المكومة، ولتستبدّ الحماسة ببعضهم، فيشرعون بمرافقة الإيقاع الصاخب بعض الشيء:

قرع الملك الطبول

ليرى كل هؤلاء النسوة<sup>(1)</sup>

كانت أغنية حزينة أكثر مما هي بهيجة، يرافقها أحياناً خبط على الطاولات بالأيدي، وهي تنطوي على شيء من التأسّي النابع من إحساس الرجل الذي يغنيها بأن امرأته جميلة إلى درجة أن يقع الملك في غرامها. وبأنه يعلم تماماً من هو المتحكم وليس بغافل عن الطريقة اللازمة للحصول على النعم.

لا تغضب أيها النبيل

مكافأتك ستحصل عليها.

(1) إنها الأغنية الشهيرة التي تحكي قصة لويس الرابع عشر وزوجة الماركيز مونتسبان. والتي تقول إن الملك قرع كل الطبول مستدعياً كل النساء وأول امرأة رآها سلبت فؤاده، وصدف أن كانت زوجة ماركيزه، فطلبها منه واعدأ إياه بالتعويض عليه وتعيينه مارشالاً لفرنسا، فرد الماركيز بأنه لو كان احداً غيره لانتقم منه ولكن بما أنه الملك فعليه أن يطيعه ثم سلمه زوجته، وغنى لها «وداعاً حبيبتي، وداعاً قلبي»...

سأعينك في جيشي  
مارشالاً كبيراً لفرنسا..

يبدأ قرع الطبول: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، ثم وقفة قصيرة، يتسارع بعدها الإيقاع: قرع الملك، تاتا تاتا بوم بوم الطبول... وحينئذ يبدأ الناي بمرافقة الغناء، ومعه كتائب الفوج، الواحدة تلو الأخرى، لتتضم بعدها الكتائب من الألوية جميعاً، ثم من الشعب كافة. وما هي إلا دقائق، حتى يبدأ الميناء كله بالارتجاج، شعبة برتزين التي كانت تصعد السفينة تحت وابل المطر، ومن الجهة الأخرى للحوض وداخل المعسكرات، كل الجيش وعلى رأسهم الضباط، وقد استبد بالجميع نوع من نشوة البرد، بلا كحول، فأطلقوا عقيرتهم بالغناء وأيديهم بالتصفيق، وسرعان ما تحولوا من التمايل إلى الرقص، وفي النهاية وخلف بعض الجنود الملوحين ببنادقهم ممن يعتمرون القلنسوات الفرو، بدأ الجنود بالرقص، نعم الرقص، على الرغم من غزارة المطر. ذلك أنهم ذاهبون إلى مغامرة الجزائر.

ولم ينقض ربع ساعة، حتى فقدت الأغنية التي استعادتها كل الأفواج بالتالي، وإن في غير محلها، كل رقتها وتحولت لحناً حزيناً متوحشاً يختلط فيه الحب بالهزل. وجعلت الوجوه المضاءة بأنوار الميناء وبعض الأفكار الرذيلة، تسيطر الليل بكلماتها الجارحة.

وداعاً يا حبيبتى، وداعاً أيأ قلبي،

وداعاً أيأ أملِي!

لتتبعها حتى الصباح أغانٍ أخرى صاخبة، وحال لسان الجنود يقول: بحق الرب، سننام لاحقاً. نوديت الكتائب فهروا الجنود إلى السلاح، وحملوا حقائب الظهر بصمتٍ وتقدموا في طوابير باتجاه السفن حيث

ساعدهم البحارة على الصعود. كان الموج عالياً تأرجحت في خضمه السفن، حتى أخذ الجنود يتقيأون.

وهكذا انطلقت فرق الجيش: في إرباك وفوضى وفرح هستيري مجنون، لأنهم ضاقوا ذرعاً ببلادهم الباردة وها هم ذاهبون إلى البيرو<sup>(1)</sup>. صبيحة اليوم، وبعد الوايل الليلي، أفاقت البلاد على شمس ساطعة وعلى قرع البوق، لأن السيد دو بورمون أصدر في العاشر من مايو 1830 أول أوامره: «أيها الجنود، إن الإهانة التي لحقت بالعلم الفرنسي تناديكم إلى ما وراء البحار... طوال عصور والعلم الفرنسي يرفرف على الشواطئ الأفريقية... ولطالما اضطهد العرب من قبل ميليشيا جشعة متوحشة، وهم يرون فيكم المحررين!». إنها اللازمة نفسها، ربما، من يتذكر بونابرت؟ حسناً سيذهبون لتحرير العرب، دون نقاشات أخلاقية في نهاية هذا السلام الطويل جداً والمضجر<sup>(2)</sup>. على الرغم من الطرقات السيئة وعواصف الربيع الشديدة، غادرت جموع الجنود الثكنات الكثيرة ووصلت راجلة إلى تولون<sup>(3)</sup>، وكأنهم ذاهبون إلى حفلة، منتشين بالبيذ الوردى المحلي الذي يباع في كل مكان بفلسٍ واحد للتر الواحد، مع سلالٍ من الفراولة من جنوب البلاد. لم يتقاعس أحد عن المجيء، ولا تجرأ من هو مريض منهم على إفشاء ذلك حتى لا يُستبعد من المشاركة. عرفاء وضباط صف<sup>(4)</sup> في مخازن الجيش تخلوا عن شاراتهم ليتسجلوا في القائمة، جنوداً فحسب،

(1) بيرو هي بلاد تقع غرب أميركا الجنوبية تتمتع بطقس دافئ، والجنود هنا غير ذاهبين بالطبع للبيرو وإنما إلى الجزائر ولكنه ذكر البيرو هنا للإشارة إلى صورة الجزائر بالنسبة للجنود الذاهبين في الحملة إليها، بلاد واعدة دافئة كالبيرو.

(2) ويقصد هنا السكوت الفرنسي على القرصنة التركية.

(3) تولون هي مدينة جنوب - شرق فرنسا.

(4) ضباط الصف أي الفئة التي تضم رتب: «رقيب» و«رقيب أول» و«مساعد».

وكل من وصل بعد اكتمال العدد المطلوب بادر إلى التطوّع. أما المتمردون والمعترضون، فألقي القبض عليهم وسجنوا بسرعة حتى لا ينقلوا العدوى إلى سائر الجنود.

في أفريقيا التي أخذ الجندي أنطوان بويشو يحلم بها، سماء دائمة الزرقة، بحر هادئ كبحيرة وأرض مفروشة بالورود. لكز بويشو رفيقه باسبوا، الذي جلس بقربه مائلاً بجسده، مما كشف رقبته الطفولية النحيلة، التي ظهرت عارية ما بين طية قلنسوته العسكرية وياقة معطفه.

«ماذا؟»، قال باسبوا بصوت مكتوم.

كان بويشو يرغب في الكلام ثم غيّر رأيه؛ فباسبوا أصغر من أن يفهم ما يريد قوله.

«لا شيء... لاحقاً»، أجابه غامزاً بعينه.

## 2

قبل أسبوعين من انتهاء المهلة المحددة، احتشدت في ميناء تولون 645 سفينة حربية وتجارية قسمت بحسب الشعب برايات مختلفة الألوان وبأرقام كتبت كبيرة على مقدماتها، وفي الساعة المحددة جرى تحميلها. إنه عمل جبار للبحرية.

منذ خطاب العرش في 2 مارس 1830 الذي أعلن عن الحملة والعمل جارٍ ليل نهار. وزراء يستنهضون المحافظين والجزالات. وسفن استؤجرت من كل المرافئ المتوسطية في الجنوب، من جنوة وناپولي وسردينيا وبرشلونة

وطرخونة<sup>(1)</sup>، حتى التحقت بالشاطئ الفرنسي مائتا سفينة من كل نوع وحجم. وتحوّلت جميع منازل مرسيليا وتولون إلى فنادق مكتظة وخانات للقوافل اختلط فيها قدامى القراصنة والنقباء البحريين والمدانين، بالضباط والعاهرات. أما مخازن السلاح فقد عملت بأقصى طاقتها على صيانة الأسلحة. وعلى امتداد نهر الرون<sup>(2)</sup>، بُنيت مراكب نقل حملت بالمعدات وسُيرت إلى البحر. كما جُمع ونظم ما كان مشتتاً في البداية في الجنوب الفرنسي، ثلاث فرق من المشاة والخيالة والمدفعية، سبع سرايا من المهندسين العسكريين والعمال، ترافقهم المعدات الهندسية وشتى الخدمات التي من شأنها أن تزوّد الجيش باحتياجاته بعيداً عن قواعده.

وقد بثّ الحدث في أرجاء البلاد، باستثناء من يتميزون تاريخياً بتحررهم من الأوهام، حماسةً غير مسبوقه؛ أخذ الجميع يلتحقون بالجنديّة: جنود يتقاضون نصف رواتب، جنود قدامى في جيش الإمبراطور، رجال لم يحملوا يوماً السلاح، رسامون يبحثون عن الإلهام، علماء، صغار تجار، وحتى فئة من الشباب المرفهين الذين لم يعتقد أحد أن في مقدورهم ترك مقاهيهم في باليه - رويال لكي يطلبوا المشاركة في الحرب. دوقات ونبلاء وأعيان من باريس طلبوا شرف الالتحاق بالجيش جنوداً عاديين. واقترح وكيل الدعاية في الجيش استئجار سفينة بخارية، والتي تُعدّ من مبتكرات ذلك الزمن، لتواكب الأسطول: مقابل ثلاثة عشر فرنكاً في اليوم، يمكن للبورجوازيين الجلوس على كراسيهم العالية لمشاهدة انطلاق الأسطول وإنزاله في الجزائر.

(1) جنوة ونابولي في إيطاليا وبرشلونة وطرخونة في إسبانيا.

(2) Rhône هو نهر أوروبي ينبع من سويسرا ويمر بفرنسا ليصب في المتوسط.



أما الصحافة فلم تتناول الحدث برمته إلا ساخرة، ولم ترحب به سوى صحف المناطق البحرية التي أفادت من هذه العطية غير المتوقعة. وعندما سرت شائعة أن بريطانيا العظمى تساحت مع الحملة، لم يتمكن شاتوبريان من إخفاء امتعاضه وقال خاطباً على منبر مجلس الأعيان في باريس: «كلما سمعتهم يرددون بأنهم سمحوا لنا بنقل الجنود إلى أفريقيا، أشعر بأنهم أهانوا وزرأنا لأنهم هم من طلبوا الإذن. وهل كان القادة الكبار الذين أراهم في هذا المجلس بحاجة طوال عشرين عاماً إلى موافقة البحرية الإنكليزية للإبحار بين طرفي أوروبا؟ لا أعرف إن كنا نحن في المقابل، صدقنا على حملة اللورد إكسماوث<sup>(1)</sup> لقصف الجزائر مثلاً...». كان السيد شاتوبريان يعتقد أنه إذا أبدت بريطانيا شجماً فوراً قوياً لمشروع الإنزال على الشواطئ الجزائرية، فستنذر تونس وطرابلس الغرب وتحرضهما على التصدي للحملة، مسددة بذلك ضربة قاضية للحملة. فهو كان يجهل أيضاً أنه عندما قدم اللورد ستيوارت، سفير جلالته الملكة في باريس، بطريقة غير لائقة رؤياً حكومته، استدعى رداً قاسياً من بارون هوساس، وزير البحرية، لدرجة أن الرد اتخذ شكل الهجوم: «ما عدنا في الزمن الذي تفرضون فيه قوانينكم على أوروبا. كانت سطوتكم نابعة من ثرواتكم وسفنكم واعتيادكم على السيطرة. وكل هذا بات من الماضي. فرنسا لا تأبه لبريطانيا»، وأضاف الوزير البحري، محدداً موعد العملية: «يمكنكم تحدينا إن أخذتكم النزوة ولكنكم لن تفعلوها». ولو علم

(1) المقصود هنا حملة اللورد البريطاني إكسماوث وهي حملة عسكرية إنكليزية قادها ضد مدينة الجزائر بصحبة الاميرال فان كابلان الهولندي، والتي تم خلالها قصف الجزائر بهدف إخضاعها ولكن الحملة فشلت.

شاتوبريان أن الملكيين العائدين<sup>(1)</sup> يريدون الانتقام لمعركة واترلو، لكان تغنى بالعزة. فتحدّ كهذا يعني المخاطرة بحرب.

وفي حملة بلغت ذروتها، لم تسجّل صحف المعارضة، والتي هي الأهم في البلاد، سوى التوبيخ والتحقير، فيما أدانت ما اعتُبر «قضية» وإما قابلته بالسخرية. صرفت الميزانية حتى من دون تصويت البرلمان، إلى درجة أن بعض الخطباء انبرى يصف الحملة بالغبية والخيالية غير المبررة. «أنحن مؤهلون لنكون أبطال أوروبا؟»، أخذوا يصيحون. علاوة على ذلك، فإن الجزائر أرض مخيفة ليس فيها سوى الأفيون وماء الورد، والدافع الحقيقي وراء شن الحرب على الداي هو تحضير الجيش الفرنسي لحرب ضد الباريسيين. وحده كاتب ليرالي، السيد سيسموندي<sup>(2)</sup>، مؤرخ سويسري، أبدى في روفو أونسيكلوبوديك<sup>(3)</sup> حماسه للحملة معدداً المنافع التي ستعود بها على فرنسا. أما الصحافة الرسمية فاكتفت

(1) يقصد هنا فترة الـ *restauration* وهي في التاريخ الفرنسي عودة أسرة Bourbon إلى الحكم إثر تحي الإمبراطور نابوليون بوناپرت، وذلك بارتقاء لويس الثامن عشر العرش عام 1814، ويطلق هذا المصطلح على كامل الفترة الممتدة بين العام 1914 وثورة 1830. وبذلك يشمل عهد لويس الثامن عشر وعهد شارل العاشر مجتمعين، باستثناء فترة الايام المئة التي عاد خلالها نابوليون إلى التربع على العرش الفرنسي من 20 مارس وحتى 28 يونيو 1815.

(2) Jean Charles Léonard Simonde de Sismondi (1773-1842) ولد في جنيف بسويسرا. وهو كاتب ومؤرخ اقتصادي من أنصار مذهب تدخل الدولة في الاقتصاد (*Interventionism*)، الذي يعتبر وسطاً بين مذهب الاشتراكية والمذهب الطبيعي. وهو مؤرخ معروف بكتاباتِه في التاريخ الفرنسي والإيطالي. وهو ممن دعوا إلى الاهتمام بتحسين حالة العمال وتأمين السلامة الصناعية وضمان حالات البطالة والمرض والعجز، وقد مهدت آراؤه لفكرة الضمان الاجتماعي. ويبدو أنه كان من مؤيدي الحملة الفرنسية على الجزائر.

(3) *Revue Encyclopedique* هي دورية شهرية أسست العام 1819، وفتحت باباً على الأدب الروسي، كما تخصصت في مناقشة القضايا التاريخية والعلمية والأدبية والفنية.

بتكرار أن هذه الحرب هي قضية رد اعتبار للشرف الوطني تهون معها كل الأثمان. وكررت كلمات شارل العاشر ورئيس وزرائه: «وراء علم الزنابق، تنطلق المسيحية مرة أخرى في حرب صليبية لتفك قيود العبيد الغارقين في السجون، ولتضع حداً لمطاردات السفن وتحرر الشعب الجزائري من التركي الجائر». أما اتهام بعض الصحف الحكومة، بأنها مررت - تحت ستار الأوضاع الطارئة - طلبات التموين دون مناقصات ولا دعوة للتنافس، فذلك لا يعدو عن كونه رغبة مقصودة بازدراء كل شيء.

### 3

بدأ الجندي أنطوان بويشو يشعر بالضيق على الرغم من وجوده على متن سفينة القيادة. ذلك أن السفينة الأميرالية<sup>(1)</sup> الكبيرة هذه، والتي ساعدته حظوظه الحسنة على أن يكون في عدادها، أكثر ثباتاً من القلعيات<sup>(2)</sup> وقوارب الصيد، وحتى الفرقاطة<sup>(3)</sup> التي تراقص على صفحة الماء إلى درجة أنها تبدو عندما تتقدم بصعوبة وكأن صواريخها ستشتبك بعارضاتها وتتخلع مثل غصون الشجر في الشتاء.

كيف يمكن تسمية هذه المراكب المائة والخمسين التي تصول وتجول ما بين الموانئ والسفن الكبيرة، والتي ستستخدم لاحقاً أيضاً للإنزال على

(1) السفينة الأميرالية هي السفينة التي تضم قيادة الحملة.

(2) القلعية هي سفينة شراعية بصارين متعددة القلوع البحرية.

(3) الفرقاطة هو اسم يطلق على نوع من السفن الحربية السريعة التي تكون أصغر حجماً من المدمرات وأكبر من زولوق الدورية الساحلية بالمقارنة مع المدمرات فإن الفرقاطات ذات سرعة ومدى بحري أقل.

شاطئ سيدي فرج<sup>(1)</sup>؟ لقد جندوا في كل مرافئ المتوسط هذه المراكب البائسة المجهزة بشراع واحد هزيل مائل كجناح نورس. وإن أردنا التحديد أكثر، فهي المراكب المسماة «المراكب البقرية»<sup>(2)</sup>، لأنها تبخر إلى الصيد مثنى وليس فرادى، كثيران الحراثة التي تقرن اثنتان منها دائماً بالنير، أي دائماً ينطلق المركبان معاً كي يتمكننا من جر شبكة الصيد من طرفيها.

استمرت عملية التحميل، التي عطلتها أحياناً حالة البحر، سبعة أيام بلياليها. نساء منتحبات رافقن أزواجهن بالقوارب إلى السفن لتوديعهم. ونام الجنود كيفما اتفق على ظهر السفن وعلى الأراجيح القليلة جداً إلى درجة أنه كان عليهم التناوب عليها، فينام بعضهم من السادسة مساء حتى منتصف الليل، ثم يخلون أمكنتهم لآخرين ويصعدون إلى أعلى مقدمة السفينة لأن العنابر مكّدة بالأسلحة والأدوات من كل نوع. يصابون بالدوار من كثرة التمايل والتأرجح فيفقدون شهيتهم، مستعينين بالنبيذ على ذلك، ليعودوا ويتقيأونه في البحر أو على معافطهم، فتعقب الروائح الكريهة في كل مكان.

الثامن عشر من مايو، عند السادسة مساء، دوت مدفعية لا بروفنس، إيذاناً بانطلاق السيد دو بورمون مع قيادة الأركان، وبما أنه وزير الحرب في الوقت نفسه، فيحق له بخمس عشرة طلقة مدفعية، أي أكثر بأربع طلقات من الأميرال دوبريه، القائد الأعلى للقوات البحرية. انقطعت جميع سبل الاتصال بالبر واعتقدوا أنهم غادروا المرفأ. أطلق دوبريه نداء انتهى بكلمة «فلننطلق!» ولكن أيّ من السفن لم تتحرك. وحده الأسطول الصغير الذي

(1) سيدي فرج هو الشاطئ الذي نزلت فيه القوات الفرنسية، والذي يحاذي الجزائر وذلك بقصد المباغتة.

(2) تسمى بالفرنسية bateaux-boeufs وهي مراكب صغيرة للصيد.

ضمّ 187 ما بين سفينة شراعية وقوارب صيدٍ وزوارق كبيرة تحمل مؤونة عشرة أيامٍ للجيش، انطلق في الطليعة باتجاه المالمال<sup>(1)</sup>، ترافقه أعجوبة العصر، السفينة البخارية بنواعير تطحن الزبد. ست سفنٍ أخرى ذات مداخن أعلى من الساريات تنفث دخاناً أسود، على مقربة من الأسطول.

أملوا أن يتمكنوا من الانطلاق في اليوم التالي، فالرياح الجنوبية الغربية تبدو ملائمة لذلك. ولم يكلف الأميرال دوبريه نفسه الخروج من مقصورته الفخمة المشغولة بخشب الأكاجو والبليساندر والذهب والحرير. أما السيد دو بورمون فاكتفى بالوقوف صامتاً عند كوثل السفينة. كان يريد من الأميرال أن يصارحه بنواياه، لأنه ليس عليه هو - القائد الأعلى - أن يسأله. فقد سرت شائعة مفادها أن أسطولاً بريطانياً أبحر ليسدّ الطريق على الحملة. هذا ما قاله الأميرال، المنتشي فرحاً بإثارة قلق السيد دو بورمون. والأخبار التي تأتي من باريس مقلقة: فقد حُلّ مجلس النواب، وما داموا لم يبحروا بعد، هناك احتمال بإلغاء الحملة أو تأجيلها.

في حقيقة الأمر، كان الأميرال ينتظر الأسلاك الحديدية التي يعتبرها ضرورية لرسو السفن الكبيرة في سيدي فرج. والسفينة المحملة بهذه الأسلاك لم تصل بعد من ليفربول. وكان بإمكانه قول ذلك، لكنه آثر الصمت بسبب مزاجه السيء. وفي نهاية المطاف، هذا شأن بحري داخلي وليس ثمة ما يجبره على إفشاء شيءٍ لمديني. وأساساً، تشي البرودة التي تعامل بها البحارة مع جنود المشاة والعزلة التي فرضوها حولهم، بأن مزاج الأميرال هذا قد انسحب على كل البحرية. البحارة أنفسهم، بستراتهم الزرق القصيرة، وقبعات اللباد الدائرية الملمّعة والأحزمة الحمر،

(1) بالمالهي عاصمة جزر البليار التابعة لإسبانيا.

لم يخفوا اشمئزازهم من جنود المشاة الذين يملأون المكان بقيتهم، مع أن الرحلة لم تبدأ بعد، والطريقة التي يخبطون فيها بجزماتهم على ظهر المركب. باختصار، كان الطرفان متربصين ببعضهما بصمت.

ينبع تعجّل السيد دو بورمون من خوفه أن يُنتزع منه النصر، أو أن يأتي متأخراً جداً على الانتخابات، وأخذ يتخيل الملك وهو يراقب سماء سانت كلود<sup>(1)</sup>، متأملاً: «آه! ها هي الرياح المناسبة لأسطولي إلى الجزائر...». أما السيد دو بريه فكان أقل تعجلاً لتدمير مسيرته بخطوة سيئة سابقة لأوانها في سيدي فرج. فإن غامر في ظروف غير أكيدة إلى هذه الدرجة، قد تشتت العاصفة الأسطول، في حين أنه من الضروري الوصول إلى شواطئ أفريقيا بأفضل الشروط.

في الثاني والعشرين من مايو، ظهر الأميرال أخيراً. هرعوا للإعلام السيد دو بورمون الذي اعتمر قبعته ذات الكوزين وصعد لملاقاته. وحتى من دون إلقاء التحية عليه، لأنه كان يعتبر تصرف الأميرال وقحاً، بادره بنبرة هجومية:

– السيد الأميرال متى سننطلق؟

– عندما أرى ذلك مناسباً، أجب الأميرال وأدار ظهره بعد أن رمى السيد دو بورمون بنظرة غاضبة.

إذن، على ظهر لا بروفنس كما على ظهر لاديديون و لوتريدون حيث العميد البحري دو كامب دو روزاميل<sup>(2)</sup> القائد الثاني للحملة، وعلى ظهر برسلو وجميع السفن الأخرى، كان ضباط المشاة يتبادلون بكل خيلاء

(1) ويقصد بذلك القصر الملكي في سانت كلود في جبل مشرف على نهر السين.

(2) Claude du Campe de Rosamel (1775 - 1846) أميرال فرنسي شارك في الحملة على

الجزائر تحت إمرة الكونت دو بورمون.

وبأعلى أصواتهم التلميحات الأشد قسوة، متظاهرين بعدم رؤية البحارة، غير متوجهين لهم بالكلام، متصرفين على متن السفن كالمساجين الذين عدموا التواصل مع حراسهم.

بعد ثلاثة أيام من الطقس المناسب، تبدلت الرياح لتصبح شرقية، حاملة معها بعض البرودة، التي سرعان ما ازدادت، مما أوهم جنود المشاة بأنها رياح شمالية. في 23 مايو، شاركت قيادتا الجيش والبحرية في القداس الذي أقيم في القاعدة 36 على ظهر سفينة القيادة. هزت الرياح الشرقية بقوة السفن مما ولد نوعاً من الخمول لأن الدوار الذي سببته أجبر القوات البرية على الصمت. وأخيراً وصلت باخرة الأسلاك وجرى تفريغها بسرعة. بظهرٍ محدبٍ ووجه مكفهر ورأس حاسر، تفحص الأميرال ظهر السفينة الفارغ مستطلعاً بنظرات شرسة كل سفن القافلة التي رست في وجه الرياح، رافعة راياتها المرفرفة، الكثيفة إلى درجة يبدو معها أن حقلًا من الشوك العالي واليابس يملأ المرفأ.

عاصفة ليلية نجمت عن أحد التحولات الغامضة في الطقس، لتتحول الرياح في اليوم التالي من شرقية إلى جنوبية غربية، قوية باردة. وفجأة عند الرابعة عصراً، وبصوتٍ مدوٍ، أطلق الأميرال الأمر بالاستعداد. لم يصدّق ضباط القوات البرية آذانهم. رفعت المراسي وارتفعت أشرعة السفن التسع عشرة التي يتكوّن منها «أسطول الاشتباك»<sup>(1)</sup>، ما عدا سفينة القيادة، تلتها سفن جنود الاحتياط الخمس والثلاثين، واحدة بعد الأخرى، لتخرج جميعها بمهابة ملكية من الميناء. وأخذت فرق الشعبتين الثانية والثالثة

(1) لقد قسمت قافلة الحملة إلى عدة أساطيل وكل أسطول يضم سفنه ومراكبه، بين «أسطول الاشتباك» و«أسطول الإنزال»...

تهتف بصوت واحد: «الجزائر، الجزائر!». وانحدر الناس من التلال إلى الميناء لمشاهدة أجمل أسطول حربي في العصر، وانتعشت تولون كما بالأمس القريب عندما تفقد دوق أنغوليم<sup>(1)</sup>، ولي العهد، وباسم الملك، القافلة والجيش وسط دويّ الطلقات المدفعية التي حطّمت زجاج النوافذ لشدة قوتها، لأن ولي العهد يُكرّم بثلاث رشقات مدفعية، أولها تطلق دفعة واحدة من مدفعات جميع السفن. فارتجفت الزوجات والعشيقات اللواتي كالزهور زين المنازل والشرفات بشيابهن المتألقة.

في تلك العشية، في الموانئ وحتى على متن الزوارق المرافقة للقارب الفخم المزين بالمرايا والسجاجيد، والذي أخذت الطواقم البحرية الواقفة على حواجز السفن تحييه بالصفير والهتاف لسبع مرات «يعيش الملك»، نسي الجميع أن هناك آلة ضخمة تتجه إلى الحرب بكل ما يتضمنه ذلك من آلام وضحايا. هذه المرة، النساء الأقل سداجة من الرجال الذين خدعوا بوعده الحصول على كتافية أو قبعة مريّشة، كن يمسحن دموعهن الخفية. الأشرعة التي رفعت واحداً بعد الآخر، والتي نفخها الهواء دفعة واحدة غطت البحارة الواقفين على سطح السفن أو الجالسين على الحبال المحيطة بالسفن، وشيئاً فشيئاً تشكلت فوق البحر طبقة من الرايات البيض التي تخطت ببطء رأس السين<sup>(2)</sup> وابتعدت، تحت سماءٍ تعبرها مسرعة غيوم صغيرة نحو الجنوب.

(1) أنغوليم مدينة جنوب - غرب فرنسا، ودوق أنغوليم هو نفسه ولي العهد الفرنسي Louis de France وكان أيضاً ينادى بـ لويس التاسع عشر أما والده الملك فكان حينها شارل العاشر.

(2) Seyne بلدة جنوب فرنسا في منطقة جبال الألب، وهنا المقصود أن السفينة ابتعدت لحد أن راباتها باتت تبدو بارتفاع قمة السين وهي منطقة جبلية.



على الأرصفة وعند منعطفات الجادة المطلة على المرفأ، لَوَّح الناس للسنفن بمناديلهم وقبعاتهم. يقال إنه كان هناك ثماني عشرة فرقة موسيقية تعزف على متن القافلة كلها، وبالكاد يصل أحياناً الصوت الحاد للناي، منذ أن ألغت عودة الملكية الصنح وتقريباً كل الآلات النحاسية التي كانت سائدة في عهد الإمبراطورية.

ولم تقلع آخر السفن إلا في نهاية النهار، وهي السفينة الأميرالية المهيبه المحملة بالكثير من الأثقال. وعند المغيب كانت الأمواج تقذف بالقافلة إلى عمق البحر في حين فقد الميناء، الذي فرغ فجأة كغم سقطت جميع أسنانه، تلك الحركة الاحتفالية والحمى الحربية التي شغلته طوال شهر، كما فرغت الفنادق من بعد أن كانت مزدحمة بالبشر. ومن دون الباعة والفضوليين والنشالين والمندسين والصحافيين والعاهرات اللواتي رافقن الجيش واختلطن بالجنود، بدت المدينة فارغة وحزينة. من شرفته، نظر دوق أنغوليم حالماً إلى البحر الذي سيبتلعه الليل. قرأ، في ديوان بوسيه<sup>(1)</sup> ما يمكن أن يكون إشارة له في المناجاة الطويلة التي حيا فيها مطران مو<sup>(2)</sup> انتصار لويس الرابع عشر عندما اعتقدوا أنه تمكن من القضاء على العبودية على الساحل البربري<sup>(3)</sup>: «قلت في قلبك الهائم: أخضعت البحر لشرائعي وجعلت الأمم فريستي. وأنت أيتها الجزائر ستخضعين أو تسقطين أمام هذا

(1) Jacques-Bénigne Bossuet (1704 – 1727) هو واعظ ديني وكاتب فرنسي.

(2) Meaux بلدة فرنسية.

(3) الساحل البربري كان مصطلحاً مستخدماً من قبل الأوروبيين من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر للإشارة إلى المناطق الساحلية الوسطى والغربية من شمال أفريقيا والتي هي حالياً المغرب والجزائر وتونس وليبيا وقد اشتق الاسم من البربر أو الأمازيغ في شمالي أفريقيا. كما أنه اقترن لدى الأوروبيين بتجارة العبيد بين أوروبا وجنوبي الصحراء وأعمال القرصنة في البحر المتوسط وشمالي الأطلسي.

المتنصر، أيتها الجزائر المليئة برفات النصارى...». ولمع في خياله فجأة أن هذه القافلة المقلعة تحمل معها مصير الملكية المجهول.

فجراً، على بعد ستة فراسخ من الشاطئ الذي ما زال ظاهراً، كانت القافلة تمخر العباب في ثلاثة صفوف: أسطول الاشتباك في الوسط، يساراً السرب المؤلف من 347 مركباً تجارياً، ويميناً أسطولاً الإنزال والحرب والسفن البخارية، وبعيداً في الخلف على بعد ستة أميال على الأقل، سفينتا الأسلحة تفصل بينهما مسافة كبيرة. من خاصرته المتقدمة كثيراً والمائلة بقوة منذ أسبوع، دخل أسطول الإنزال الصغير في مياه الما الساكنة.

لقد تطلب الأمر الوقت الكثير، ولكن في النهاية مضى ثلاثون ألف جنديّ وأربعة آلاف جواد، في رحلتهم نحو الجزائر.

## 4

تمدد أنطوان بويشو. فهو لا يحب البحر، ولكنه سعد بالإقلاع لأن ذلك سيؤمّن له بعض الهدوء. فلا مزيد من التمارين الهجومية على شاطئ البروفنس<sup>(1)</sup>، مع الزوارق والمدفعية، كما فعلوا مرة، لإدهاش ولي العهد الذي بدا مذهولاً. لا مزيد من الانتظار تحت الضغط ولا مزيد من المزعجين، فالضباط لا ينزلون إلى غرف المدفعية، والرقيب يعاني أساساً من غثيان حاد أكسبه شفقتهم إلى درجة عرض المساعدة عليه.

«ما الذي يمكن أن يريحك، أيها الرقيب؟».

لا بل إنهم جهزوا له بجانب الباب، نوعاً من الركن المحاط

(1) La Provence هي منطقة في جنوب شرق فرنسا تطل على البحر الأبيض المتوسط تجاور إيطاليا.

بالأغطية.

«لحسن الحظ أيها الرقيب أننا لسنا ذاهبين إلى القاهرة...».

شعر الرقيب بالخزي وتمنى العودة إلى البر ولكن... بويشو تمكن من التأقلم، لا بل ساعده هواء البحر على استعادة شهيته وحماسه. ثم أن أمام السفينة وخلفها وبمحاذاتها وعلى امتداد البصر، هذا العدد الهائل من الأشرعة فوق صفحة الماء الشديدة الزرقة حتى لتبدو كحلية، وقد طُرزت بالزبد الملتصق بذرى الموج مولدة الشعور بأنها لم تبلغ يوماً هذه الدرجة من القوة.

النصر الذي لم يتوقفوا عن الكلام عنه في حملة مصر والإهرامات؟ ليس بويشو من يصدق كل هذه الترهات. فصحيح أن أوغاد الجيش الحمقى في معظمهم لا يفقهون شيئاً في السياسة، إنما ليس إلى درجة أن تهددهم الكلمات الجوفاء. فهم عادة لا ينجرفون وراء الثقة العمياء بنتائج الحملات العسكرية، بقدر ما يسمعون الكلام ويزنونه محاولين أن يفهموا إلى أين ستؤدي بهم الأمور. بالكاد مضى خمسة عشر عاماً على سقوط نابوليون. ولكن ماذا بقي من انتصارات إمبراطوريته التي لا تحصى لكترتها؟ يتساءل بويشو ورفيقه باسبوا أدولف. بارونات ودوقات، تجهيزات للمدنيين وأسواق لكبار مزودي المواد الغذائية والألبسة والأحذية، عمل كثير لصناع الأسلحة والمدافع، أما عامة الناس فلهم البؤس والموت، حتى دون أن تنقش أسماؤهم، وإن لوقت قصير، إلا في ذاكرة النساء. وماذا حققت الإمبراطورية؟ ذلك النصر البديع لبعض المارشالات من أولاد الشعب، وثلاثة من العقلاء والضباط الذين نعود لنلتقي بهم في المقاهي بستراتهم السوداء أو مشوهين يحملون قلادات الشرف الكبيرة. بالنسبة إلى

القرويين، فإن السواد الأعظم منهم، ممن شاركوا في الحروب، لم يعودوا إلى منازلهم، ليس لأنهم حَقَّقوا الثروات في الخارج، ولكن لأنهم تركوا عظامهم موزعة في شتى أرجاء البسيطة، بين سانت دومينغ<sup>(1)</sup> وروسيا، والدفعة الأخيرة منهم في واترلو حيث خان السيد دو بورمون بونابرت. ولكن معه أو من دونه، كان سينتهي الأمر بنابوليون بهزيمة مؤكدة. لا بل ربما كان بويشو ممتناً للسيد دو بورمون، الذي بفضلُه أنقذ الكثير من الجنود. آخرون حملوه هو الملامة على هزيمة نابوليون، ولذلك استقبلوه عند عودته استقبالاً بارداً.

«إنما لا»، قال باسبوا، «فهو لم يحسن تدبّر أمره. وإلا لاستقبل بجوقة هنري الرابع الموسيقية، ولدوّت على شرفه الطلقات المدفعية في كل مكان، ولكان اعتمر قبعة من الريش فوق سهوة حصان أبيض، في مشهد مهيب كان ليجعلكم جميعاً يتبولون في ملابسكم من فرط الانفعال».

المجد! يعلم باسبوا وبويشو أنه ليس أكثر من غربان تنقر الجثث. بويشو يعتبر المجد أمراً تافهاً بحق، ويرى أنه كان يجدر به الالتحاق بالشرطة، أما باسبوا فليس له هذا الطموح. إلا أن بويشو يدرك بصعوبة الانضمام إلى الشرطة، لدرجة أن كان بإمكانها لو شاءت أن توقف مشاركته في الحملة، لأنه كثيراً ما أتى ضباط الشرطة ليحققوا معه بخصوص اعتداءات وقعت على الطرقات أو في الحانات أو بشأن شحنات من الخشب اختفت وسرقت على يد مجهول. والآن لا شك أن الشرطة سعيدة لابتعاد بويشو عن مونتسيغور<sup>(2)</sup> وبات بإمكانها أن تغمض عينيها. إذن ومن أجل ترغيب

(1) Saint-Domingue هي المستعمرة الفرنسية الرئيسية من 1627 وحتى بداية 1804 عندما استقلت واتخذت اسمها الحالي هايتي.

(2) Montségur منطقة جبلية في جنوب غرب فرنسا.

الجنود يجب إيجاد شيء غير الرايات المظفرة أو الانتقام للإهانات التي لحقت بالشرف الوطني. تعويض نهاية الخدمة، نعم. الرغبة في رؤية البلاد، نعم، والفرحة بانتهاء الحملة العسكرية بما أننا نتكلم عن كنز من مائة أو مائتي مليون تحتويها صناديق داي الجزائر، وعن نصرٍ ستتكدس نتائجه في مخازن المصرف المركزي في فرنسا.

على رأس الأسطول، مع لو تراندون ولا بريسلو. بمحاذاتها من الطرفين، وخلف سفينة بخارية تضيء لها المسير وتتبع دخانها، كانت لا بروفنس تمايل بقوة أحياناً. مقدمات السفن تشق صفحة الماء وتندفع إلى الأعلى، والأشعة ترتفع وتغطي السماء، تنتفخ بالهواء وتحتشد على عوارض الصواري التي تحدث صريراً دون أن تزعج النوارس. منذ الانطلاق من تولون، أسراب كبيرة من النوارس تلحق بالقافلة، تحيط بها من كل الجهات وبالكاد تصفق بأجنحتها، وكأن شق الماء<sup>(1)</sup> يحملها، محمية بهياكل السفن تهزر وتتدافع وترتفع بجهد عندما تصبح بمستوى سطح البحر، وتغطس أحياناً ثم تعاود الارتفاع وكأنها سحبت مرة أخرى إلى السماء. هل حطت ليلاً على حبال السواري مع البدر الذي يلوح على الرغم من أنه ما زال في يومه الثالث، أم أنها عادت لتنام على الشاطئ؟ على أية حال ما زالت في الأفق، كل سرّبٍ منها خلف سفينته المعتادة يحيك الهواء وينقر الزبد، تتباعد وتعود، تسرع ثم وفي انزلاقٍ تقف دون حراك ما بين السفن بعيون فضولية ومناقير رشيقة.

حاول بويشو إثارة اهتمام الرقيب بالنوارس، بيد أنه في حالته المزرية لم يكن مكترثاً بشيء. تساءل باسمبوا إن كانت النوارس قادرة على إتمام

(1) شق الماء ما يتشكل وراء السفينة.

الرحلة كلها معهم، فهو يعتقد أنها ستعود أدرجها مسرعة، إلا إذا كانت هي الأخرى أزمعت تحرير العرب كما قال السيد دو بورمون: «... العرب يرون فينا محرريهم، وسيتوسلون العلاقة بنا، وسيحملون لنا محاصيلهم إلى معسكراتنا...».

«أنت محرر يا أنطوان»، قال له باسبوا، بلهجة غريبة. «ابن للثورة. اتمنى أن يسليك ذلك، أنت الذي لا تفكر إلا باقتناص كل شيء». منذ أربعين عاماً أحرق أبواؤه القصور والمكتبات والكنائس وقطعوا رأس الملك وسلموا السلطة للشعب. ولكن الحرب لم تتوقف. فمنذ أن أطاحت الإمبراطورية، ملك يخلف آخر. آل بويشو وآل باسبوا وجدوا أنفسهم مرة أخرى شغيلةً كما من قبل، ولم يتغير حال الأسياد سوى أنهم بدلوا ألقابهم.

«العالم شاخص نحوك»، قال باسبوا، «أيها الساخر».

هذا أيضاً ما أكده السيد دو بورمون في خطبته: «قضية فرنسا هي قضية الإنسانية! أثبتوا جدارتكم لهذه المهمة. ولا تسمحوا بأن يلطخ شيء زهو فتحكم. قاتلوا بشراسة وكونوا عادلين وإنسانيين بعد إحراز النصر...». تقاطروا من كل حذبٍ وصوب للمشاركة في الأحداث الجسيمة المنتظرة. الرسامون الرسميون كانوا هنا مع ريشهم، كما أرسلت الجيوش الأجنبية مندوبين عنها: «اثنان من بافاريا<sup>(1)</sup> واثنان من روسيا أحدهما الكونت فيلوسوفوف، وهو جنرالٌ وضابط مساعد للدوق الأكبر. ونمساويان بينهما أمير تشوارتزميرغ، وإسبان وحتى إنكليزي متحدر من أميرال قاد

(1) بافاريا هي إحدى الولايات الاتحادية الست عشرة المكونة للأراضي الألمانية وعاصمتها ميونيخ.

البحرية تحت إمرة الملكة أليزابيت، مما يوحي بأن الأسطول البريطاني لن يقطع الطريق على الحملة. وقد ارتبط السيد دو بورمون بشكلٍ ما بنقيب الأسطول مانسيل الذي كان قد قصف الجزائر مع اللورد إكسموث، لا بل استضافه في منزله وإلى مائدته في تولون، ولكن عندما تعلق الأمر بصعوده السفينة، تظاهرت البحرية بعدم امتلاكها أوامر بإشراكه حتى اضطر السيد دو بورمون إلى إرسال ضابطه المساعد لاصطحابه إلى لا ديدون والتي يقودها أكثر الرجال لطفاً وتحضراً: السيد دو فيلونيف. هنا أخيراً عومل باحترام حيث يمكنه التحرك على سجيته وحيثما يرغب، هو ذو الثياب السود الرثة والوجه الذي أنهكته التقلصات اللاإرادية والقبعة القذرة والياقة الممزقة والمنظر البحري والسترة الحريرية المثقبة بحروق السجائر.

- «لولا المال»، أضاف باسبوا، «يبدو أننا ما كنا لنكون هنا، وما كنت لأنظر إلى أغنام البحر<sup>(1)</sup> في حين أن أغنامي بانتظاري.
- لماذا؟ سأله بويشو.
- يقال إن قضية الجزائر هي قضية مالية، سيعمل سدّج من أمثالنا على حلها. أو تعلم فقط ما هي عملتهم؟
- الدرهم، أجابه بويشو.
- أيها الأحمق! إنها جبال من الذهب لا يعرفون أين يضعونها. هذا ما جئنا لسرقته لجلالته، تابع باسبوا بصوتٍ خفيضٍ. كن أكيداً، أيها المغفل أنك لن تحصل على قرشٍ منها، ولا أنا.
- أوما بويشو بحركة تنبّه عن السأم، فهو معتاد على الفقر أساساً ولا

(1) يقصد هنا النوارس البيضاء التي تشبه الاغنام بلون صوفها، وتسمى أحياناً بأغنام البحر.

يسرق إلا من أجل المتعة. لذا فهو لم يكن ينتظر المال أساساً من مشاركته في هذه الحملة، أما الجزائر فمسألة أخرى. استدار وجعل يتأمل البحر، شاخصاً نحو الجنوب، حيث احتشدت الغيوم فوق أحد الشواطئ.



## العبور

## 1

ظهر 26 مايو، تركت لا بروفنس، بأشرعتها المتشابكة، الأسطول يتخطاها، ثم توقفت مطلقاً واحداً وعشرين طلقة مدفعية صمّت الآذان، تحية إلى فرقاطة تركية. دنت السفينة البخارية. ومن زورق رسا بمحاذاة لا بروفنس شوهد شيخٌ معتم يتسلق السلم المتحرك، يساعده بحارة وضباط. كان يرتدي معطفاً قصيراً من الفرو ويعتمر حذاء طويلاً من جلد الماعز المدبوغ، وقد حسبوه للحظة أنه داي الجزائر. دام لقائه بالقائد الأعلى والأميرال نصف ساعة، ارتشف خلالها القهوة التي قدمت له وهو ينظر بقلق من شبابيك السفينة كأنه يخشى أن تغادر الفرقاطة من دونه. رحل كما وصل على وقع موسيقى الفوج في السفينة. ثم أبحرت ثانية لا بروفنس. إنه أميرال تركي، باشا بذيلين<sup>(1)</sup>، مبعوث من سلطان القسطنطينية. أوقفه أسطول الحصار وهو يتحضر للدخول إلى الجزائر لحثّ الداي على التصدي للفرنسيين. لماذا منعه من إكمال مهمته؟ لا بد إذن من أنه عندما تبدأ الحملة فستكون حول كل شيء وضدّ كل شيء. ولكن لماذا أرسلوه باتجاه تولون؟

أمسى الرقيب الآن في وضع أفضل. فقد أمدّت الحمية جسده بالسوائل. طالب بالطعام ونهض متمسكاً بالدرابزين مشتماً هواء البحر. وبعد غداء قيادة الأركان، سعدت الفرقة الموسيقية إلى كوثل السفينة

(1) باشا بذيلين أو ثلاثة هو لقب شرفي لرجال نافذين حتى من غير الحكام، والتسمية تعود إلى أن الباشوات يمشون وتتقدمهم رايات ترسم عليها ذيول، وحسب عدد الذيول تتحدد أهمية الشخصية.

وعزفت لحن دام بلانش<sup>(1)</sup> وغيوم تل<sup>(2)</sup>. وعند المغيب عندما جاء القسيس، ليؤدي الصلوات التي استمع إليها الضباط حاسري الرؤوس، كانت لا بروفنس قد تمكنت تقريباً من اللحاق بأسطول المعركة بعد توقفها للقاء الأميرال التركي. وفجأة تنبهوا لاختفاء جميع أسراب النوارس. وغابت الشمس دون أن تبقي خلفها أي أثر، أما الهلال الذي كان قد علا، فخرج من إطاره الذهبي وتحول إلى مخملي أسود ثم سقط بدوره في البحر. وكانت ليلة هادئة. أضاءت السفن مشاعلها وتلألأت النجوم. في مقدم المركب الخلفي، حيث جلس الضباط يدخنون السيكار، القردة التي حملها البحارة من غزواتهم السريعة على الشواطئ البربرية، تهرّج على الحبال وقد ربطت بسلاسل طويلة، بينما يروي بعض المازحين دعاباتهم الخليعة. ويرافق ذلك كله صرير العوارض ودمدمة البحر المسحوق تحت ثقل السفن. باسبوا يستنشق طويلاً غليونه الفوّاح، ويحلم.

عند الرابعة فجراً، عندما قرع جرس النوبة الصباحية، كانت الرؤية قد انقضت. وضبوا الأغطية، وكان باسبوا وبويشو قد آثرا النوم في إحدى الزوايا على ظهر المركب، متخلين عن الأراجيح الشبكية. وقد غدت السماء الخالية من الغيوم أكثر دفئاً، وغطت القافلة سطح الماء وتقدمت سفنها متجاوزة. شارف النهار على الانتهاء. إحدى السفن البخارية بعثت بإشارات عن حصول أعطالٍ يتعذر إصلاحها، فأمر الأميرال بتركها في

(1) La Dame blanche أوبرا كوميدية وضعت في العام 1825.

(2) Guillaume Tell أو بالألمانية ويليام تل هي أوبرا لروسيني ألفها في العام 1829، تدوم لخمس ساعات في نسختها الأصلية. وهي تحكي القصة الشهيرة لويليام تل الذي وحد السويسريين ضد النمساويين، وثمة وصلة إضافية تحكي عن حب السويسري أرنولد للنمساوية ماتيلد.

تولون. بدأ المبحرون يسأمون وأصابهم الشلل. وعلى سطح الماء تبع قطع من الدلافين الأسطول ثم غطس في الماء. وكان مرافقو الأميرال التركي قد نقلوا خبراً مفاده أن سفينتين من الأسطول الذي يحاصر مدينة الجزائر لو سيلين ولا فاتور قد غرقتا بالقرب من دلس<sup>(1)</sup> وأقدم رجال القبائل على قتل أفراد طواقمهما معلقين رؤوسهم المقطوعة على أحد مداخل المدينة. لمرات عدة تراءى لهم جبل على الشواطئ الجنوبية، فحسبوا الجزائر. بيد أنهم كانوا مخطئين، إذ ما زالوا في عرض البحر وما اقتربوا منه ليس سوى جزر البليار<sup>(2)</sup>.

وعلى حين بغتة، في الظلام، انخفضت درجات الحرارة وانسد الأفق وتحولت الرياح إلى شمالية، فعلا الموج. أفاق السيد دو بورمون مجفلاً وقد ظن للحظة أن السفينة ارتطمت بنتوء جبلي. لكن ما طمأنه هو سكون طاقم السفينة. لم يكن سوى ارتطام جسم السفينة بموجة عارمة وإنما مروعة لدرجة أنها وبعد أن غاصت في الأعماق عادت لا بروفنس لترتفع إلى الذرى وكأنها علقت بالنجوم ثم سقطت ثانية في حفر لا تنتهي وسحقت أجساد المبحرين في مضاجعهم لحد أنهم تعجبوا لعدم تحطم هيكل السفينة.

من خلال التعليمات التي سمعها، والريح التي تلطم القمر التي يشغلها في الجزء الخلفي من ميسرة السفينة، تلك القمر الضيقة جداً لحد

(1) دلس مدينة جزائرية على ساحل البحر المتوسط. بين بجاية ومدينة الجزائر.

(2) Baléares جزر البليار (وكانت تعرف أيام الحكم العربي للأندلس باسم الجزائر الشرقية) هي جزر تقع في جنوب شرقي إسبانيا في البحر الأبيض المتوسط. أكبر جزيرة اسمها ميورقة (Majorque) وفي جنوبها الغربي تقع العاصمة مدينة ميورقة Palma de Majorque وقد يشار إليها اختصاراً بـ «بالما».

أنها لا تتسع لمنضدة إضافية، أدرك السيد دو بورمون أن عاصفة انقضت على السفينة وخضتها. من الطرف الآخر من السفينة، كانوا يتكلمون ويتحركون، بيد أن السيد دو بورمون قرر ألا ينادي ابنه الذي يشغل منصب ضابطه المساعد. فعلى القائد الأعلى أن يكون مثلاً للهدوء، ثم ما الذي سيعرفه أكثر مما عرفه قبلاً؟ سوف يأمر البارون دو بريه بتقليل الأشرطة وإكثار المساحات والمسافات بين سفن الأسطول ومراكبه. سيضيّعون يوماً إضافياً أو اثنين في مرحلة العبور، لاسيما إذا فكر السيد دو بريه بالاحتماء خلف الجزر. في الصباح، توجهوا بالفعل مسرعين نحو الغرب.

## 2

بالنسبة إلى السيد دو بورمون، يبدو تأقف البحرية من الانطلاق في الحملة غريباً. فقد عانوا في المجالس حتى يجدوا رجلاً يرغب في قيادة القافلة. ولم يبد جميع الأميرالات سوى التحفظ والحذر، ولولا حماسة القائدين الشابين دو بيتي - ثوار وغواي دو تاراديل، اللذين كلفهما وزير البحرية بوضع الخطط، لما وجدوا أحداً يوافق على المجازفة. عندما طلبت منه الإجابة بالقبول أو الرفض، على اقتراح قيادة الأسطول، لم يجب السيد دو بريه بـ «لا»، إلا أنه غلّف الـ «نعم» بالكثير من الشروط حتى ليبدو وكأنه وضعها قصداً كي تُرفض. إذ كانت هناك خشية، بعد حملة شارل الخامس<sup>(1)</sup>، ألا تتمكن أي بحرية من إنزال أي جيش على الشواطئ

(1) هي الحملة التي شنّها شارل الخامس ضد المسلمين بعد حملة فاشلة قبلها العام 1537، لاستعادة المصداقية وانتقاماً لتحالف عدوه الأبدي ملك فرنسا فرانسوا الأول مع السلطان العثماني. وكانت الجزائر هي الهدف هذه المرة وهي القاعدة اللوجستية لأمير البحر التركي المعروف برباروسا (والذي كان قد نجح من حملة نجح فيها الملك =

البربرية، وقيل إن إخفاق الأميرال الكبير دوريا، أحد أشهر الأميرالات على الإطلاق، ما زال غصة في حلق كل القيادات البحرية. على الرغم من استعدادهم لجمع السفن وتحميلها بشتى الحمولات وبالمدفيعات وبأضخم المعدات، لقصف الجزائر أو محاصرتها، غير أنهم رفضوا أن ينزلوا سوى في ميناء.

أمن أجل أن يفهمهم أنه قادر على الأقل أن يقلد الإسبان، أبدى السيد دو بورمون في البداية استعداده للهجوم على وهران أكثر مما على مدينة الجزائر. على الرغم من صغر سنه، كان الملازم أول البحري بيتي - ثوار واسع الخبرة: فقد أشرف على صيد المرجان وزار خليجي سيدي فرج ومدينة الجزائر وشارك منذ عامين في الحصار، وهو من دفع باتجاه القرار. فحسب ما يقول فإن الأميرال الكبير دوريا اقترف خطأ باستخدام قافلة تجارية لإنزال جيش شارل الخامس. فبرأيه يجب شحن الفرق، نصف فوج على كل مركب في قطع حربية قادرة وحدها على مقاومة الطقس السيء والبقاء معاً. وقد اتبعوا نصيحته هذه. وبذلك يمكن لاثنتي عشرة سفينة أن ترمي على الشاطئ اثني عشر ألف مقاتل وهو ما لا يمكن لأسطول تجاري القيام به. أسطول آخر سيتولى إبطال الدفاعات الجزائرية تحت نيران مدافعه وحرقاته<sup>(1)</sup>. أما فيما يخص وهران، فقد كان يعتقد، وهو ما وافقه عليه السيد دو بورمون لاحقاً عندما فهم أن البحرية ستكون مجبرة على اتباع

= باحتلال تونس العام (1535) والتي كانت منطلق جميع غارات السفن على موانئ إسبانيا. جمع شارل الخامس قوة غزو هائلة، عهد بقيادتها إلى أميرالين قوين أحدهما أندريا دوريا. رغم هذا منيت الحملة التي انطلقت في أكتوبر سنة 1541 بالفشل التام، لأن الظروف غير المواتية للإبحار دمرت 150 سفينة محملة بالأسلحة والقوات والامدادات.

(1) الحرقاة هي سفينة كانت تستعمل لإحراق سفن العدو.

هذه النصيحة، أن سقوط هذه المدينة لن يؤثر البتة على داي الجزائر والرأي العام الفرنسي، وإذا تم إنزال مائة ألف جندي في وهران، فلن يصل منهم خمسة آلاف إلى مدينة الجزائر. كما أن الجميع يؤكد أنهم سيجدون طقساً مناسباً في سيدي فرج: فالترية الرملية هناك تعني أن عبورها سيكون سهلاً ولن تنقصها الآبار. قائد سلاح الهندسة يؤكد أن الطريق من سيدي فرج إلى الجزائر تخلو من العوائق التي يصعب تخطيها: إخفاق شارل الخامس يعود أيضاً إلى الطقس في ذلك الفصل من العام الذي جرى خلاله الهجوم وإلى بقاء الإنزال، وأيضاً - مثلما حدث مع إنزال الأميرال أوربي عام 1775 - إلى عدم الاهتمام بإقامة رأس جسر قوي<sup>(1)</sup> قبل الوصول إلى حصن الإمبراطور.

تم تذليل جميع العقبات. وعندما ردّوا على بيتي - ثوار أنهم لا يملكون ما يكفي من السفن الحربية، فقد استبدلها بأكبر عدد ممكن من الفرقاطات. وعندما فكروا بإخافة الوزير بالقول إن شحن علف الماشية لأربعة آلاف حصانٍ يتطلب وحده 144 سفينة كل واحدة منها قادرة على حمل مائتي طن، كان جوابه إن حملة الجزائر ستكون أهم عملية في العصر الحديث، وبأنه كان ليفضل شخصياً احتلال إنكلترا، ولكن بما أن الملك راغب في الذهاب إلى الجزائر، فلا بأس إذن. وعندما صرح في النهاية الأميرال روسان، قائد الأركان البحري، بأنه لن يقبل أي ضابط قيادة القافلة أجاب الوزير: «أنا متحمس لك، وها هو ترشيحك حاضر في جيبي». وأضاف أنه سيختار عند الضرورة واحداً من الضباط الأقل رتبة، ولكن على الحملة

(1) رأس جسر بالمعنى الحربي هو احتلال نقطة عسكرية مشرفة في منطقة يسيطر عليها العدو.

أن تتم، وهذا ما أضحك في البداية الأميرال، ثم أحزنه. أسيكونون وقحين إلى درجة تسليم القيادة لمغامرٍ شاب مثل بيتي - ثوار هذا؟ وعلى الرغم من ذلك فإن كان هذا المغرور قد حصل وبطريقة فضائحية على الترقية لعميد بحري، فمن سيرفض إطاعته؟ أما كانوا ليجدوا عشرة نقباء متحمسين بما فيه الكفاية لهذا المنصب؟ ورغم خشيته من الانتقادات، فإن البارون دوبريه، وهو ضابط مقاطعة بريست البحرية، هو الآخر أغراه المنصب، فلم يرفض. واليوم، يأسف السيد دو بورمون على موافقته لأن البارون دوبريه، وعلى الرغم من جدارته وقدرته الكبيرة على القيادة، إلا أنه شخص فظ متفاخر. ويتذكر السيد دو بورمون أنه عشية انطلاقه إلى تولون، كانت لدى البارون دوبريه الجرأة للقول أمام الملك: «يجب أن أسجل أنني لا أضمن النجاح ولا أريد أن أعتبر كمن نصح بمغامرة غير مضمونة لهذه الدرجة»، وهو ما رد عليه ولي العهد ساخراً بأنه سيقم له كل يوم قداساً على شرفه.

م يشتكي الأميرال؟ فقد طلب جمع قافلة من أكثر من ستين سفينة حربية وأربعمائة سفينة شحن وعدد كبير من المراكب الصغيرة للإنزال. فهو الذي فرض خمسمائة قطعة، جاءه أكثر من ستمائة وأضيفت إليها محض المحاباة، سبع سفن بخارية لضبط التواصل. ورغم تبرمه، لم يكن في مقدوره إلا الرضوخ.

يعرف السيد دو بورمون جيداً ما الذي أعاظ البارون دوبريه منه، وهو تأنيبه بحضور الملك، يوم الاجتماع الكبير عندما قال السيد دو بورمون عنه بصوته الهادئ شبه المحايد: «يحزنه، من أجل الكرامة الوطنية، أن يرى في العام 1830 البحرية الفرنسية تراجع أمام مغامرة تجراً عليها

الإسبان في 1541. فكيف حصل أن أنجح دوريا في بضع ساعات إنزالاً يطلب البارون دوبريه أسابيع لتنفيذه؟». وحث الملك على البحث في وثائق أسكوريال<sup>(1)</sup>، من خلال سفيره في مدريد، عن ملفات الحملات العسكرية الإسبانية. فهو يرى أن إخفاق شارل الخامس نابع من أن الجزائر كانت تنقصهم النباهة والحيوية، لا بسبب مخاطر البحر. وهذا ما لم يسامحه عليه البارون دوبريه.

### 3

دفع ارتفاع الموج بالسيد دو بورمون إلى التساؤل إن لم يكن مخطئاً باعتباره أن البارون دوبريه يضخم المصاعب. في الباليار، اعتقدوا أنهم دخلوا في مياه أكثر هدوءاً. ولكن ربما لم يكن البارون مخطئاً عندما أكد أن رياح يونيو ستكون غير مستقرة وستشدد حتى تجعل الإنزال مستحيلاً. يتذكر السيد دو بورمون جملة من تقرير للبحرية: «حتى في أجمل أيام الصيف، فإن الموج يتكسر عالياً على شواطئ أفريقيا وصخورها». متى إذن تريد البحرية أن يكون موعد الإنزال في الجزائر؟ فمنذ عهدهم بالبحر، ما هي الحقائق التي استنتجوها؟ يحاولون دائماً أن يوحوا بقيامهم بأعمال خطيرة، من خلال لغتهم ومصطلحاتهم وأشرعتهم الأمامية ومكبرات الصوت والأوتاد وصواري المقدمة وكل الأفعال التي يستخدمونها من قبيل «حوّل» و«سجّل» و«أسند» والتي يغلفون بها أكثر الأفعال بساطة. على الشواطئ البربرية كانت الرياح قوية لدرجة أن عارضة

(1) Eскурrial هي بلدة إسبانية، والوثائق التي يتحدث عنها هنا الكاتب على الأرجح هي وثائق حملة شارل الخامس (ملك إسبانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة) على الجزائر.



صارية اصطدمت بزورق موصول بسفينة، هل أن سفنهم أقل مقاومة من جنود القوات البرية الذين يتقبلون تقلبات الطقس بكل سرور حتى إنهم يستغلون أحياناً العواصف والرعْد للانقضاض على عدوهم؟ مع الدقة الشديدة التي يُعدّ فيها للمعركة، وهي حالة هذه المعركة تماماً، تأتي دائماً اللحظة التي يغامر بها جنرال ما بنصره. وهذا ما لم يرفض يوماً السيد دو بورمون فعله. وإن حدث وتردد، فذلك ليس إلا لاعتقاده أن الخسارة قد تودي بحياة الكثير من الجنود.

فهم يتهمونه بأنه أحد رجال الحاشية الملكية كون الفضل في تقلّده منصب الوزير يعود لعلاقته بالبوربون<sup>(1)</sup>. لأيّ سبب كانوا ليفرضوا عليه الوفاء ل نابوليون في حين بدا واضحاً أن الإمبراطور خاسر وأن بقاءه لن يثمر إلا المآسي للأمة؟ وقد أخذت عليه المعارضة أنه أزاح الجنرالات الآخرين من القيادة العامة ليلبي هو دعوة ولي العهد. منذ متى على الجنرالات أن يثبّوا حيازتهم لكل الفضائل؟ ومن هو الساذج لهذه الدرجة لينتظر من جنرال أن يهتم بمنافسيه؟ ففي رتبهم القيادية، لا تعدو كلمات من قبيل الأخوة والصدّاقة أن تكون كلمات لا أكثر. بالطبع، فإن السيد دو بورمون وكونه وزيراً للحرب، استخدم المارشال مارمونتو والفريق اللعوب لوفردو لتنظيم الحملة على الجزائر ليعتقد كل منهما أنه سيتولى القيادة. مارمونت الذي

(1) آل بوربون، عائلة ملكية أوروبية مهمة، وهي فرع من سلالة الكابيتيون. ملكت عائلة بوربون أولاً مملكة نافارا وفرنسا في القرن السادس عشر. بحلول القرن الثامن عشر، حكم أعضاء من سلالة بوربون أيضاً عروشاً في أسبانيا و نابولي وصقلية وبارما. وحالياً هناك ملوك في إسبانيا والسويد من سلالة بوربون. وفي فرنسا حكم ملوك البوربون من عام 1589 حتى 1792 عندما أُطيح بالنظام الملكي أثناء الثورة الفرنسية. ثم استعادوا الحكم لمدة قصيرة في عام 1814 وبصفة حاسمة في عام 1815 بعد سقوط الإمبراطورية الفرنسية الأولى (نابوليون الأول)، ثم أُطيح حكم العائلة مرة أخرى في ثورة يوليو 1830.

هو أساساً مارشال فرنسا ودوق معين من قبل الإمبراطور، يدين للملك باستعادته الحظوة. فبصرف النظر عن كل ما يمكن أن يقدم له من وعود، فإن السيد دو بورمون لم يوح له بأنه سيصبح يوماً قائداً عاماً. كما أنه ليس خطأ أحد إن وجد مارمونت نفسه في وضع مالي مربك وبأنه يعتمد على تعويضات الحرب على الجزائر كي يحسن أوضاعه. بالنسبة إلى لوفردو، فإن كانت الحماسة التي استبدت به حملته على أن يأمل بالمقام الأعلى، فليس ثمة من يلقي باللائمة عليه سوى مشكلاته النفسية. لقد حصل على قيادة الشعبة الثانية، وهو منصب يناسب جدارته.

في هذه المسألة برمتها، ييدي الناقمون حقداً بقدر ما يبدون جهلاً بالحقائق. فالحقيقة أن الضباط العامون يفترسون بعضهم بعض كالذئاب ولا ينتظرون من أقرانهم سوى الإيقاع بهم، تلك الحظوة لا تذهب سوى لهؤلاء الذين يخدمون طموحات الأقوى منهم عليهم يحلون مكانهم. هذا هو قانون قيادة الأركان. فما إن يصل الضابط إلى قيادة الأركان، حتى تدعوه الحاجة إلى التحوط من كل شيء ولا سيما من أتباعه، بما أن الجميع يريد أن يكون أولاً، وبالتالي لا يمكن بلوغ أي هدف إلا بتدمير المنافسين. لا يخفي السيد دو بورمون نواياه. فهو يعرف بأي انتهاكات عليه أن يشترى نجاحه «هذا هو إذن الهدف الحقيقي للحرب»، كتبت صحيفة لو ناسيونال عندما أعلن عن تكليفه بالقيادة العامة للحملة: «الحصول على عصا مارشال وملجأ لإخفاء عارٍ كبير<sup>(1)</sup>». وإذ تذكر ذلك لم يبد منه سوى نفص كفيه، فرجال السياسة لا يجب أن يهابوا إلا الصحف ولا الإهانات. ما الذي سيبقى من كل ذلك؟ فالصحف تنتهي في سلة المهملات أو في

(1) ويقصد هنا عار تهربه من معركة واترلو مع نابليون بونابرت.

النهر، أما صدى خطاب ما في البرلمان فسرعان ما يتلاشى. يكفي أن يسدّ أذنيه وأنفه، وأن يتحمل الضربات ويهمل السخرية، ثم تنقلب الريح، وأولئك الذين يحسنون المقاومة ينجون ويصلون.

بما أن السيد دو بورمون كان بحاجة إلى النجاح، فقد ذهب إلى الحملة بكثير من الدقة التي لا تترك شيئاً للمصادفات. فهذا الكسول بات يستيقظ باكراً تحذوه الرغبة في العمل ناقلاً عدوى الحماسة لفريق عمله. أما المخاطر الوحيدة التي يعترف بها فهي تلك التي قد تأتي من العدو لا من نقص في الاستعداد، أو بسبب التسرع. سيد نفسه هو، ويستمدّ قوته الكبرى من ابتسامة تخفي تشكّكه. ويصفه السيد شاتوبريان بأن لديه النظرة الرقيقة لحنش، وبأنه أكثر خونة العالم جاذبية. ولكن ألم يتأرجح شاتوبريان نفسه، مثل الجميع، طوال عقدين من الزمن، ما بين بونايرت وآل بوربون. ماذا كان ليفعل مكان السيد دو بورمون؟ لدى العسكريين عادة فرص أقل للتعبير عن أنفسهم، ولا يحسنون فن التفاصيل الصغيرة المؤثرة، وعندما ينتقلون من ضفة إلى أخرى، لا يحملون معهم مثل الكتاب، هالة وجدانية. ومثل الجزالات والمارشالات، خضع السيد شاتوبريان لإغراء القنصل الأول والإمبراطور، واستبدل وضعه كرحال حر مقابل مسؤوليات وامتيازات ليعود في النهاية وباسم الوفاء إلى شغفه الأول أي الأدب. هو الذي يحتقر لدى الآخرين الانقلابات، هل يقاوم أكثر من غيره المظاهر والمنح؟ بالنسبة للسيد دو بورمون فهو يملك ميزة عبقرية الحوار ويمكن لكلماته أن تكون خادعة دائماً. هذه الروح الكبيرة التي لا تنتظر سوى الفرص لاقتناصها، تجد الصيغ الجميلة والإيقاعات الرنانة لغنائية بديعة. في باحات البرلمان التي كانت تضحج بالكثير من

الخطب المطبوعة، كانوا يتلهفون لسماعه. وعندما نُحْتَلّ الجزائر - لأن السيد دو بورمون لا يراوده أيّ شك في ذلك - ماذا سيقول السيد شاتوبريان؟ سيتغنى بنصر الجيش وبفضائل القائد الذي أشرك أبناء الأربعة في المغامرة. الخطر الحقيقي يتأتى من البارون دو بريه.

أجبر السيد دو بورمون نفسه، بعد أن هزّته العاصفة إلى درجة قرّر معها التزام مقصوره، على إحباط نوايا الأدميرال. لقد كان أمامهم سبعة وعشرون يوماً من الطقس الجميل المناسب للإنزال في الوقت الذي لا يدوم فيه الطقس الهادئ عادة على السواحل البربرية أكثر من ثلاثة أسابيع؟ ما كان قائد عام ليمنح أميراً سبعة أيام ولا حتى خمسة، وعلى الأدميرال أن يخضع. وحتى إن هناك بين القادة البحريين أنفسهم، ومنهم بيتي - ثوار، حليفه الوحيد الذي اتهمته البحرية بالخيانة، من يذكر إن اللورد كوشران، خلال خدمته في البحرية البرازيلية، أفلح في تنفيذ إنزال باثني عشر ألف رجل في غضون خمس ساعات، وإن الإسبان أيضاً، تحت أمره الفريق أوريللي والأدميرال دون بيدرو كاستيجون، كان لديهم أقل من ست ساعات لإنزال اثنين وعشرين ألف رجل ومدفعية ضخمة شرق الجزائر، في المكان نفسه الذي تمركز فيه شارل الخامس. إذا تجرأ الأدميرال دو بريه بالاختباء خلف ضرورات يسميها «تقنية»، فليس هذا إلا تعبيراً جديداً وظيفته الوحيدة إخفاء العجز. ما دامت الجزائر ليست بعد في مرمى نظر القافلة، فسيحتفظ السيد دو بورمون بصمته، ولكن بمجرد وصوله إلى سيدي فرج، لن يساوم على نجاح الحملة، وإن قاوم السيد دو بريه، فسيحطّمه، ولديه الوسائل لذلك.

استسلم السيد دو بورمون في النهاية واستدعى مساعديه الميدانيين،

بيد أنه أصّر على عدم إزعاج دو تريلان، الأكبر سنّاً بينهم، والذي يرأسهم. ثم وبعد رحيلهم تأكد من صلابة الكنبه والطاولة، وغرق في مضجعه بين الملاءات النظيفة. ثم استدار على جنبه اليمين، مديراً ظهره لكوة النافذة، ونام.

## 4

مساء 28 مايو، هدأت الرياح واستعاد جنود المشاة الذين أنهكهم حال الغثيان، الأمل مع فكرة اقتراب الوصول. عصراً، مروا بمينورك، وعند المغيب، كانت الريح الجنوبية الغربية ما زالت تهب من جبال ماجورك. ويمكن الأسطول المنتشر على مساحة واسعة من المقاومة، وبات في مقدور أسطول النقل الذي كان من المفترض أن يحتمي في خليج بالمأ أن يكمل مسيره. وأصدر الأميرال أوامر بإبقاء الأضواء مطفأة طوال الليل.

في 30 مايو، سادت حالة من الهياج بين الجنود، إذ سرت شائعة تقول إنه لم يبق أمامهم سوى عشرين فرسخاً للوصول إلى شواطئ أفريقيا. هروا إلى جسر السفينة لمشاهدة اليابسة من نقطة المراقبة. حسب الخرائط البحرية، وعلى هذه المسافة من المفترض أن تظهر جبال الأطلس الصغير<sup>(1)</sup> على ارتفاع نحو ألف وخمسمائة متر، وفي هذه الحالة لا بد من أن تكون هذه قمة موزايا التي تقوم في الجهة الشرقية منها القمة المسننة لبوزقرة<sup>(2)</sup> الأكثر انخفاضاً. أما جبل بوزريعة الذي يطل على الجزائر فلا يعلو أكثر من أربعمائة متر ولن يلوح في الأفق إلا بعد وقت طويل.

(1) تنتمي جبال الأطلس الصغير الواقعة بالمغرب إلى سلسلة جبال الأطلس حيث تشكل القسم الجنوبي منها. ترتفع أعلى قمة فيها 3300 عن سطح البحر وهي قمة جبل سيروا.

(2) بوزقرة هي دائرة في ولاية بومرداس الجزائرية.

أخرج بأسبوا غليونه من داخل معطفه، وحشاه باشمزاز ثم أشعله. وعلى الرغم من المجات الضعيفة المسببة للغثيان، فقد ثابر على استنشاقه. وقربه جلس بويشو متذمراً. طوال الرحلة التي شهدت في بعض محطاتها موجاً عالياً، لازم واحدهما الآخر، مثل حيوانين يتأرجحان تحت ثقل أحمالهما. كل صباح، ما إن يوضبا أرجوحتي النوم ويشربا العصير كسائر الجنود، حتى يشرعا بتنظيف جسر السفينة بالفرشاة، والتخلص من بقع الماء المالحه. ثم على البحارة تلميع قطع المدفعية وصقل النحاس. فما بدأ كأمر ممتع انقلب إلى نفور. صمت كتيب حلّ بالجيش الذي كان يجتر مرارة غريبة. وندم الكثيرون ممن جددوا عقودهم لتسرعهم. مساحات ربما لا يمكن قهرها وأمواج عالية تفصل الجزائر عن أمانهم التي من المفترض أن تكون يسيرة. عبّر الرقيب بنوبات من الحوزقة الطويلة الأشبه بالتذمر، فالتفت إليه بأسبوا بنظرة رقيقة وماكرة في الوقت عينه: الجددي المسنّ ما عاد قادراً على التحمل.

- سنصل أيها الرقيب، قال له بصوت خشن متهدّج. أتعلم في أي يوم

نحن؟

- لا.

- إنه أحد العنصرة<sup>(1)</sup>.

ذقن النقيب التي عمرها خمسة أيام تملأ وجنتيه، ويبدو شعر شاربيه متجمداً من تلوّثه بالملح. عيد العنصرة؟ لا يتذكر أساساً أنه احتفل قبلها بنزول الروح القدس على الرسل. اما بالنسبة لأيام الآحاد، فمنذ ثلاثة

(1) عيد العنصرة هو عيد مسيحي ويهودي، وفي المسيحية هو ذكرى مرور خمسين يوم على قيام السيد المسيح من الموت، وحلول الروح القدس على الرسل.

أشهر ما عادوا يعرفون شيئاً عن الآحاد، ما عدا من خلال خلال القداس الذي يقيمه كاهن الفوج بلحيته وحذائه محرّضاً على الحملة الصليبية تلك.

- هل نرى الأتراك؟

- ليس بعد، أيها الرقيب. ما زلنا في عرض البحر ولكننا نقرب. أحدهم ظن أنه رأى رأس بنقوت، ثم لمح جاسوساً إنكليزياً يركب زورقاً رفيعاً كشفرة.  
- أف، قال الرقيب.

قيل إن الذهب والإياب سيدومان أربعة أشهر فحسب، وربما أسبغ ذلك نسيباً السحر على الحملة بين صفوف الجيش. ولكن هل يمكن الإنزال في خضم هذه الرياح التي يمكن أن تتسبب بارتفاع الموج على الشواطئ؟ كما بويشو، فقد كان لدى الرقيب فكرة عن الجزائر تشبه صور جزر البحر الهادئ: بحر لازوردي ساكن، أشجار جوز هند مائلة على الشاطئ، سمرات جميلة متوجات بالزهور بوجوه عريضة وأنداء عارية. ولإضفاء الطابع المحلي، يضيف للصورة في الأفق، بالقرب من أحد المنارات، فارساً متدثراً حتى الرأس بيرنس أبيض، مسنداً البندقية بين قدميه. وهو الرقيب هيغون، المولود في روكيمون (دوبس<sup>(1)</sup>) يتخيل نفسه يصل بكل معداته ويضع حقيقته ويوزع البسكويت، يجلس على الشاطئ ناظراً إلى بندقيته تحت جانبيه، فيقدمون له القهوة وفق العادات.

الآن، يعتقد أن خيالاته لم تكن صحيحة. فالاستقبال قد يكون مثل

(1) Doubs هو إقليم فرنسي؛ يقع في منطقة فرانش كومته (Franche-Comté) إلى الشرق من فرنسا.

العبور، أقل شاعرية. والآن عليه أن يبدأ بأن يقدم للرجال المثل في المظهر وأن يخلق ذقنه. وقف الرقيب بصعوبة، خلع معطفه وفك حزامه وأدخل ذيل قميصه تحت بنطاله وطلب القليل من الماء ثم ذهب بخجل كي يغتسل. هواء بارد بعض الشيء يهب من الشرق، يتخبط بالأشعة، ويتدحرج على جسر السفينة قاذفاً أحياناً رذاذ الماء إلى ما فوق الجسر. هذان الحرارة والموج العالي اللذان تتقدم عبرهما السفن، لا يشيران إلى أفريقيا. عند أعلى مقدمة السفينة الأمامي كلاب تعوي. فقد حملوا معهم 400 كلب مهمتها التأكد من صحة مياه الآبار التي كانوا يتوجسون من أن يسممها العرب. بطرف عينه، كان الرقيب يراقب باسبوا وبويشو والآخريين الذين مازالوا في حالة خدر. كان بإمكانهم حملهم - وهو معهم - حيثما شاؤوا، فهم على نحو ما، فئة أسوأ من الكلاب في الجيش؛ الفئة المعذبة، الجنود البائسون، المشاة السيئو التغذية بروائحهم الكريهة، والذين تحملهم القافلة بأمعاء فارغة، إلى أين؟ ثم قال لنفسه إن أفكاراً من هذا النوع ليست جديدة بضابط مساعد فطردها.

## 5

أمسى الهواء أقوى وتحول إلى شرق جنوبي عندما أعطى الأميرال فجأة الأمر بتغيير الاتجاه حتى لا يكونوا قريين جداً من الشاطئ في الليل، وفي الوقت الذي أخذوا يتساءلون فيه عن معنى ذلك، في نهاية الأصيل، عندما أنزلت الأشعة الطويلة لإضعاف قدرة المدفعية التركية على التصويب، كان الأسطول يتقدم غرباً ثم إلى الجنوب الغربي، واتخذ وضعية القتال. وشاع كلام عن أن الإنزال سيحصل صباح الغد. وفي بعض السفن بدأ



توزيع المؤونة.

كانت ليلة هادئة. وفي باريس، وفي الحفل الراقص الذي أقامه دوق أنغوليم على شرف صهره ملك نابولي، كان شارل الخامس يراقب القمر يهبط فوق فوانيس باليه - رويال.

- يا لروعة القمر الذي سينير الطريق أمام سفني الذهبية إلى الجزائر...

- إنه ليل نابولي، أضاف دوق أورليان عندما ابتعد الملك.

- نعم مونسينيور، قال السيد دو سالفاندي، الذي فصل للتو من وظيفته كمستشار للدولة. وكما الحال في نابولي، فنحن نرقص فوق بركان.

جاء الفجر متجهماً. كان يمكن تخيل الصخور الداكنة لرأس كاكسين التي لا تبعد أكثر من خمسة فراسخ، بيد أن حاجزاً من الضباب أخفاها ولم يلمح في الأفق سوى كتلة من الغيوم المنخفضة التي لم تبددها الشمس ورياح شرقية عاصفة وكأنها احتشدت بكليتها على الشاطئ. وما عاد بالإمكان رؤية سفن النقل. وأخذت لا بروفنس تطلق من حين لآخر بضع طلقات مدفعية مسببة الاضطراب بين الجنود؛ هي في الحقيقة تحية سرية يتبادلها الأدميرال حسب الرمز المعتمد، مع سفن الحصار الراسية أمام مدينة الجزائر.

رأى الأدميرال أنه يستحسن، والقافلة محاطة بالسماء من كل الجهات مع موج عالٍ كهذا وعدم القدرة على تحديد مكان السفن، عدم القيام بالإنزال. فمنذ الساعات الأولى للصباح، ودون أخذ رأي السيد دو بورمون ولا حتى أن يعرض عليه رأيه أيضاً، أمر ثانية بتغيير المسار، لتقع

القافلة التي راحت تهتز بفعل الموج العالي في الفوضى وتستبد الكآبه بالجميع. حينئذ قرر السيد دو بورمون مواجهة البارون دوبريه لسؤاله عن نواياه، وعندما علم بنيته العودة إلى الما لجمع السفن المشتتة، اعترض قائلاً إن معنويات الجيش تفرض عليهم البقاء في مكانهم بانتظار الطقس المناسب، على المجازفة بالبقاء لأسابيع في جزر الباليار. على الرغم من عدم تيقنه من دعم ضابط البحرية المعاون وقيادات الأسطول، اكتفى الأدميرال بالرد بإملاء صغيرة من يده، وكأنه يطرد ذبابة عن قبعته الحريرية السوداء، وانسحب إلى صمته. وأجاب على كل إشارات السفن التي توصلت التواصل معه: «إلى الغد». ولمزيد من الراحة، التزم قمرته وما عاد يخرج إلى مآدب الطعام.

كان الجو العام في الأسطول شبيهاً بالعلاقات المتسمة بالرسمية والتهديب البارد بين القيادتين. فقد شعروا ربما من خلال ضربات المدفعية الأربعة التي يحق لوزير الحرب بها، بأن قرار السيد دو بورمون بقيادة لا بروفنس كان ضد إرادة الأدميرال، وباستثناء المعتمد العسكري المسؤول والتقيب المسؤول عن سفينة السيد تريلان، والمساعد الميداني الأول للسيد دو بورمون، لم يكن أحد على الطاولة يجرأ على فتح أحاديث خفيفة، شاعرين بأن فظاظة الأدميرال وصمت السيد دو بورمون والصمت المدعي التهديب لقائد أركانه، كل ذلك يدفعهم للانكفاء. هذه المرة، يدون وهم جالسون هنا بكل عتادهم، جاهزين لإطلاق النار على بعضهم بعض. وبما أن دوار البحر طاول أيضاً الموسيقين، الذين يجتمعون عادة في الغرفة المجاورة، فلم يعزفوا شيئاً يخفف من تكدر النفوس.

في الأول من يونيو، كانت الرياح عاتية، إلى درجة أنهم وجدوا

أنفسهم عند الظهر على مرأى صخرة كابريرا، على بعد ستة فراسخ من جنوب جزيرة ميورقة. وبدأت الحملة غير مجهزة جيداً. بعض الفرق الموجودة في عرض البحر منذ عشرين يوماً، تجد نفسها رهينة الرائحة النتنة لمستوعبات الحيوانات والنقص في الماء الذي اضطرهم إلى تخزين مياه الأمطار. قبل المساء، كانت القطع الخمس والثلاثون الخفيفة لأسطول التخزين والتي تحمل فرقتين من شعبة دو كار وسريتين من الهندسة، قد دخلت في مجال الميناء. بقية مراكب الأسطول كانت تطوف طوال الليل. هدأت الرياح وتحولت إلى هواء جنوبي قليل البرودة. جزء من الأسطول الذي كان مرثياً في اليوم السابق، اختفى صباحاً ليعاود الظهور مساءً، في حين كانت السفن تشق طريقها مرة باتجاه البحر ومرة باتجاه اليابسة على امتداد الشاطئ الجنوبي الغربي لميناء ميورقة وحتى جزيرة فورمينتيرا، وأحياناً كانت تمطر. تحت السماء المقللة، بدأ البحر شاحباً، وبدأ يشاع كلام عن أن الأميرال فقد قدرته على السيطرة على الأسطول في البحر.

وأخيراً، طقس جميل وبحر ناعم كالحرير. بدأ عزف الموسيقى لكن الضيق الذي لم يحاول أحد كعبته فرض نفسه على كل السفن. بالكاد نظروا إلى الجبال، وأسفل الهضاب، حيث برزت مدينة ميورقة بسقوفها القرميدية الحمر وطواحينها الهوائية وكاتدرائيتها العالية، وعلى شاطئها الصخري بعض مرافئ صيد وقرى. أصدر الأميرال أوامره بإنزال القوارب، وذلك بلا ريب بغية خداعهم أو إشغالهم.

وسرت شائعة أنه لن يكون هناك حملة، وأن الاستدارة أمام شواطئ الجزائر سببها اقتراحات حملها الأميرال التركي وأيضاً لأن الإنكليز يتحضرون لمعركة لمنع الفرنسيين من الإنزال، وأنهم هنا بانتظار أوامر من

باريس. قادة الشعب الذين ساءهم عدم وضعهم في أجواء ما يجري، لم يتمالكوا أنفسهم أكثر من الضباط الذين تحت أمرتهم. انتقدوا القيادة العامة والأميرال واتهموهم بالتفرد بقرار العمليات. وبالنسبة إلى الحكومة، لم يتمالك السيد لوفردو هو أيضاً نفسه: «إنه لأمر أخرق»، صرخ، وهو يصعد بغضبٍ جسر سفينة برسلو «إنهم يلعبون بنا! يحركوننا، ويشعلون حماستنا ضد هؤلاء البدو. يقربوننا منهم ثم يبعدوننا. ليس هناك من مفاوضات عندما يتم تحميل جيشٍ من أربعين ألف رجلٍ، فالأفضل أن يرسلوه إلى الموت من أن يماطلوا به بهذه الطريقة...». أما الجزرالات فقد خفتت حماستهم، وبدا الضباط العاديون في حال من الإحباط. فبعد أن كانوا جاهزين لتحدي الموت بكل شجاعة وعزم، بدا الواحد منهم خائباً كمن تخلفت عشيقته عن لقائه. ومن جهتهم، بدأ الإسبان يتخيلون ويتساءلون لماذا توقف الأسطول في الماء، وهل يخفي هذا التغيير نوايا الفرنسيين بالاستيلاء مثلاً على جزر البليار.

وهل قالوا أنهم سيذهبون ويعودون من الجزائر في غضون أربعة أشهر؟ ينهون المسألة برمتها في أربعة أشهر؟ هز باسبوا رأسه. «كيف؟»، سأل نفسه. ربما نسوا أن علينا احتلال الجزائر بينما يتسلى الأسطول في تضييع بعضه ثم في التجمع من جديد. ففي ظرف عشرة أيام أبحرنا ورأينا الجزائر وغيرها الاتجاه مائة مرة. إنه لأمر مثير للشفقة. وربما بعد أربعة أشهر نجد أنفسنا ما زلنا هنا نأكل البسكويت والكعك المملح، ثم نتقياً قبالة الجزر...». أن يكون دوبريه خائناً كما يرددون هنا همساً، فذلك لا يعني باسبوا أبداً الذي سرح فكره في مكانٍ آخر: كان الشتاء قاسياً، وتجذلت أشجار الزيتون في الريف، وعانوا هناك من نقص العلف فأطعموا

الحيوانات الحبوب المجروشة. وفي المرتفعات حيث ما زال العشب عالياً الآن، طبخوا أفخاذ الأغنام.

كانوا يمشون أوقاتهم في التجسس والجدال. وحدها شعبة دوق دو كار، المتوقفة في المرسى الطبيعي حيث تتوارى السفن من الريح، كانت تستقبل الزائرين وتريهم المدافع. قوارب تقترب من السفن محملة بالفواكه والكعك. وكل مساء، وعند العشاء، تُعزف الموسيقى فوق جسور السفن. فمنذ أن اطمأن الحاكم بخصوص نوايا البارون دوبريه والضباط يتنقلون بين الحفلات، وقد أقيمت حفلات عشاء ورقص عند ماركيزات لا رومانا وكل أرستقراطي الجزيرة. وشارك الضباط برقصات إسبانية مبهجة على إيقاع الغيتارات والصنوج، وترك بعض الملائمين أنفسهم يقعون في شباك عيون سود جميلة أو في تخاريم بعض الطرحات، منافسين قادتهم أحياناً في مغامرات لا تذهب بعيداً: فهنا، كما في كل إسبانيا، النساء يعرفن كيف يدافعن عن أنفسهن، ميرار نو توكار<sup>(1)</sup>، جيوش من الوصيفات والرهبان الكبوشيين واليسوعيين يسهرون في كل مكان على عفتهم.

على الرغم من هبوب عاصفة أخرى شتت القافلة في عرض البحر، وتقلب الطقس بين بارد وحار، إلا أن هواء أفريقيا هب عليهم حاملاً معه عبق أشجار النخيل والبرتقال المزروع على الطرقات والمثلجات التي تباع في الميناء. وعربات البريد المسروجة إلى البغال تشبه عربات الحفلات في القرن الخامس عشر.

إنه لأمر غريب، فعدم الحركة ولدت شعوراً رقيقاً في العلاقات بين جنود البحرية المتأثرين أكثر من القوات البرية بإدارة السيد دوبريه، والذين

(1) Mirar no toccar وهو تعبير إسباني تعني ترجمته الحرفية حراس عدم اللمس.

بدوا مهانين من جبن قائدهم، لأنهم علموا للتو أن أسطول الإنزال الصغير الذي تاه عن القافلة، وصل إلى شواطئ سيدي فرج منذ أربع وعشرين ساعة. في الحقيقة كانت فوضى كاملة. انتقد قادة المدفعية والهندسة، الأدميرال، في رسائلهم الموجهة إلى دوق أنغوليم والمراقبين والتي من المفترض أن يحملها مركب شراعي إلى تولون. وحده السيد دو بورمون غلف رسالته بكلمات رسمية: «هل يجب ربما أن نأسف أن الأسطول البحري، وبدل أن يقوم بالترجع...». سادت الفوضى، فبالرغم من منعهم من النزول إلى اليابسة، اضطر المراقبون في الليل إلى للممة جنود من الشعبة الثالثة من الخمارات وقد ثملوا من النبيذ الأحمر والأنيسون، بعد أن نجحوا بمغادرة السفينة.

والآن، وعندما بات بمقدورهم التعبير عن غضبهم، تلاشى لديهم هذا الغضب. وكل يوم، كان البارون دوبريه يجمع قادة أسطوله، للتأكد من وضع التموين. ومن ميورقة حمل صهاريج ماء واشترى أيضاً علفاً للخمسمائة ثور المخصصين للذبح في سيدي فرج لتأمين اللحم الطازج. بأية حال سيصل الجيش إلى أفريقيا، هذا إن وصل أساساً؟ أما بويشو فاكتفى بالجلوس قبالة الجزر الممتددة فوق مرآة سعادة ساكنة، يحلم.

«لا أمل»، قال، «إن أنزلت سفينة القيادة المرساة في ميورقة بدلاً من أن تمضي مباشرة ودون توقف إلى سيدي فرج، فسأفتر ولن يتمكن رجال الشرطة من العثور علي».

هنا، ربما كان ليوافق على البقاء والعيش مرتضياً بالقليل في حين يربي باسبوا الخرفان.

«يا لك من مسكين»، قال له باسبوا، «أين كنت لتذهب؟ فالإسبان

یغارون مثل النمر علی نساتهم وعلی أهلهم. لكانوا جرّوك جرّاً وصلبوك».

وصل زورق من تولون وأعلم الأميرال بأنه یحمل إلیه رسائل عاجلة. وبما أن السید دو بریه فكر بأنه لا یمكن لهذه الرسائل أن تحمل له سوى الإزعاج، فقد طلب منهم أن یوافوه إلی مكتبه القائم عند ذیل السفینة دون مزید من الإزعاج، وعندما أبلغه الأسطول الصغیر لقوارب الصید الذی عاد والتحق بالقافلة أخيراً، بأنه واجه الكثير من الموج المرتفع علی الشواطئ الجزائریة أجابہ: «لا یهمنی». بعد أن التأم شملها أخيراً، قررت القافلة أن تنطلق من جدید ولكن حالة البحر منعتها. ونقل عن أسطول الحصار المتمركز قبالة سواحل الجزائر منذ ثلاث سنوات، أنه شاهد معسکرات مؤلفة من اثنتی عشر ألفاً وأخرى من أربعة آلاف رجل فی سیدی فرج وعند مصب نهر الحرّاش، ولكن الخیر الجدید الأكثر أهمية هو وجود سلاح سرّی لدى الجزائریین: ألفان من الجمال الكبيرة والقویة، المدرعة بالأغطیة المزركشة المحشوة بالتبن والمربوطة فی ما بینها عبر أنوفها، ستطلق فی وجه الفرق الفرنسیة.

قرأ أحد الضباط أمراً من السید دو بورمون وفیه: «علم الجنرال العام بأن حشوداً كبيرة من الخیالة غیر النظامیة تنتظرنا علی الشاطئ جاهزة للقتال مع آلاف من الجمال. وعلی الجنود ألا یفاجأوا بمظهر هذه حیوانات بقدر ما بأعدادها. فذکریات هلیوبولیس<sup>(1)</sup> یمكن أن تجعلهم یعقدون بعض المقارنات...».

(1) هلیوبولیس هی دائرة فی ولاية قالمة الجزائریة.

«ها، يا إلهي»، صرخ الضابط، «أستكون فيلة بيروس<sup>(1)</sup>؟». ضابط آخر قال إنه قرأ في تاريخ هيرودوت أنه عندما اكتشف قوروش الكبير<sup>(2)</sup> ما تسببه هذه الفيلة من رعب للجياد، أطلق الجمال ضد خيالة كرزوس.

جمال لم ير مثلها أحد، ما عدا بويشو، في سيرك للحيوانات. «كبغل هائل»، قال، «له رأس مستطيل فوق عنق طويلة مع حذبات على الظهر، وذيل صغير وقوائم عريضة، يشبه البقرة مع فم بشع. لن أحب أن أركبه بالطبع».

حيوانات خبيثة؟ بالنسبة إليه ليس هناك سوى الإنسان كائناً خبيثاً. بويشو لا يعتقد أن الجمال قادرة على الخبث أكثر من الحيوانات الأخرى إلا إذا ركبها الإنسان. وعندما علم الجنود أن الأتراك يستخدمون جمالاً غاضبة، إذ يشعلون النار في مؤخراتها من خلال حبل مبلل بالقطران، انفجر الجنود بالضحك. كيف ستتنقض البغال على الفرنسيين خاصة إن استقبلوها هم بالرصاص؟ لن تكون أكثر غباء من الرجال، سترتد إلى الخلف كفرس مجفلة، وستفرّ من الخطر. لتتذكر أنه في مصر حيث الكثير من الجمال انتصر عشرة آلاف رجل على ستين ألف تركي.

(1) Pyrrhus هو بيروس الأبيري أو بيهوس الأبيري (319 ق.م - 272 ق.م) هو جنرال إغريقي أصبح ملك أبيروس وملك مقدونيا القديمة. كان أحد المعارضين الأشداء لقيام روما المبكرة. قاد العديد من المعارك وبالرغم من نجاح معاركه إلا أنها كلفته خسائر جسيمة، ومنه جاء التعبير «النصر البيروسي» أي النصر الذي يكلف غالباً. ومن هنا يأتي ذكر الفيلة التي أُنجد فيها بيروس السيسيليين فقدم لهم عشرين فيلاً محارباً.

(2) Cyrus le Grand ويلقب به كوروش الكبير أو قوروش الكبير، أحد أعظم ملوك الفرس الأخمينية، استولى على آسيا الصغرى وبابل وميديا، قضى على الكلدان، حكم من (529-550) ق.م.



## 6

تعليمات الحرب في الأريسوز<sup>(1)</sup> تسلّم بأن الجمال لا ترهب الجيش، فالمدفعية كافية لتدميرها في لحظات. بدل القائد الأعلى تعليماته للإنزال، وأعطى للجنرال برتيزان شرف أن يكون أول من يطلق فرقه على الشاطئ. ثم وبسبب مخاطر البحر المحتملة أراد الأميرال تخفيض عدد السفن المحتشدة على شاطئ سيدي فرج، ووافق السيد دو بورمون أن تتبع قافلة السفن المحملة بالخيول ومعدات الحصار، الأسطول الكبير بعد يومين من انطلاقه. هذه المرة سيصل الجميع إلى شاطئ سيدي فرج راضين.

9 يونيو، الأسطول غارق في الفوضى تحت سماء هادئة، وفيما أطفئت أضواء جزيرة ميورقة واحتجز كل الجيش في سفنه، انحدرت الشمس إلى المغرب وسط غيوم عالية أرجوانية ساحرة. لكن البحارة كانوا يعتقدون أن الطقس سيتبدل.

صباح اليوم التالي أي نسمة هواء تحرك سطح الماء، غير أن فترة بعد الظهر شهدت نسيماً خفيفاً من الشمال ثم من الشرق، فأعطى الأميرال الأمر بالانطلاق فوراً نحو الجزائر. التقى الملازم أول دو روي، الضابط في قيادة أركان السيد دو بورمون، القسيس العام الذي أنهى صلته تحت السقيفة.

- حسناً، أبتي، قال له، هل طلبت لنا بركات الرب؟

- نعم، يا عزيزي، أجابه القسيس فاتحاً يديه في حركة عفوية يقوم بها عادة في قداسه. قلت له: «يا إله البحر والجيش، يعني إله الكون،

(1) Aréthuse هي رتبة في البحرية يتم التأهل لها عبر صفٍ تعليمي يسمى باسمها.

اعطف على الخمسين ألف مسيحي الذين يريدون محاربة البشر غير الراغبين في التعرف إليك، اخمد العواصف، واجعل الوصول إلى شواطئ الجزائر سهلاً ونجياً جنودنا من الموت».

ابتسم الملازم أول دو روي.

- أنا متفاجئ أنك طلبت لنا النجاة من الموت. فإن متنا في هذه الحرب سندهب إلى الجنة، أليس كذلك؟  
- بالتأكيد.

- إذن كل مسيحي صالح عليه أن يرغب بأن يهلك في هذه المعركة.  
- آه، يا ابني، قال القسيس، بقدر ما نرغب في مواجهة سيدنا وجهاً لوجه، سنمنح هذا الوقت الأبدي. كما أن الأرض أيضاً تحوي نعماً ستقدرها مع العمر. وسيكون إهانة للرب أن نزدري هذه النعم.  
كانوا تواقين للقاء الأتراك واكتشاف سحر الجزائر حتى إن عدد الجنود الذين نقلوا، دون رضاهم، إلى المستشفى التي هيأها الجيش في ماهون من أجل مرضى وجرحى الحملة، لم يتجاوزوا الاثنتين وثلاثين جندياً. كان الملازم أول دو روي الوحيد الذي يفكر بالموت.

عاصفة رافقت القافلة، بعيداً جداً، لجهة الغرب، وأضاء البرق السماء كعجيج معركة، لبعض الوقت ليلاً. ثم أمطرت وارتفع الموج وأصيبت بعض قطعات الأسطول بالعطب. وتساءل جنود البحرية أنفسهم إن لم يكن الأميرال اقترب خطأ جسيماً في اصطحاب قوارب الصيد التي تشتتها أقل عاصفة، ناهيك عن أن تكون محملة لأكثر من عشرة أيام بالمؤونة والمجارف والمعاول والحقائب والحواجز الحديدية الشائكة الضرورية للتحصين: كان من الأفضل استبدالها ببعض السفن التجارية المتينة. وحين

باتوا على بعد ثمانية وعشرين فرسخاً فقط من مدينة الجزائر، تبدّل الهواء بصورة واضحة واضطرت القافلة للتقدم بأشعة منخفضة، ولكن عند المساء أعطى الأدميرال إشارة الانطلاق للمعركة صباح اليوم التالي، عند الرابعة فجراً.

في هذه الساعة، وعلى الرغم من ارتفاع الموج وهبوب الرياح الشرقية، كان يمكن رؤية الجزائر بين الضباب، قبالتهم تماماً، على بعد أربعة فراسخ، إلا أن القافلة غيرت مرة أخرى اتجاهها وعادت إلى عمق البحر، واعتقد الجميع أنهم عائدون إلى ميورقة.

## الدفن

### 1

هل تمكن السيد دو بورمون حقاً من الحفاظ على هدوئه، وهل هو قادر على تحمّل المزيد؟ طويل نحيف، مدثر بمعطف غامق يحميه من الرذاذ، رابط الجأش، شاخص دوماً نحو مقدّمة المركب، يتكئ لساعات على الدرازين بالقرب من بحارٍ حاسر الرأس يحمل في يده اليمنى المنظار. في الجهة الخلفية المقابلة للسفينة حيث يتواجه القائدان بصمتٍ ويتحاشيان واحدهما الآخر منذ نحو شهر، بين ضباطهما المساعدين الصارمين، وقف الأmirال بقامته القصيرة بوجهه المتجهم مدخناً سيجاره شاردأً، وخصلة شعرٍ سميقة تطفو تحت قبعته الحريرية التي تغطي معظم رأسه. وفجأة أعلن السيد دو بورمون:

«هذه المرة، أيها السيد الأmirال يجب الإنزال».

متفاجئاً، نظر الأmirال بوجه أسدٍ متوحش غاضبٍ وصرف بإشارةٍ منه ضباط جناحه.

- يتوقف ذلك على حركة الهواء، تتمم.
- لا، أيها السيد الأmirال، قال السيد دو بورمون بصوت رزين. هذا يتوقف عليّ أنا وأؤكد لك أننا هذه المرة سنقوم بالإنزال.
- نظر إليه البارون دوبريه بازداء من فوق كتفه بوجه ساخر متسلط.
- البحر سيء ولا يخضع لنا.
- السيد الأmirال، البحر ليس سيئاً. وأنت تعرف أن هذا من حقي وسوف أباشر بالإنزال.

وقام برسم إشارة الصليب على صدره.

لم يجب الأميرال وأدار له ظهره، ثم جعل يذرع غاضباً جسر السفينة بالطول والعرض، وهو يجتر أفكاره. البحر! ماذا يعرف عن البحر، هذا الريفى المترجّز، هذا الأرستقراطي، هذا الفلاح الذي يتجرأ على إعطاء الأوامر على متن سفينة والذي - وعلى الرغم من أنه يوازيه رتبةً - يحق له لكونه وزيراً أن تطلق على شرفه في كل مرة يظهر فيها على السفينة أربع طلقات مدفعية إضافية أكثر من القائد الأعلى للبحرية العسكرية؟ قدامى القراصنة يقولون إنهم لم يروا يوماً طقساً كهذا في هذا الفصل من السنة. ابتعد السيد دو بورمون وذهب ليتكى على الدرايزين، ناظراً إلى قمة بوزريعة الغارقة في الضباب. حيث في الأسفل سراب تبتعد باتجاهه القافلة من جديد كرف طيور مهاجرة بأجنحة متشاقلة، وتلوح الجزائر قبالة مناراتها وأرصفتها البحرية.

«يا إلهي»، تمتم بويشو.

«لن نقضي حياتنا تنقياً ثم نحترق من الشمس في الإنزال المؤقت في إسبانيا وسط الرائحة المقرفة للثياب والوسائد، تحت حجة أن البارون دوبريه يعيش في هاجس فاجعة شارل الخامس<sup>(1)</sup>!».

طوال ست ساعات، لم يخرج الأميرال ولا السيد دو بورمون عن رباطة جأشهما فجنم صمت ثقيل على القيادتين، وأخذ الجميع يترقب الانفجار. عند الظهر عندما خلت السماء وسكن الهواء، أصدر الأميرال أمراً بالعودة باتجاه البر. وحين رأى، بعد ثلاث ساعات، القافلة كلها تواكبها النوارس تسير خلف أسطوله بكل انتظام، وقد استعيدت في ما

(1) ويقصد هنا الحملة الفاشلة لشارل الخامس العام 1537 على الجزائر والتي سبق ذكرها.

بين سفنها المسافات الفاصلة الضرورية، بعث بإشارات جديدة للاتجاه غرباً نحو سيدي فرج. كان هذا كافياً حتى ينسحب السيد دو بومرمون إلى قمرته راضياً بعد تحية سريعة، لم يرد عليها السيد الأميرال الذي عاد من جديد يمشي ساحقاً الأرض بخطواته الغاضبة. كان يكفي أن يفهم الأميرال أن السيد دو بومرمون يحتفظ جانباً بالرسالة التي لم يتجاسر بعد أحد أن يعلن عنها والتي يفوضه فيها الملك بشغل منصب القائد الأعلى للقوات البحرية والأرضية، كي يتمكن هو نفسه من اتخاذ القرار ببدء العملية.

مساءً، هداً الهواء أكثر واستكان البحر. وعلى كل السفن أخذ القادة يحضرون لعملية الرسو: جهزوا الحبال وسلاسل الجرّ، وثبتوا مراسي الأعمدة الحديدية وأمنوا الفؤوس لقطع الأسلاك عند الحاجة. ثم بدأوا يوزعون على الجنود والضباط حصصاً غذائية تكفي خمسة أيام. تمّدد بأسبوا على مقربة من بويشو في قاعدة المدفعية العابقة بالطلاء والشحم. ومن خلال الفتحة رأى النجوم تراقص، أكثر التماعاً حتى من ليالي الصيف في فرنسا. لا بد من أن سنابل القمح على هضاب مونتسيغور قد نبتت.

«أنطوان»، قال بأسبوا، «ربما ستأسف غداً لأنك ما عدت تتقياً على سفينتك البائسة هذه».

فجراً، مع عزف الطبول والمزامير، بدأت القافلة تتقدم بمهابة في ثلاثة صفوف يتوسطها أسطول الاشتباك. بأسطة أشرعتها على امتداد النظر، بجانب الهواء الشرقي إلى يسارها، حيث تنكسر أشعة الشمس، متقدمة جنوباً نحو كتل من الغيوم المنخفضة. أعلن القسيس بأنه يوم عيد الرب وأن تولون ستشهد موكباً كبيراً على شرف الحملة. أما موكب الجيش في

الجزائر فله شكل آخر، وسيتلقى الأتراك على وجوههم شيئاً آخر سوى البركات. شاعراً بالانتعاش جرّاء الأجواء الاحتفالية هذه، أمر الرقيب رجاله بحلق ذقونهم. ليمروا تبعاً على موس حلاقة أمام مرآة معدنية، وباسبوا الذي لا يحتمل لهيب الموس، رطب وجنتيه ببضع قطرات من الكحول. هذه الرهافة من راع! أسف أنطوان لأنه حلق شاربيه قبل شهرين، بعد رهان دخل فيه. فمنذ احتشادهم في تولون تحولت الشوارب إلى موضوع هزلي: لإنجاح الحملة العسكرية، عليهم كالأتراك أن يربّوا شوارب طويلة كثيفة، وإن لم يكن لهذا السبب فلكي لا يخذلوا توقعات النساء.

واحد بعد آخر، صعد الرجال بهدوء على الجسر، تنفسوا النسيم الذي تحول فجأة دافئاً رطباً بعض الشيء في هذا الصباح، الذي جعلهم يرتجفون قليلاً وكأنه ليس صباحاً مناسباً لمعركة: ربما يكون العدو قد نصب على الشاطئ كميناً سيقعون فيه جميعاً. لا يعرفون شيئاً، أو يكادون لا يعرفون شيئاً، عن البلاد والعادات والجيوش البربرية، والكتيب الذي عدّل من أجل الحملة لم يحاول الضباط قراءته إلا ليتهمكوا على الكثير من النصائح الواردة فيه، ولم يحاولوا أن يطلبوا من جنودهم قراءته حتى لا تدبّ الرهبة في نفوسهم، أو حتى لكي يظلموا وحدهم القابضين على الأسرار ويحافظوا على هيبتهم. وعلى أية حال، كان هناك حذر تجاه كلّ ما هو مكتوب، وتفضيل إيلاء الثقة للأعراف الثابتة، وإلهام اللحظة. ضباط الصف الثاني يحفظون القواعد عن ظهر قلب، ومعظم المجنّدين والمتطوعين، كما أولئك المتعاقدين لسبعة أعوام الذين لا يعرفون حتى توقيع اسمهم، يتباهون بافتضاح خيانة من يبدون على معرفة ببعض التعليمات، على اعتبار أن

ذلك يشكّل دليلاً على انتمائهم لطبقة تتمتع بامتيازات لم تبطلها الثورة. الأرض التي يذهب إليها البارون دوبريه وجنوده لا يعرفون سبيل الوصول إليها، على الرغم من الحصار الذي يضربونه على الشواطئ الجزائرية منذ ثلاث سنوات. خرائط البحرية وتلك الخاصة بمكاتب وزارة الحرب لم تكن متطابقة، أما المسوح الطبوغرافية التي حملها الرائد إيف بوتان، من حملته الجاسوسية العام 1808، فمن يثق بها؟ ليس الأميرال على أية حال، ولا أي من قادة ألوته البحرية: ضابط من الهندسة ليس مؤهلاً لإسداء النصائح لجنود بحرية. إنه سبب إضافي لهذا الحذر الذي يتحول انكفاء ولا يؤدي سوى إلى تحاشي أي تطوع. لا أحد يجهل لا في الصحافة ولا بين الديبلوماسيين أنه سيحصل إنزال، ليس على شواطئ الجزائر وتحت نيران المدافع التركية ولا عند الخليج، حيث أخفى الإسبان لمرتين كارثتهم، وإنما على بعد خمسين كيلومتراً غرباً عند شبه جزيرة سيدي فرج حيث توجد تحصينات للمدفعية. وإذن، كان لدى الداوي متسع من الوقت لتعزيز التحصينات وحشد الفرق في انتظار الروم.

على خريطة ضواحي مدينة الجزائر (قياس: 70: 1000)، التي وضعها بوتين وسلمت لمسؤولي الأقسام، عدّل بالتنقيط موضع شبه الجزيرة وحدودها، التي تأتي على بعد فرسخ إلى الجنوب غرب؛ كما سحق في الخريطة، لا بل صغّر خطأً لسان الشاطئ من الجهة الشرقية. في المقابل، أضيفت جزر صخرية صغيرة أغفل بوتين بصورة غير مفهومة وضعها لأقصى الغرب. وهي غفلة تشعرهم بالحاجة إلى المزيد من الحذر. ومع ذلك، فأَيّ جاسوس مدهش كان بوتين هذا! فعندما طلب نابوليون من وزير حربه أن يقدم له في ثلاثة أشهر صورة واضحة لا ضبابية فيها لحملة



على الجزائر، انطلق بوتين باسم مستعار، تحت حجة موهبة، يقوده القنصل العام الفرنسي! وقد تعرضت القرعية التي كان على منتهى والتي كانت تحمل عشرين مدفعية، للهجوم وطوردت حتى تونس، قبل أن تدرك الجزائر. هناك في تونس، مدفوعاً بشغف اكتشاف أفريقيا، راح بوتين، يجول في المدينة ومحيطها، يساعده مظهره العربي بعينه اللامعتين ولحيته السوداء ومشيته البطيئة. متكرراً كصياد، أخذ يستكشف الشواطئ ويسبر الأعماق، حتى وشى به حارس مرتبط سيدي فرج، وتفادياً للأسر ادعى الجنون وسارع في الرحيل بيد أن الإنجليز اعتقلوه فتخلص من وثائقه وهرب عبر مالطا، وتمكن من التخفي كبخار روسي على سفينة يونانية. وعندما عاد إلى باريس أعاد كتابة التصور من خلال ما علق في ذاكرته من ملاحظات. وهكذا حصل نابوليون على التقرير الدقيق الذي طلبه، ابتداء من اقتراح المناورة حتى العدد المطلوب من الجنود للسيطرة على العرش. وقد وضع بوتين التصور برمته، فهو الملم بكل شيء. وهو من نصح بالضربة المباغتة في سيدي فرج، القصف من الأعلى من الجهة التي لم تكن فيها المدينة محمية، وهو أيضاً من حدّد سرعة التنفيذ واقترح وضع وحدة القيادة في يدي شخص واحد، احتسب عدد وحدات المشاة والفرسان والمدفعية والهندسة وأوزان البشر والعدة والعتاد التي يجب حملها.

أجبرت تهديدات الحلف الخامس<sup>(1)</sup> نابوليون على الانسحاب من إسبانيا والعودة إلى الدانوب، ولم تعد الجزائر مهمة. بعد عشرين عاماً، أُخرجت التقارير من الأرشيف الحربي، كان بوتين قد مات مقتولاً في

(1) الحلف الخامس هو التحالف بين النمسا والمملكة البريطانية لمحاربة الإمبراطورية الفرنسية لنابوليون، في العام 1809. وقد بدأت الحرب بغزو النمساويين لبافاريا في العام نفسه.

مهمة أخرى في سوريا في نهاية عهد الإمبراطورية.

## 2

شيئاً فشيئاً، بددت الشمس لحاف الغيوم السميك الذي كان يجتازه الأسطول. في البداية شوهدت كتلة دخانية قائمة على شكل قوس مسنن، خشنة من جهة ومروسة من جهة أخرى، ثم تبددت الغيوم وأسفل الهضاب السمر، لاحت مدينة الجزائر بجلاء. للحظة لم يصدّق أنطوان بويشو عينيه، ولكي يتأكد، بحث عن باسبوا لكنه لم يجده. فوقف أعلى الدرج المؤدّي إلى قواعد المدفعية وأخذ يهتف:

«الجزائر، يا إلهي! ها هي».

اخترق باسبوا الحشود واقترب. الآن، وبينما الشمس تسفع البحر وقمم الجبل سفعاً، سيطرت لحظة من الذهول على الأسطول بأكمله. وعلى كل السفن، هرول الرجال إلى أسطح السفن، يشاهدون وكر القراصنة الذي اكتشفوه أخيراً بين أسوار المدينة في الحوض المثلث الذي تغرق قاعدته في الشاطئ وبرأسه الرفيع جداً المتصل بالقصبة<sup>(1)</sup>. وإذا بالجيش ينسى شهراً من الإبحار الشاق والروائح والترنح والتكدّس فيهلل. هذه هي الجزائر، هذه المدينة القروسطية بين أسوارها التي لم يكن أحد يجروء على اقتحامها، هذا الميناء الصغير حيث تتكدس الأشرعة خلف سور ورصيف ميناء ضيق؟ منازل متراسة بلون الخبز بالحليب أسفل هضبة ضخمة أحيطت بالوديان التي تقطعها من كل الاتجاهات مجرحة بتواءات عشوائية، وخليط من

(1) قصبة الجزائر وتعرف أيضاً دون إضافة اسم المدينة، وهي جزء من مدينة الجزائر أو المدينة القديمة، على الرغم من أنه ثمة في العديد من مدن المغرب العربي «قصبة» غير أن قصبة الجزائر هي الوحيدة التي تدعى القصبة دون إضافة اسم المدينة.

المنحدرات والتلال والروابي والجُروف التي تتكسر غرباً في منزلقات حادة على الصخور، وتصبح أكثر نعومة شرقاً وصولاً إلى الشواطئ، قبل أن تعاود الارتفاع بعيداً. وعلى جميع التلال المكشوفة المحتشدة بالحدائق والأحراج وبعض النخيل منازل نزهة متدرجة. أما رؤوس الجبال فتحفظ بالثلج في تجاويها. هكذا تحتشد القرى خلف المدينة وفي الأعلى ينتصب برج حصن الإمبراطور وأسواره، مدافعاً عنها، مهيمناً عليها.

من سفينة بريسلو المتراجعة إلى الخلف قليلاً وإنما القرية بما يكفي لسماع رفرقة أشرعتها، هتاف يرد عليه بهتاف أكثر ابتهاجاً من كل صوب. وفوق السفن ترفرف المعاطف العسكرية، وتصدح الصرخات كالعواصف مختلطة بزعيق النوارس التي انقضت فجأة على الأسطول. إشارة من لا يروفس بتشكيل صفوف القتال.

«يا للخيل!»، قال باسبوا بحنق.

«لا أقصدك أنت، بل هم»، قال باسبوا. واتكأ على الدرايزين، وأشار إلى أولئك الذين يصرخون. «وأردف قائلاً: «سأشرح لك لاحقاً».

وفجأة أنصت السمع وكزز رقيقه:

«اسمع هذا».

في مقدمة السفينة، وفي الحجرات التي زربت فيها، أخذت الكلاب تعوي وقد أثارها الجلبة. هي أيضاً استنشقت رائحة جعلتها تطلق عويلاً متوحشاً، وكأنها تلقي التحية على طريقتهما.

- الكلاب المهجنة، قال باسبوا، هذا مفهوم. يمكنها أن تلتهم كل شيء بالمناسبة. ولكن أنت يا بويشو، ماذا فعل لك الأتراك؟

- ها، قال بويشو، لقد ضايقونا. خطفوا بواخرنا وصفعوا قنصلنا.

وهذا مستمرّ منذ زمن. وأنا أساساً يثيرني حتى ما هو أقل من ذلك.

- شخصياً لا يهمني الأترك. نحن أيضاً، لم نقصّر في مضايقتهم، على الأرجح. وها نحن هنا، ماذا سنفعل بالجزائر التركية؟ هل أنت من سينام في حريم الداوي؟

- لمّ لا؟ صرخ بويشو. حسناً، أتعرف أن الجزائريات...

طلب الرقيب التجمع. احتشدت الفرقة في الدكة التحتية للسفينة الممتدة تحت ظهر السفينة، تحت مدخل القسم الخلفي، مستعدة للقفز عند الهجوم، وذلك للإفساح في المجال للبحارة. وقد جعلت حالة الهياج جنود المدفعية يهرولون إلى آلياتهم. أقفلوا الفتحات في كل مكان وركزوا السدادات والحبال وصفائح الرصاص لتفادي الضربات على سطح المياه، وجهزوا دلاء الحريق والمضخات. مناوبات استعداد لإخراج الخرطوش من مخازن الأسلحة ونقل الجرحى إلى المركز الجراحي. الآن في الصمت، لا يُسمع سوى الزعيق الغبي للنوارس والأوامر على سطح السفن في حين أن الجزائر كلها تنظر، كالمذهولة، إلى الأسطول الحربي للبارون دوبريه، الذي ما زال ينقصه جزء بقي في جزيرة ميورقة، يسير مصارعاً الهواء باتجاه رأس ماتيفو<sup>(1)</sup>، ثم يستدير باتجاه سيدي فرج، حسب ملاحظات بويتين.

ما صدم الضباط. في تجربتهم، هو عدم وجود أيّ راية فوق الميناء في القصبه ولا في فوق تحصينات الجزائر. ولا أي شعلة ولا أثر. ولا أي من

(1) Cap Matifou هي الاسم الذي أطلقه ليون الاقريقي (هو الحسن بن محمد الوزان الزياتي الحسن بن محمد الوزان الفاسي. غرناطي المولد انتقل للعيش في المغرب اشتهر بتأليفه الجغرافي في عصر النهضة) على البرج البحري، وهي واحدة من بلدات الجزائر.

هذه البيارق والشرائط والأعلام، التي عادة، وما إن يُعلن عن وصول باخرة غربية، حتى يتعجّل الأتراك رفعها في مواجهة المسيحيين والإنكليز والهولنديين أو سواهم من متعصبين يقتربون من الأرض التي ليست لهم، والتي لم يتمكن أحد من الاستيلاء عليها والتي يسود فيها دين النبي. هذه المرة ولا أي إشارة. ولا حتى أي تحذير. السرّ الكبير، هو في هذا الاضطراب المسعور الذي يرى بالعين المجردة والذي توضح النظارات المكبرة تفاصيله: الأرصفة والأسوار وحاجز الميناء المحتشدة بالبرانس والطرايش، وفي القرى المتاخمة عدد كبير من الحمير يدفعها راکبوها باتجاه الباب للاحتماء في المدينة التي دبّ فيها الرعب أمام القافلة التي ظهرت من بين الضباب وانتشرت وسط ضوء الصباح.

## 3

الطبول والنايات تعلن وقت الغداء. غمغم بويشو: «إني جائع». ضحك باسبوا وأخرج قطعة من البسكويت من حقيته. حدّث باسبوا نفسه أنه إن كان عليه يوماً أن يهاجم البحرية الفرنسية، فسيتدبر أمره ليزامن أول هجوم مركز مع وقت الغداء الذي يستغرق فيه الجميع. إذ أنه لا يحب هذه الموسيقى وهذه الاحتفالية في أوقات الطعام، على ظهر سفينة أميرالية، وهو الذي يكتفي في أي وقت بقطعة من الجبن أو الخبز، لا يهم، ماضعاً بأناة، وهو يقيس الهاوية التي تفصله عن كبار الشخصيات أولئك. أما بويشو فأكثر جدية، ربما لأنه طويل القامة قويّ البنية ثقيل، مع فم حطاب وعينين صفراوين. شهينة بويشو ترعب باسبوا. فهل عانى أهله طويلاً من الجوع في جبال البيرينييه في منطقة «الأرياج» لكي يجدوا بقرة

يقتاتون منها عندما تسنح لهم الفرصة بذلك؟ هؤلاء أيضاً تستبد بهم الثمالة ما إن أن يشموا رائحة النييد، في حين أن الناس في منطقة لي كوس أكثر رصانة ورباطة جأش، إلا في ما يخص النساء، عندما تستبد بهم الوحشة فيمتطون خيول النار. ماذا يعرف باسبوا عن بويشو، وماذا يعرف بويشو عنه؟ لا شيء تقريباً، ما عدا أنهما هما الاثنان من فئة المتطرفين في الحياة؛ بويشو في القوة وهو في النعومة والمكر، فهو موجود هنا لأنه كان شخصاً قليل الحظ عاطفياً، وبويشو الذي يكبره بعشر سنين هو الآخر قاده البؤس في لحظة ثمالة إلى مكتب جوال لحشد المتطوعين. «لقد وقعت»، قال بويشو، بيدٍ مرتعشة لأنها ليست معتادة على القبض على ريشة ناعمة وإنما على جذوع الشجر، ويسمي بويشو رسم الصليب<sup>(1)</sup> توقيماً، الأحمق!

السفينة التي لم تعد في عرض البحر، بل على بعد أربعة فراسخ فقط من الجزائر، مرت ثانية أمام المدفيعات التركية في الميناء. خلف القلعيات، كانت الدراغون وآيرت اللتان تراقضان بأشرعتهما التي طويت بالكامل للتقدم بشكل أبطأ ولسبر الأعماق بصورة أفضل. لا بروفنس ولو برسلو تطحنان البحر تحت ثقلهما، تتبعهما الفرقاطتان لا ديدون وليفيجيني. كل منهما تحمل ستين مدفعية، تحيط بـ لو تريدون، التي تحوي 82 مدفعية حيث نزل الأمير البحري دو كلمب دو روزاميل، القائد الثاني، وبقية أسطول المعركة المكون من عشرة آلاف جندي من شعبة لوفردو، وزعوا على ثمانية سفن حربية كبيرة وثلاث سفن حليقة<sup>(2)</sup>، قادرة وحدها على

(1) كان يجري اعتماد رسم الصليب بدلاً من التوقيع في حال كان الموقع أمياً.

(2) vaisseau rasé هي سفينة لها ظهران، ألغيت القاعدة في ظهرها الفوقي وبقيت مفتوحة، وبذلك فهي لا تحوي سوى على قاعدة واحدة من الدكة التحتية، أي تكون حمولتها أقل، مما يجعل حركتها أكثر سهولة وانسيابية.

إمطار المدينة بالقذائق. تأتي بعدها السبع عشرة بارجة المحملة بجنود المدفعية من أسطول الإنزال مع شعبة برتيزين، وثلاث وخمسون قطعة من أسطول الاحتياط تحمل فرقتين من شعبة دوق دو كار والهندسة، ثم الأسطول الصغير للإنزال مع مراكبه من كل القياسات والأنماط، ثلاثمائة سفينة فقط. بما أن القافلة مع ثلاثمائة وخمسين قطعة تجارية أخرى ما زالت في جزيرة ميورقة تنتظر الأمر بالإقلاع. إنها قوة مرعبة كيفما أراد الأتراك أن يحصوا عددها والتي يتعاظم تهديدها المعنوي ساعة بعد ساعة. بالنسبة إلى بعض سكان مدينة الجزائر الذين لم يتمكنوا من رؤية تبادل دوبريه لمسار القافلة، لم يكونوا سوى أسطولين هائلين جاءا للتمركز قبالة المدينة لمحاصرة دفاعاتها. كانوا خارج مجال المدفعية التركية، كما المدينة خارج مجال المدفعية الفرنسية، والطرفان يراقبان واحدهما الآخر. من نقطة مراقبة البوارج، لا تشكل الجزائر سوى كومة من المنازل المطلية بالكلس خلف بعض الصخور وبعض الرجال البدينين الأقوياء.

على مائدة الغداء، أبدى السيد دو بورمون شهية كبيرة. فالنسيم يهب لطيفاً ومن خلال نوافذ القمرة تلوح له الهضاب المتداخلة ببعضها بعض على كل خاصرة من جبال بوزريعة. أما البارون دوبريه فقد ذهب كعادته، متخابثاً أو مدعيّاً، ليأكل وحده في الجهة الخلفية من السفينة. كل شيء يوحي أن العملية ستبدأ ويجب استنهاض عزيمة الجميع: من أجل أن ترسو قافلة بهذا الحجم بالقرب من شاطئ لا تعرفه جيداً وتنتظر في بحر خطير، على الجيش أن يبادر من دون انتظار قرار البحرية. لا شيء يخرج الأميرال عن طوعه سوى تفاخر السيد دو بورمون ووقاحته. فقد سمع أحد معاوني القائد العام، وهو رجل تافه، يقول إن جنود المشاة المرسلين إلى

الدكة التحتية كي لا يزعجوا القيادة، يطالبون بحقهم في المجازفة وتحمل المسؤولية، وهذا الأسلوب كاد أن يجعله ينفجر. «سيحصلون قريباً على معركتهم»، دمدم الأميرال، «فليبقوا إذن مرتاحين الآن». وفي قرارة نفسه أضاف ما تعتقده كل البحرية: «ليترك لنا جنود البر القيادة البحرية وليكفوا عن حشر أنوفهم بما لا يعينهم».

## 4

استبدّ بالبارون شعور بالمرارة منذ أن علم أن جلالته وضعه تحت إمرة السيد دو بورمون. فبالنسبة إليه، من يكون السيد دو بورمون هذا؟ مجرد خائن فرّ في يونيو 1815، قبل ثلاثة أيام من معركة واترلو، للالتحاق بلويس الثامن عشر في قنط<sup>(1)</sup> ليضع نفسه في معسكر الأعداء. في محاكمة المارشال ناي، تجرّأ على المجيء وتوجيه الاتهام لقائده السابق أمام المجلس الأعلى. يتذكر الأميرال دو بريه الكلمة الرهيبة لبشور عندما رفض توجيه الكلام إلى دو بورمون: «التافه يبقى دائماً تافهاً»، كما يتذكر كلمة المارشال ناي التي تصف تصرفه لاحقاً، خلال محاكمته: «إنه لخزي، الجنرال...». هذا هو الرجل الذي اخترناه، وسط استنكار الضباط، لكي يقودنا إلى النصر تحت رايات تخلى عنها قبل خمسة عشر عاماً. ولكن الجيش يعاني من قلة فعاليته فهو تواق إلى المعركة والنصر، تمزّقه الصراعات السياسية، ويرنو إلى الوحدة. ويدرك الأميرال دو بريه جيداً أن المملكة تمر بصعوبات وهي بحاجة إلى الجزائر لإعادة تلميع أسلحتها. ففي النهاية، وإن كان السيد دو

(1) Gand مدينة بلجيكية، وهي مسقط رأس شارل الخامس، وبعد معركة واترلو ألحقت قنط بمملكة البلاد المنخفضة.



بورمون، وبذريعة تقديم خدمة أعظم لبلادهم، أهمل موقعه كوزير حرب لترأس الحملة، ما كان الأميرال يعترض على ذلك شريطة أن يكون من يقود مغامرة بهذه الضخامة يعتمد نجاحها على البحرية، من سلاح البحرية، أي هو. فأن يتوسلوا إليه كل هذا التوسل معرّضين مستقبله المهني للخطر، ثم يخدعوه في النهاية! هو دوبريه، أكثر القادة جرأة في البحرية الفرنسية، الذي اكتسب شهرته منذ قاد كملازم أول لا سيرين، التي هاجمها سرب من خمس سفن إنكليزية لدى عودتها من جزر الأنتيل<sup>(1)</sup> ووجهت له إنذاراً بالاستسلام، فأجاب: «إني مستعد للغرق، أيها الإنكليزي الطفيلي، أما أن أسلم نفسي لك، فأبدأ! أنا غير آبه بك، سأشعل النار في كل مكان». هناك دائماً سفينة تحمل اسم لا سيرين في البحرية الفرنسية، وهي الآن هنا، إلى جانب من لا فينوس ولا رتيميزم ولا بروسبيرين ولا سييل، تحت إمرة واحد من خيرة ضباطه، النقيب ماسيو دو كليرفال، الذي قاد بعد كويليه شعبة حصار الجزائر.

وبعد أن تحول إلى رجل مقلق، أخذ الأميرال يتسلى بسطوة شخصيته ومضاعفة خشونة أساليبه الترهيبية التي يُظنّ أن بإمكان العلوّ في العمر أن يبدلها. كان يعرف أن العدو في كل مكان، وأن أقلّ من عليه أن يخشاهم هم الإنكليز أما الأعداء الآخرون فهم الكسل والإهمال وانعدام الدقة والغيرة وضيق الأفق، وقد طارد أعداءه بشدة. بدأ حياته المهنية من الصفر تحذوه كفأرٍ روح انتقامية تواقّة لبلوغ أعلى المناصب، وقد حسب جيداً المخاطر التي تنطوي عليها هذه الحملة. في كل القوات البحرية، كان للجزائر صيت البعيع وصيت الأففاخ البراقة التي وقع في حبالها من

(1) جزر الأنتيل أو الأنتيل هي مجموعة جزر تكون الجزء الأكبر من جزر الهند الغربية.

يفوقه حيلة. ظنّ في البداية أن شارل العاشر سيتحاشى وضعه على رأس القافلة البحرية، هو البارون المؤيد للإمبراطورية. كان على وليّ العهد أن يسأل الملازم أول دو بيتي - ثوار الذي أجاب بطريقة استعراضية: «كل الضباط العامين بإمكانهم النجاح في هذه العملية الخالية من المشقات». ولما طلب منه ولي العهد اقتراح اسم، أجاب: «الأميرال دوبريه». وبما أن دوق أنغوليم أراد أن يعرف أسبابه لتسمية دوبريه قال: «في البداية لأنه خاض أفضل المعارك في البحر خلال المواجهات الأخيرة. وثانياً، لأنه الأكثر إبحاء بالثقة بين الأميرالات». يا لضعف هذا النظام الذي يسأل الأمراء فيه مروّوسيهم المجهولين رأيهم في عظام الأمور. ما الذي يخسره ملازم أول يقود بارجة في حال الفشل؟ في الثلاثين، كان دوبريه هو الآخر ليقود البحرية في الحملة على الجزائر لو شاء نابوليون. أما اليوم فيتردد ذلك أن المعارضة التي ينتمي إليها تتخذ موقفاً معادياً من الحملة لأسباب سياسية، مما جعله يعبر عن عدم تأييده في رسالة طويلة مربكة. وفي الوقت نفسه لم يكن أبلهاً لهذه الدرجة ليرفض ما يقدم له. وسوف يرضخ. وهذا ما أوحى له أنه سيكون القائد الوحيد. وحتى آخر لحظة ظلّ يظنّ أنهم لن يتجرأوا على تكليف السيد دو بورمون بالقيادة. وعندما تحرر من الأوهام وعلم، بطريق الخطأ، أن تفويضاً سرياً أعطي لرجل وائرلو، في حال الضرورة، يضعه في منصب القيادة العليا للقوات البحرية والبرية، مع نصيحة للواء البحري بالامتنال للأوامر، كاد يصاب بسكتة دماغية. هو المكره على الخضوع لهذا الإنسان وإطلاق أربع طلقات مدفعية إضافية له؟ ففي النهاية، ألم يكن امتناع السيد دو بورمون عن الاستقالة من وظيفته كوزير حرب، هو رغبته بضم راتبه من مائة ألف فرنك إلى المكافأة المالية

للحملة؟ هذه الإهانة التي وجّهت للبحرية عبر شخصه، لم يكن مستعداً لمساحة لا عهد عودة الملكية، ولا السيد دو بورمون عليها.

مضيقاً عينيه تحت حاجبيه الغضين الأسودين احتماء من ضوء الصباح الباهر للصباح، كان يقارن الخريطة المبسوطة أمامه بالشاطئ الصخري التي تقف القافلة قبالة خلف القلعات لمعرفة مدى عمق الشاطئ، وكأنهم لا يعرفون الأعماق منذ بداية الحصار. لا بأس. فالتحقق منها مجدداً هو إجراء إلزامي. بدأ الشاطئ والجبل فارغين، ولكن لا يبدو أن الأتراك يخفون حيلة ما. بعيداً من منارة رأس كاكسين<sup>(1)</sup> حيث ترتطم الأمواج بالصخور، رأى الأميرال اللسان، حيث يبدأ الشاطئ الطويل المؤدي إلى سيدي فرج، رأس شبه الجزيرة، والبرج الصغير، لا توري شيكا، الذي يبدو مسدوداً بقطع بحرية ضخمة. إما أن هؤلاء الأتراك حمقى، وإما أنهم ومنذ أن علموا بنيتهم المعلنة بالإنزال في سيدي فرج، ملأوا المكان بالقذائف والألغام الأرضية التي ستنفجر تحت أقدام الجنود، وربما يكونون قد نشروا في الجوار أيضاً شتى أنواع العوائق.

هب الهواء شرقياً، بسرعة خمسة أميال، متسبباً بارتفاع الموج. في هذه المناطق البحرية وفي هذا الفصل، من المنطقي أن يبدأ الطقس الجميل أخيراً. وأساساً لقد بدأ ميزان الحرارة بالارتفاع، حتى تبدّد تماماً ضباب الفجر، وخلت السماء تماماً من أي غيمة، وتلونت جبال السلسلة الأولى من الأطلس بزرقة ذهبية باهتة، منتصبّة في آخر سهل سطاوالي، خلف منبسط بوزريعة الذي ينحدر حاداً إلى البحر. من كان بإمكانه توقع العواصف؟ في لمح البصر، تبدّلت السماء ناشرة غيوماً كأنما ولدت من العدم، وأخذ

(1) هي منارة تقع على بعد 12,5 كلم من مدينة الجزائر.

الرعْد على قلته يتفجر، وجنّ جنون البحر، حتى ما عاد بإمكان بارجة منعزلة، أو أسطول من المحافظة على موقعه سوى بالسيطرة على الموج العارم وبتخفيض الأشعة إلى الحد الأقصى. هذه العواصف تهبّ حتى في الصيف هنا، ولا يمكن لأحد التنبؤ بها. لذلك فإن قافلة من مئات السفن التي لا يمكن لأيّ ميناء حمايتها، هي عرضة للخطر الدائم هنا.

هز الأميرال كتفه. لا يمكن أن نزرع يوماً هذه الحقائق في عقول القوات البرية. «البحر ليس شيئاً»، أكد السيد دو بومرون وسمع الأميرال صوته الهادئ. «القمي»، دمدم، «وهل اعتقد أنه مرّ بتولون من أجل النزهة؟». إن قال له الأميرال إن عشرة رجال من مارينغو سقطوا للتو في البحر مع عارضة صارية تكسرت فوقهم؟ لم يدم الغداء سوى ساعة. استعاد السيد دو بومرون الذي كان مشدوداً قليلاً مع بسمّة خفيفة، مكانه في كوثل السفينة بجوار ضباطه المساعدين ورئيس الأركان بوجهه الطويل الباهت. وبقصد الاحتقار، تجشأ الأميرال في وجه المجموعة المذهبة الكتافيات، وحتى لا يبقى وحيداً، نادى بإشارة ضباطه، ثم أشار لبافاسترو في البارجة الملحقة، وهو قرصان قديم منحت له فأس الشرف من قبل القنصل الأول، والذي عينه الأميرال كمستشار. وبالرغم من اسمه، فإن بافاسترو فرنسي. له أنف ضخمة مثل مقدمة سفينة ووجه ناعم وجثة طويلة كما لطائر جارح عجوز، يتنزه مثل كاهن. منذ اشتراكه في الحملة، خلع معطفه ليرتدي اللباس العسكري غير المريح كثيراً له، رجل اقترب من الستين يمر الهواء عبر شعره الأشيب الخفيف جداً. لم يكن لدى الأميرال شيئاً ليقول له، وبالتأكيد لا شيء ليطلبه منه. كان يريد بالقرّب منه من أجل إزعاج القوات البرية.

هل سينزلون في الليلة نفسها أم سينتظرون حتى الصباح؟ رئيس الأركان، هذا الرجل المضطرب، لم يجروا على محاولة التوصل لتفاهم ولم يقترح شيئاً على السيد دو بورمون. كان جاهزاً ليفعل ما يتطلبه الموقف ويشك بأن تكون البحرية جاهزة لتضع شعبة برتيزين في الخدمة، ومعهم الثلاثمائة وخمسون مهندساً وكل جهاز المدفعية الذي يرافقها. فحتى الآن لم يسجل سوى إخراج الأسلحة من المخازن وتوزيعها وتنظيفها وإعادة المعاطف، كم كان ذلك قاسياً عشية معركة. كان عليهم أن يقدموا أنفسهم للعدو وكأنهم أمام مصور مجلّة، حليقي الذقن ملمعي الأحذية، مصقولين، ممشطي الشعر، بأطمقة وأحزمة بيض.

«في أي ميناء ستنزل حضرة الأيرال؟».

رفع الأيرال نظره إلى السيد دو بورمون وتلطف بابتسامة. غريب، فقد فارقه المزاج السيء مثل جزرٍ مائي كشف عن الصخور خلفه. مرة أخرى، سؤاله الساذج ثمّ عن جهل مثير للشفقة.

«حسناً حضرة الجنرال»، قال دو بريه، «الريح التي تهب قوية من الشرق ومن شبه جزيرة سيدي فرج تجبرنا على التقدم بحذر باتجاه الشمال، علينا أن نجد شواطئ محمية في الميناء الغربي. إذن هنا، إن سمح العدو، وأعتقد أنه يمكنني الجزم، حتى لو لم يسمح العدو، فسننزل لأنه لدينا الوسائل لنجبره على ذلك».

أمست لو دراغون ولا سيغوني متقدمتين كثيراً على الأسطول، متخطيتين سيدي فرج مع رفع الكثير من الأشرعة للبقاء على سوية واحدة مع سائر القافلة. على بعد كيلومتر واحد من الشاطئ، تشير الخرائط إلى عمق عشرين متراً أو ما يقرب الثلاث عشرة قامّة، والسفينتان البخاريتان

لا ناجور وسفينكس اقتربتا بدورهما يتبعهما دخانهما وكأنه شعرهما الذي يتخبط على جبهتهما بسبب الهواء الأسرع منهما. إنها المرة الثانية التي يحظى بها الأتراك بمشاهدة الآلات الجديدة التي اخترعتها البحرية الفرنسية بعد البحرية البريطانية. فهم يتمنون أن يرتعب البربريون من هذه الوحوش التي ستقلب الفكر التكتيكي والإستراتيجي البحري. واقفاً على حافة السفينة، كان باسبوا يوجه النصائح لبويشو والآخريين، فالرقيب وبسبب مزاجه المتسامح، لم يفرض النظام الاعتيادي. وبهيئة مسيطرة، وقف إلى جانب باسبوا:

- ماذا ترى؟

- البحر والسفن، قال باسبوا، وعلى يسارنا، لسان أرضي مع نتوء مثل هضبة صغيرة مع مبنى عند القمة وبرج مربع.

- لقد وصلنا إذن؟

لقد سبق وحدثوهم عن الهضبة والبرج.

- والأتراك؟

- ليس من أثر لهم. لا شيء.

في مكانٍ أبعد، تبرز رمال الشاطئ المتموجة، وبعدها يمتد في منحدرات صخرية قصيرة بيضاء، ثم يتقوس شمالاً أسفل جبلٍ داكن يبدو متقدماً وحده في البحر. شعر بويشو بدوار غامض. وبالكاد تأرجحت لا بروفنس حتى انتشرت الرائحة المرعبة لقيء الأيام السابقة. ابتداء من صباح الغد لا شيء. الشمس؟ مثل يد لاهبة على الرأس وعلى الكتفين. فكر بويشو أن ضيق صدره نابع من فكرة أن يبرز شيء آخر فجأة، ودون أن يعلن عن نفسه، إن قرر هؤلاء الأتراك أن يقصفوا مقدمة سفينة. فهم

لن يصبوا على السفن الصغيرة التي ترفرف في الماء ولكن على السفينة الحربية الكبيرة الممتلئة والمزينة برايات البحرية والقائد العام، وسيقفون بشكل عشوائي وربما ستقع القذيفة على أنطوان بويشو من مونتسيغور، محتطفةً في طريقها بأسبوا والرقيب.

آه! أجل، قال بأسبوا. يبدو أنهم يتحركون قليلاً، هؤلاء الذي يظهرون قبالتنا.

زَمَ الرقيب عينيه: خيالة، وعشرات المستطلعين، يتحركون في الأجمة على الشاطئ ويتقافزون على ركبهم، شاهرين البنادق مطلقين الرصاص من وقت لآخر، ليتبدد صوتها قبل أن تصل بسبب المسافة، وخلف الهضبة، بعض خيم مخروطية الشكل رفعت فوقها راية حمراء.

«لا شيء مهمأ، أيها السادة»، قال الرقيب، «أرى هذا تافهاً قياساً بالجيش الفرنسي».

تحت الشراع الثاني للسارية الكبيرة، كان البارون دوفريش دو فالازيه، قائد الهندسة الميداني، يدقق في رسم تخطيطي للمواضع التي اختارها بوتين للانزال: السور العالي المربع بحجارته البيض يظهر في الخريطة محصناً بأربع مدفيعات. بيد أنها لا تظهر للعيان، فهل أن أساساته التحتية هي التي تحوي قاعدة المدفعية من خلال إحدى عشرة فوهة، أم أن هذه القاعدة تحميها الهضبة التي تقع قبالتها؟ في هذه الحالة لا يمكنها أن تظال سوى المهاجمين الآتين من الشرق والغرب وليس من الشمال. على خريطة بوتين، تبدو شبه جزيرة سيدي فرج كنبات الفطر، رأسها ليس أصغر كثيراً من جسمها، حتى شبهها فالازيه بالمطرقة. لقد أحسن فالازيه التشبيه أكثر مما فعل بوتين. ما يعرفه فالازيه، هذا الرجل النحيل ذو

الجهة الموحية بالذكاء والوجه الناعم المحتال المحاط بسوالف تستطيل حتى زاوية الشفتين تقريباً، عن الأتراك يجعله لا يأخذ تحضيراتهم كثيراً على محمل الجد. في منظاره، رآهم يقلبون التربة على مسافة من الشاطئ، بالقرب من قاعدتين، واحدة باتجاه الشمال مع ستة مدافع ومدفعي هاون، وأخرى باتجاه الشرق مع ست قطع مروسة تحت زاوية كبيرة جداً، والتي لم ينتهوا بعد من إعداد متاريسها. وبعد قليل وصلت من دراغون تعليمات تفيد بأن قواعد البرج مصنوعة من الخشب. ابتسامة عريضة ارتسمت فجأة على وجه الأميرال. ماذا ينفعه أن يقاتل رجلاً يقف الحظ بجانبه؟ عليه تحيّن فرصة أفضل. تقدم باتجاه القائد الأعلى فاتحاً ذراعيه.

«لو كنت أعرف هذا الخليج، لكننا وصلنا إلى هنا قبل خمسة عشر يوماً. ولكانت القافلة في أمانٍ هنا أكثر مما لو كانت في تولون».

وأضاف مغمغماً: «سوف أتبعك الآن حتى الموت حضرة الجنرال. سنقوم غداً بالإنزال».

## 5

رغم استغرابه أن الأميرال لا يملك معلومات أكثر منه عن الشواطئ البربرية، لم يبدِ السيد دو بورمون أي ردة فعل. ودون أن يبادل الاندفاع، ترك نفسه بين ذراعي الأميرال الأقصر منه، ليرى عن كثب أنفه الكبير ووجنتيه المائلتين للسمنة وأذنيه الرخوتين المكسوتين بالشعر الداكن، مستنشقاً العبق الخفيف للقبعة ذات الكوزين التي استبدل قلنسوته العسكرية بها. وقد زادت رغبته الجاحمة في الوصول إلى شواطئ سيدي فرج من سخريته.



«انظر كم أنك رائع»، قال، «كنت متيقناً من أمرك حضرة الأميرال». قاربت الظهيرة وما عاد هناك سبب للمراوحة. كل المراسي أقيت تحضيراً للإنزال، واستعد كل المدفعيين، كل الكوى جاهزة لاستقبال المدفيعات في حال الانسحاب، وقد رست برسلو داخل الحوض الغربي، ليفيجيني، ثم لا ديدون التي كانت أكثر قرباً من الرأس الصخري لشبه الجزيرة. وأخيراً لا بروفنس خلف برسلو، على عمق تسع قامات أي خمسة عشر متراً. وقد تلقت السفينة البخارية لو ناجور الأمر بالتقدم وإطلاق بضع رشقات مدفعية على الأتراك.

وفجأة شعر بويشو بان هناك شيئاً خطيراً سيبدأ. من حيث رست لا بروفنس، رأى القبة التي كان الرقيب، المحصن دوماً بالمعلومات والمهوس بأن يبدو متمتعاً بالكفاءة كضابط، قد قال إنها لا بد من أن تكون مربطاً؛ نوع من معبد دفن فيه أحد الشيوخ، وتوابع مزرعة صغيرة، من إسطليل وقن وحديقة وشجر يرتقال ورقع من الشعر والذرة المثمرة، وقد سوّرت بسياج من الصبار الأمريكي يحاذي، قبل الكثبان الرملي الكبير، طرقاتاً مليئة بالأجمات والسنديان الأخضر التي لا يمكن رؤية نهايتها، وبشجر يشبه التين. وإلى يمين الشاطئ، أسفل الهضبة وقبل الأجمات، شجرة نخيل عالية متفاخرة، وحيدة ضائعة. كل ذلك هُجر بعد فرار الفرسان، وكأنهم كانوا ينتظرون شيئاً ما. إشارة ما، وبعدها... أو أن لا معنى لكل هذا، وأن هؤلاء الأتراك أكثر غباء مما كانوا يعتقدون، ولكن بويشو يرى أنه من الخطأ اعتبار الأعداء أغبياء... وبعدها يتفجر كل شيء: البرج، المربط، المزرعة، شجرة النخيل وهم أيضاً، إن كانوا موجودين هنا في المقام الأول.

في الهدوء والصمت المريب الذي ساد الشاطئ بعض الشيء، ومن

مقدمة لا ناجور، أطلقت أولى الطلقات المدفعية، بعد ظهر 13 مايو 1830، طلقات موجزة، ثلاث بفارق ثانية أو اثنتين بينها، ليرتفع بعد دقيقة تقريباً، دخان المدافع قريباً جداً من حيث كان الأتراك يقبلون التراب، أو ربما فوقه، ولتعم المكان فوضى عارمة. إذن، من برسلو في البداية والتي يوازي سطحها لا بروفنس، وثم من البروفنس نفسها، وليفيجيني ولا ديدون، انطلق ما يشبه وابل من البرّد، والذي كان أشبه بدعابة، تبعها مباشرة رشقة ثانية من لا ناجور ثم ثالثة عندما رأوا الأتراك يتفرقون بعيداً كالأرانب تحت وابل القذائف. وحينئذ انفجر الرقيب بالضحك تبعه الجميع دون أن يعرفوا السبب، ولعل الضحك عالياً كسحابة دخان.

«يا لهم من أولاد»، قال بحماسة شديدة الرقيب، «آه، الأولاد...».

لقد تم الانتقام له، هو وبعض آلاف المختلين مثله، من البرودة التي استقبل بها الأتراك أسطول البارون دوبريه أمام شبه جزيرة سيدي فرج. إذ كان من المخزي له، قال لنفسه، أن تنحصر المعركة ببعض هؤلاء الأوغاد الذين مزقوا السماء بمدافعهم بالقرب من شجرة النخيل، فليسقط إذن عليهم المزيد من غضب الرب، وليعلم الأتراك والعرب من هو الجيش الفرنسي.

ضحك أنطوان بويشو أيضاً وهو ينظر إلى باسبوا الرابط الجأش والمتجمّد، بهيئة تأنيب خفية حزينة، غير معني بهذه الكراهية ضد الأتراك وكأنه ليس جيشاً عدواً. في النهاية هم من جاؤوا ليجتاحوا بلاد الأتراك والعرب، لا العكس. فالعكس حصل قبل ألف عام تقريباً وانتهى الأمر بطرد العرب من أوروبا. صغير؟ هو بالأحرى هدير دوامة أو صوت تكسر خشب، صخب وجيز مأساوي يختلط فيه الصراخ بتحطم الأشجار.

توقف الجميع عن الضحك. وعلى متن بريسلو علت الصيحات وساد اضطراب كبير. هؤلاء الأوغاد الأتراك ردوا ببعض القذائف التي سقطت في الماء إلا واحدة سقطت على البريسلو، لترسل إلى بارته كونتيساً أو باروناً أو أي جندي عادي مثل باسبوا أو بويشو. وبطريقة غريزية، وحتى على الدكة التحتية للسفينة أجفلوا وتراجع الجميع إلى مقر قيادة الرقيب. قشعريرة سرت في جسد الأميرال دوبريه. كل التردد الذي عاشه في عاصفته منذ أشهر تلاشى في اللحظة التي سقطت فيها القذيفة على البريسلو وجرحت ملاحاً. وفجأة تجمد وجهه الأسديّ القاسي، نزع قبعته وهز رأسه كأنه عرف أسد. وسط مصاعب التواصل والتناقض، أخذ يتحرك متمتماً مدممماً شامئاً. في المبدأ كان يجيب دائماً بلا، ولكنه لم يكن يحصد من ذلك سوى فرح مرير يجره إلى وحدة أكثر وحشية. طبعه الشرس هذا هو الذي حقق له شهرته وكانوا يتسامحون دوماً مع مشكلاته في التواصل مع الآخرين بسبب مآثره مع الإنكليز. ألم يتخذ خياره هذا بسبب انطواء الحملة على خطر مواجهة أخرى مع البحرية الإنكليزية؟

بالغريزة، شعر البارون أنه مع الطلقة المدفعية الأولى للأتراك، وجد الطريقة لكي يعيد الاعتبار لنفسه. حتى الآن لم يفعل شيئاً سوى الدفاع عن نفسه بمواجهة الرياح والبحر وقصر النظر والانتقادات والحسد والحماقة والرعونة. وبوجود عدو أعلن عن نفسه يمكنه أخيراً أن ينطلق في المواجهة، استعاد البارون دوبريه حيويته الساخرة التي يمتلكها بقوة، وفي الوقت نفسه جرأته التي جلبت له الشهرة منذ عشرين عاماً. وعلى غير عادته لم يصدر منه أي رده فعل، وإنما فرحاً داخلياً أشعله. وبيرة مقتضبة بطيئة، يتخللها صمت مهيب، وزع أوامره التي ترجمت بسرعة بالإشارات. لم

يفكر للحظة بإخفاء أسطول المعركة الراسي في الميناء بهدف تحييده عن الضربات. فالبحرية مجهزة بقوة مدفعية هائلة ويكفي القليل منها للرد على العدو. إلى الشرق، السفينتان الحريبتان لافيكتورياز ولاكريول، بقواعدهما المدفعية التي لا كوى لها، وإلى الغرب السفينتان البخاريتان، لوسفينكس ولورايد، انفصلت عن الأساطيل. وأخذ الجيش برمته يراقب بصمت هذه السفن وهي تتقدم نحو عنق شبه الجزيرة، قاصفة برشقات مرعبة المدفعية التركية المتمركزة في تحصينات تحت الأرض والتي بدورها أخذت ترد بغضب، وقد أثار كل هذا اللهب والدخان المنبعث من هذه البوارج الصغيرة الإعجاب. لم يكن كل ذلك سوى جزء صغير مما يمكن أن تبديه قافلة البارون: لتتخيل ماذا يمكن أن يحصل إذا شاركت الفرقاطات بمدافعها الستين والسفن الحربية في هذه الرقصة. واصلت السفن القصف حتى اضطر البارون إلى إيقافها بابتسامة. ارتفع الدخان من الجبل خلف الهضاب، وتساعد الهتاف ثانية عندما اقتربت السفن الأربع.

## 6

بعد الظهر، خفت ضوء الشمس، وخفّ الهواء أيضاً شيئاً فشيئاً، وتحت إلحاح الجنرال تولوزيه النائب الثاني لقائد الأركان، قرر السيد دو بورمون أن ينزل فوراً شعبة على الأقل مع طليعة قوية، ولكن وبسبب خوفه من الوقوع في كمين، تراجع عن ذلك. ولكن الأمر بالتراجع وصل في اللحظة التي كان فيها لواء البارون بوريه دو مورفان قد بدأ بالنزول إلى الزوارق. التراجع كان سببه تحركات الأتراك المفضوحة، أكانوا يتعمّدون ذلك أم أنهم يجهلون سبل الاختباء. مئات من خيالتهم بدأوا بالتفرق

في الأجمات واجتمعوا أخيراً حول المزرعة. قائدان مدثران بالأحمر وبعطف أبيض يتبعهما عدد قليل من الجنود، كانوا يتقدمون فوق تلةٍ وبقوا هناك نحو الساعة يتأملون قافلة البارون دوبريه، ثم تراجعوا ببطء خلف الهضاب باتجاه الأعالي الجنوب شرقية. ما كان السيد دو بورمون ليقترب أبداً فظاظة أن يطلب من الأميرال إطلاق النار عليهم. فدراسة الميدان من قبل الجزرات تدخل في إطار الآداب العسكرية. إذ لا يجوز البتة منع العدو من الاطلاع على الجيش الذي يواجهه.

أقيم العشاء متأخراً للمرة الأولى، ودام طويلاً، بيد أنه كان صامتاً مريباً. الأميرال نفسه بدا قلقاً. الكثير من الأجمات على العديد من الهضاب المحاذية للشاطئ، دفعت بالضباط إلى الاعتقاد أن الأتراك يخفون الكثير من القواعد المدفعية التي سيكشف عنها لحظة الإنزال، وبأنهم سيركبون الزورق للوصول إلى أقرب سفن أسطول المعركة الراسية. ومخافة الحاجة إليها لم يشأ الأميرال أن يبدد ذخيرته، كما لم يشأ عدم الإفادة من الحماية التي يوفرها الميناء لأسطوله الآن، فتحركات إضافية من شأنها أن تضيع الكثير من الوقت وتؤخر العمليات المتوقعة فجراً. وفي كل الجيش كانوا قد بدأوا يسمون سيدي فرج سيدي «فروش»<sup>(1)</sup>.

غابت الشمس في البحر وسط ظلال ذهبية تبددت بسرعة ليحتفظ جبل شنوة المعتم لبعض الوقت بشريط أرجواني. بدأ الليل وسط الصرخات والأناشيد المتصاعدة من السفن باتجاه النجوم. فرغم الاحتفاظ بالصمت فإن عملية توزيع علب الخرطوش وحصص خمسة أيام من المونة لكل رجلٍ تسببت بالكثير من الهرج والمرج. وبحماسة عالية، وعلى ضوء

(1) Farouche بالفرنسية تعني الجبان.

المشاعل بين جسور السفن، وبينما كان الرقيب مديراً ظهره، انقضوا على  
مطرات النبيذ. وهذا ما لم يكن يملكه الأتراك.

## قضية بكري

### 1

عندما ظهرت القافلة للمرة الثانية، بعد تلك الظهيرة، واستعرضت نفسها أمام مدينة الجزائر، لم يتمكن الداوي حسين من إشاحة النظر عن المأساة التي توعدوه بها منذ سنوات. وقف على شرفة قصره، مخفياً خوفه في البداية تحت ستار الغضب. لقد كان الحاكم الأول، وخشية من أن يتعرض للخداع، لم يسمح لنفسه بالتراخي. فرغم أنه استلم السلطة بعد موت سلفه علي خوجة<sup>(1)</sup> ميتة طبيعية، بالأحرى دون اغتيال، وأنه احتفظ بمعظم وزراء سلفه، غير أن طاملاً لازمه الشعور بالخطر. لم يشهد عهده أي محاولة انقلاب جدية، ولا أي اضطراب، باستثناء مسألة الديون المزعجة

(1) علي خوجة هو الداوي التركي الحاكم للجزائر الذي سبق الداوي حسين، وهو الداوي الذي شهد عهده الكثير من الاضطرابات وتعرض للكثير من محاولات الانقلاب والاغتيال بسبب سياسته المتشددة مع خصومه ومع من هم من غير المسلمين حيث عرف عنه انتزاع صفار اليهود من عائلاتهم وتحويلهم للإسلام، وقد مات بالطاعون الذي حل بالبلاد في العام 1818. خلفه الداوي حسين المولود من عائلة تركية الذي تلقى دروسه في تركيا، وعمل في التجارة التي أربحته ثروة طائلة كما كسب ثقة الجميع وبمن فيهم الإنكشاريين، فعين داياً للجزائر خلفاً للداوي علي الخوجة وقد يميز عهده بالاستقرار حيث صحح سياسات سلفه وبنى علاقات جيدة مع جواره أيضاً وكان محبوباً بين الناس. وكان آخر الدايات على الجزائر. وكانت نهاية حكم الداوي حسين باشا بتوقيع معاهدة التسليم 5 يوليو 1830 حين غادر بمقتضى نص التسليم مع الفرنسيين مدينة الجزائر، فركب سفينة جان دارك بعد غروب الشمس يوم 10 يوليو 1830 برفقة 108 من أفراد أسرته وحاشيته واستقر بليبفون بإيطاليا في 24 أكتوبر 1830. التي أقام بها ثلاث سنوات، ثم تحول إلى الإسكندرية بمصر بنية أداء فريضة الحج، فأقام بها في 23 سبتمبر 1833 معترلاً السياسة في قصر خصص له مع حاشيته، إلى أن وافته المنية في أثناء خروجه من المسجد في 30 أكتوبر 1838 عن عمر ناهز الثالثة والسبعين عاماً.

التي ماطلت بها فرنسا. فالحصار الذي فرضته منذ ثلاث سنوات أدى إلى ركود التجارة وشح الموارد. وقد تصاعد الغضب. اتهموه بالعناد، أي حجة مخادعة تلك؟ لعدم إنهاء الأمر. أي مصلحة له في تعقيد الأمور؟ ببساطة كان يحاول حفظ كرامته أمام الثراء والعنجهية الأوروبيتين. وها هي الأحداث تأخذ الآن مساراً دراماتيكياً. استدعى وزراء والمفتي الأكبر وأرسل على وجه السرعة بمبعوثين إلى كل سلطات البايات طالباً المساعدة. وهل كان بحاجة إلى أن ينظر في منظاره وكأنه لا يصدق عينيه؟ لقد جاء الفرنسيون. كانت لديهم الجرأة لتحديه من بعيد عبر الحصار، ولكنه لم يتخيل أن يقتربوا إلى درجة وضعه في مرمى مدافعهم، مستعدين، كما أخبروه بكل وقاحة، للإنزال.

ما عاد يفهم شيئاً. هو ضابط الرماية القديم «مثل بونايرت» - كان يحب تكرار ذلك - وقد خدم كل مدته تقريباً في القسطنطينية، قبل أن يرسل إلى الجزائر، وعند موت علي خوجة بالطاعون، اختاره العسكر بسبب حزمه وعدله وطيبته، وإيمانه أيضاً، إذ أنه كان يطبق الدين بصرامة ولم يكن متزوجاً سوى بامرأة واحدة.

بالنسبة إلى البرابرة، كما في السابق، فإن الرجال النحفاء يستدعون إما الشفقة وإما الشك. هو وفي سن الخامسة والستين، بمهابة لا يقلل من شأنها قصره تكسبه الثقل الذي ينبغي توافره لدى أهل الخير. فما الذي عليهم أن يخافوه من أمير، يوحى بحق بامتلاكه ثلاثمائة ليرة، لأن لديه مائدة عامرة وخداماً مخلصين، فالحياة الكريمة التي عاشها معروفة للقاصي والداني. كان يتحاشى الفاسدين والفساقين ويبحث عن البساطة في الحكم ما عدا عندما يتعلق الأمر بإيصال الرسائل الخارجية عن حجم نفوذه: خمسون



من العبدات السود الحسنات من الواحات، وجيش حسن التجهيز، ولو بأجور زهيدة، من أجل الدفاع عن الجزائر.

إن لم يكن كذلك، فكيف كان سينظر إليه؟ لم يعد يرغب في صرف الأموال، منذ أن شحت الموارد أو بالأحرى انعدمت، وبلاد بلا موارد تكلف الكثير. كان يتأمل نقطة ضعفه الوحيدة، من تحت نظارتيه الدائريتين بإطارهما الذهبي: تمتد عبر الأروقة والردهات وتمتعه على امتداد النهار. كل ربع ساعة، أربعمئة بندول تملأ كالعصافير الدنيا بغنائها. لقد عرف أولئك النصارى الذين لا يكفون عن مراجعة ساعاتهم ويحددون مواعيدهم بالدقيقة، عرفوا جيداً كيف يصنعون للوقت أصواتاً مبهجة، على الرغم من أنهم يجهلون استخدامه. فما إن تدور الآلة المبدعة في ساعات الحائط هذه، حتى يبدأ أناس أو حيوانات بالرقص أو بإلقاء التحية. فقد أولى الحسين للنصارى هذه المهمة، ولا شيء آخر. لم تكن له يوماً جارية، كما يفعل الكثير من حكامه الذين يشربون الخمر ويأكلون الأطعمة المحرمة مع النساء.

عبر الرسائل التي تلقاها من فرنسا عبر تونس وعبر الصحف الباريسية التي أرسلها له عملاؤه في مالطا وفي جبل طارق<sup>(1)</sup>، كان يتوقع إنزالاً منذ عدة أشهر. لا بل يعرف مكانه أيضاً. وقد نوقش ذلك مطولاً في مجلس الوزراء، حيث أبدى وزير المال وقائد الشرطة ووزير البحرية اقتناعهم بأن في ذلك شركاً: هل يمكن أن يعلنوا على الملأ نواياهم وهم يتحضرون للهجوم؟ فالفرنسيون بحسبهم لا يمكن أن ينزلوا في شبه جزيرة سيعانون للخروج منها، بل إنهم يأملون على ما يبدو بأن يقع الجزائريون في شرك

(1) جبل طارق التي كانت في ذلك الوقت منطقة حكم ذاتي تابعة للتاج البريطاني.

إفراغ قواتهم من الميناء لنقلها إلى سيدي فرج ومن ثم ينزلون في ميناء الجزائر قليلاً لجهة الشرق في الموضع نفسه الذي سبق للإسبان أن نزلوا فيه. وعلى عكسهم، كان قائد الجيش، الآغا يحيى، يخشى السيطرة على المدينة من الخلف. فالآلية المدفعية المتحركة للأوروبيين تتيح لهم اجتياز مسافات طويلة وإطلاق حمى هائلة أمامهم. كما كان يعتقد الآغا أن عليهم منعهم بأي ثمن من الرسو، وأن يعزروا قوة سيدي فرج بالقوات المدفعية والإمدادات. آخرون رأوا أنه مع التعزيزات التي تمت في المدينة وفي منطقة القبائل والقسنطينية ووهران، فثمة ما يكفي من القوات لتدمير المهاجمين لأنهم قد يتعرضون لنقص في الخيالة.

وافق الداوي على الرأي الأخير الذي بدا له منطقياً وفي الوقت نفسه ناجعاً. لماذا تبديد المدافع والمال بعيداً عن الجزائر؟ وساد شك كبير. عندما يصل الروم، إن وصلوا، سنقرر. حتى الآن كل من حاول تدمير الجزائر عرف إنزالات كارثية، فالبحر كان أفضل حليف للعرب.

لم تكن التحضيرات للحملة، على أية حال، خدعة. فحسين يعرف عدد البوارج التي جمعت في تولون، وقد رأوا قبل خمسة عشر يوماً قافلة حربية مذهلة ظهرت وسط طقس سيء وغيرت اتجاهها واختفت. ثم قامت مجموعة كبيرة من السفن التجارية ومن الزوارق بتمشيط الشاطئ ووصلت أمام سيدي فرج ثم ابتعدت بدورها. أهو مجرد تهويل؟

## 2

بعد الرعب الداخلي الذي سيطر عليه لوقت، استجمع الداوي قواه،

فلسفه أحسن الفعل عندما غادر، بحكمة، المبنى الهائل للجنينة<sup>(1)</sup> في أسفل المدينة. ففي إحدى الليالي، فرض منع التجول بحجة اضطرابات وهمية، نقلوا الأثاث والصناديق والسجادات على ظهور البغال، وصعدت القافلة بحراسة فرقة من النوبة وسط عزف النايات وقرع الطبول، باتجاه القصر. وعندما أصبح خلف المتاريس وخلف باب القصر بالجسر المتحرك والسلاسل، أديرت المدفيعات باتجاه المدينة بحجة حماية القصر من عدو دخل المدينة. كانت القصة تشرف على كل المدينة حتى الميناء، وعلى كل التحركات. هنا فقط، مثل علي خوجة يشعر بأنه سيد هذه الأرض. يتحسس مقبض سيفه القرمزي في حزامه، لابساً سرواله الفضفاض، متدثراً بجلاية مطرزة من الجوخ الناعم، تصل حتى لحيته الشائبة، ويغطي رأسه لفاح حريري يلامس طرفه أذنيه.

إنه لا يصدق أن فرنسا أرسلت كل هذه القوات لتحقيق نصر غير مؤكد. وكما علم أيضاً، كادت تحرك سلطان مصر ضده، وهذا ما يتجاوز الاتفاق بينهما. كانوا راغبين في رؤية مسلمين يتقاتلون فيما بينهم، وأن ينقض المصريون على الجبال كسحابة من الجراد تلتهم كل شيء وتحول الجزائر إلى بلادٍ بائسة تشبه بلادهم. وحتى بعد انكشاف مخططه، تجرأ محمد علي على أن يبعث للحسين النصائح بالاعتدال والصدق. ساخطاً، ردّ عليها الداوي برسالة يدعوها فيها إلى مواصلة زرع الفاصولياء والبقول، وعند الحاجة المسلات لأصدقائه المسيحيين، وأن يدعه وشأنه. آه، الداوي حسين لن يقيم بعد الآن الكثير من الأوهام حول إعلانات الصداقة ومواثيق التعاون

(1) الجنينة هي ضاحية واطنة في الجزائر كانت تضم مقر الداوي، والذي غادرها الداوي علي خوجة سلف الداوي الحسين، وانتقل بطريقة موهمة في إحدى الليالي ليتحصن في منطقة القصة المشرفة على المدينة، خوفاً من المؤمرات ومحاولات الانقلاب عليه.

بين دول من الدين نفسه وحول إخلاص التابعين. لقد عانى كثيراً لفرض سيادته على أتباعه وإحباط مؤامراتهم. بالنسبة لأهل تونس وطرابلس، لا يجهل حسين أنه، بالرغم من تمنياتهم بالنجاح وضماناتهم الدينية، وتصنعهم، فإنهم مستعدون لخيانته من أجل طبق من الحمص.

من سوى الله يمكنه الاتكال عليه؟ فهو لم يشك، دون أن تتوافر لديه الأدلة، بنية الآغا يحيى باغتيالها، وقد استبق ذلك واتهمه بالخيانة وأعدمه تحت جنح الظلام من دون محاكمة، وعين خليفة له هو صهره إبراهيم. وهكذا كشفت المؤامرة الأولى المحاكمة ضده. إذ كانت الخطة تقتضي أن يزوره في القصبه يوم عيد بيرم<sup>(1)</sup>، ستة وأربعون إنكشارياً، يرافقهم الوجهاء والأعيان في ولاية العرش، حيث يقومون بقتله. بعد أن أحبط الدااي هذه المؤامرة تمترس في قصره.

أكثر البايات<sup>(2)</sup> إقلاقاً هو ذلك الجريء مصطفى، باي التيتري<sup>(3)</sup>، الذي حاول تأسيس نوع من الدولة الوطنية يشكل قوامها الهجينون من الأتراك والعائلات الجزائرية الكبيرة، والذي لم يتمكن من إخفاء غيظه لرؤية إبراهيم يعين آغا، لأنه يعتبره غير مؤهل؟ خلال اثني عشر عاماً من الحكم وخلال ثلاثين عاماً من الخدمة في الجيش، فرض حسين الشروط التي تصنع جزرات جيدين: النصف للكرامة والربع للذكاء والباقي للولاء. فهم لا ينقصهم الضباط الجيدون إنما قلة منهم فقط يتمتعون بهذه الخصائص، وأولئك القادرون على مواجهة الإغراءات لا يتخطون عدد أصابع اليد الواحدة. ما كان ليقسم بأن إبراهيم لا يرغب في أن يصبح من

(1) وتعني باللغة التركية العيد ويقصد هنا العيد الكبير.

(2) الباي وهي رتبة حاكم أيام العثمانيين وتأتي بعد رتبة «الدااي».

(3) التيتري إمارة في الجزائر أيام الحكم العثماني.

كبار الأثرياء وبأنه لا يفوقه ذكاء، بيد أنه يتمتع بما يكفي ليكون جنرالاً. فعكس ما كان يقال، لم يكن إبراهيم ساذجاً، بل يتمتع بحسّ جيد، ولكونه صهره، كان عليه أن يكفي ومن دون عجلة، بانتظار العطايا والمنافع مثله مثل وزير البحرية الذي تزوج الابنة الثانية للداي. وبذلك اعتقد حسين أن بإمكانه أن يعتمد على البحرية والجيش: بالنسبة لبلاد مثل الجزائر، فإن الشخصان الأساسيان، أي وزير البحرية وقائد الجيش، لديهما مصلحة في بقاء الداوي في الحكم، لأن أيّاً من الهدايات غيره كان ليمنحهما منصباً لا يستحقانه سوى لمواظبتهما وطاعتهما. فإذا هو سقط سيسقطان معه. إذ كانت تكفي مراقبة مصطفى لمعرفة مدى لا أحقية ذلك التعيين، مصطفى الذي ما كان ليتسامح مع أي خطأ، والذي كان في إمكانه مع الألف والمائتين من عسكره التركي والتسعة آلاف من الخيالة وخدمهم، أن يحقق التوازن.

لا بدّ من أنه امتحان من الله، إذ يأتي هذا بعد أربعين يوماً من انتهاء رمضان، تماماً كما قبل ثلاث سنوات، اندلع ذلك الحريق، الذي تسبب به كلابه الخونة، والذي يُسمّى بـ «حادثة المروحة». فقد راجع الداوي الأرشيف مراراً وحفظ ما فيه عن ظهر قلب. واسودّت يده من الغبار وهو يقَلّب في أكوام الرسائل القديمة للوزراء والملوك. وفي واقع الأمر، بدأت هذه المباحكات، منذ أن اقترح على الجمهورية الفرنسية أن يمدّها بالخيول والحبوب والزيوت وحتى الأموال، خلال حربها ضد أوروبا، حين كتب أحد أسلافه سيدي حسن، في الثاني عشر من يوليو 1795 إلى أعضاء مجلس الأمن الوطني<sup>(1)</sup>، موضياً بوكيله في مجال الاستيراد والتصدير

(1) Comite de Salut public: أول جهاز لحكومة الثورة الفرنسية أوصى به الميثاق من =

يعقوب كوهين بكري. بدأت القضية في ذلك اليوم، ومذاك باتت تعرف بقضية بكري.

### 3

عبر الداى حسين بحركة من يده عن انزعاجه. مؤسسة بوشناق وبكري قامت في العام 1770 من قبل ميشال كوهين بكري، الملقب بين زاهوت ونفتالي بوجنة ببوشناق، وكلاهما من اليهود الذين لجأوا من إسبانيا إلى ليفورن<sup>(1)</sup> وقد جاء بحثاً عن الثروة في الجزائر. كيف تخلى أسلاف حسين باشا تدريجياً عن سلطاتهم إلى درجة أنهم تحولوا إلى متحدثين باسم الآخرين؟ كان بوشناق وبكري متنفذين لديهما وكلاء في كل دول المتوسط وفي أهم بلاطات أوروبا، يقوضان كل المؤسسات المنافسة لهما ويشغلان بالتهريب مع شتى الوزراء والقناصل وصولاً إلى أمريكا، كانا أسياد الموانئ والبحار والتجارة والمعتقلات، يقيمان السلم ويفضونه بواسطة الدايات. بوشناق وبكري كانا ملكين على الجزائر طوال خمسة عشر عاماً، حتى مذبحه العام 1805. فمن أجل ضرب اليهود كان يجب ضرب الداى مصطفى.

كيف تعامل اليهود مع الأمر؟ بعد عدة أشهر من المجزرة، خرج من بقي حياً من السجن وعادوا من جديد مستشارين سرين. لقد أداروا جيداً قضية الديون الفرنسية المستحقة لصالح العرش، وورطوا العرب في فخ شراء الحبوب وتوزيعها من خلال أرصدة دين، لم تدفع يوماً للداى. لأنه

= أجل التصدي للمخاطر التي واجهت الجمهورية في العام 1793.

(1) Livourne هي مدينة إيطالية ساحلية.

في النهاية، كل الحبوب التي بيعت للفرنسيين، لم يتقاضى العرب ثمنها. يا لقدرة أولئك المغوين على تلميع صورة الفوائد المتراكمة مع الوقت! يا للسراب الذي يرسمونه! حتى في لحظات نفاذ صبر داي ما وتقريره قطع رأس واحد من آل بكري، كان مجبراً على تحييد الباقي لإنقاذ أمواله. لا ريب أنه لولا الحروب التي مزقت باريس والقسطنطينية وورطت ولاية العرش بقرارات مؤسفة مع فرنسا، لكان قد تم وفاء الديون. لذلك أيضاً، فإن القنصل ديفال في الجزائر منذ العام 1815، تمكن من الإيحاء بالكثير من الأمل، وفي 1818 عندما استلم حسين الحكم قدم له مقابل هداياه، علاقة صداقة خاصة وطويلة، وحصاناً وواحدة من أجمل المروحيات في الشرق.

في تلك الحقبة، كان من الضروري إعادة الإزدهار وكسب الوقت أكثر من التعلق بمؤسسة بكري التي أعلنت عدم قدرتها على دفع ما عليها. كيف يمكن التضحية بآخر سلالة بكري، يعقوب هذا، دون التضحية بالدجاجة التي تبيض ذهباً؟ كان يعقوب يمثل الدار أمام الجمهورية والإمبراطورية في باريس. يعقوب، هذا اليهودي القلق الفضولي ذو السمات الساذجة، الذي استضافه بونابرت على العشاء وتقرب من تالايرون<sup>(1)</sup> الذي بقي وزيراً لفترة عودة الملكية، وعاش طويلاً في الصالونات الباريسية وعشق راقصةً فرنسية شهيرة قبل أن يتزوج بعدها في الجزائر، ادعى أن الحكومة الفرنسية الجديدة ستدفع له قريراً أربعاً وعشرين مليون فرنك، سيكون لحسين النصيب الأكبر منها.

(1) Talleyrand والمقصود به Charles-Maurice de Talleyrand-Périgord (1754 - 1838)

الذي كان شخصية فرنسية معروفة جداً وتقلب في الكثير من المناصب العليا السياسية والدبلوماسية. تخصص بداية في المجالات الاقتصادية ثم الدبلوماسية.

في 1819، أوصى قرار مؤتمر آخن<sup>(1)</sup> بإرسال أسطول فرنسي - إنكليزي يفرض على الداوي إيقاف عمل القراصنة. رد حسين بأن ولاية العرش ليس لديها سوى التجارة مورداً، وبأنهم سيتابعون زيارة السفن وتوقيف من لم يدفع منها رسوم الإبحار. وعندما فكروا بفرض ذلك بالإكراه، تذكروا أن آخر قصف للجزائر من قبل اللورد إكسموث كلفهم الكثير. لم يصروا وبدأوا بالبحث عن حل آخر. وقد سنحت الفرصة عندما تسلم مدير سابق لصندوق الفائدة، نيكولا بليفيل، في باريس مسؤولية وكيل بكري. وكي ينسوا الداوي فظاظة بونابرت، راجعت حكومة لويس الثامن عشر وثائق التمويل. اعتقدت هيئة المال في الديوان أنه إذا أصّر السيدان بوشناق وبكري، يمكن إحالة الملف إلى اختصاصيين وهذا ما يتطلب وقتاً، ولكن إن قبلا بخفض المبلغ إلى سبعة ملايين، فيمكن تسديدها بوقت قريب على دفعات كل خمسة أيام، على أن يدفعوا للداوي ما مجموعه اثني عشر قسطاً، تبلغ قيمة كل منها خمسمائة وثلاثة وثمانين ألفاً، وثلاثمائة وثلاث وثلثين فرنكاً وثلثة وثلثين سنتاً.

لم يتردد يعقوب بكري كثيراً، توقع بأنه سيضطر كثيراً للعب على الحبلين حتى يضطر طرفاً قضية الديون إلى التفاهم من خلال مؤسساتهم أو عائلاتهم، وأقسم بصوتٍ باكٍ واضعاً يده على قلبه بأنه لن يخرج من هذه القضية إلا عارياً مثل يرقه، وأن الملايين السبعة التي أذعن لمبدأ استلامها كاتفاق مؤلم لن يذهب منها شيء لحييه. وقد أدار القضية جيداً لحد أن أحداً من المفوضين لم يستغرب شطب اسم الداوي من قائمة الدائنين. وباسم ولاية العرش أعلن الداوي عن رضاه وانتهى كل شيء. وعليه، طلب

(1) آخن Aachen كما تلفظ بالألمانية هي مدينة تقع غرب ألمانيا.



يعقوب وبرعاية من القنصل مقابلة حسين ليشرح له كيف أن مشروطيات سير العملية تعود للتعقيدات الأوروبية، حيث اعتبر، هو يعقوب بكرى، بأنه أنقذ ما يمكن إنقاذه وبأن الداى سيكون سعيداً.

في الجزائر، يحذر التركي جانب اليهود أكثر مما يحذر جانب العرب والروم. من جهته قلق الداى من عدم اعتباره من بين الدائنين على الرغم من أنه لم يتلقَ بعد ديونه المستحقة بيد أن القنصل طمأنه. هذا سيأتي بصورة تلقائية ومن غير اللائق، بل من غير الطبيعي التذكير به: فمع ما سيقبضه بكرى سيعوض على شركائه وسيعرف الداى أياماً سعيدة. نسي يعقوب فقط أن يقول، إنه وإن حصل بأعجوبة وعاد له القليل من الديون، وبعد أن نجح في نزع سلاح الداى القانوني، إنه كان قد اعترف أمام كاتب العدل وفي خطوة قوية ومشرفة في أوساط الأعمال الفرنسية، بأنه يدين بأكثر من مليون فرنك لرجل ما اسمه موري والذي ليس في الحقيقة سوى هو نفسه.

أضاع الداى ثلاثة أشهر سدى. وعند هذه الذكرى، أفلتت منه ضحكة ساخرة. كيف سمح لنفسه بالخضوع لسحر القنصل، رجل وسيم في الحقيقة ووجهه يوحى بالإستقامة؟ ربما لأن ديفال يأتي بعد اللثيم دوبوا - سينفيل، الذي سبب الكثير من المصائب. أحد أسلاف حسين شكر لويس الثامن عشر وتالارين لاختيار ديفال ووصفه بأنه يمتلك حساً فكرياً وسياسياً وتعهد له بالاحترام والمساعدة. من جهته، بما أن حسين اعتقد أنه لمس لدى الغرباء تحفظاً أقرب للاحتقار لقنصل فرنسا، فقد احتضنه وتعلق بواحد من القلة القليلة في الهيئة الدبلوماسية الذين يتكلمون التركية، والوحيد الذي لا يسمع النقاش وتفصيله فحسب، بل يعرف العادات

أيضاً. فالتحاور باللغة نفسها قد يقرب أحياناً بين شخصين لدرجة قد يحسبان بعضهما قريين بالدم: روابط قري تعقد، وتحرر غالباً من التحفظات الصرامة. تأمل الداوي أن يتدخل هذا الرجل بطريقة فعالة في قضية ما زالت تجتر نفسها منذ ستة وثلاثين عاماً. خضع لضمانات القنصل وأعطاه موافقته.

وعندما اشتم مخبرو المجالس، المراوغة اقترحوا تعديلاً وتعجل الوزير لجعل الملك يضمنه معنوياً فتم التصويت على القانون.

من كل مكان، وحتى من ليفورني، ارتفعت أصوات المعارضين لحد أنها تخطت عدد المصوتين. لم يهتم يعقوب بكري: فما إن علم بالتصويت، حتى قام، دون علم أحد، بتحويل دينه للدولة الفرنسية إلى سلسلة من القروض المكثفة المدفوعة نقداً. بالنسبة للداوي، وبسبب مدهانات القنصل، انتظر مطمئناً بهدوء أن يطلب منه يعقوب حراسة لنقل صناديق الذهب التي سيدفعها له الفرنسيون إلى القصر في القصبية، جاهلاً بكل ما حدث. مرت الشهور والسنين إلى أن نفذ صبر حسين. في الجزائر التي كانت قد بدأت تطبق التوقيفات القضائية، ثار ضد الماطلات والانتهاكات القانونية للفرنسيين، ولاحق يعقوب ورماه في السجن. إذن وبأمل توريط آخرين معه، اعترف يعقوب بأنه دفع مليوني فرنك رشى لوكيله ولقنصل فرنسا.

مخدوعاً من قبل اليهود وديفال، توجه حسين باشا في 1826 إلى شارل العاشر ليطلب منه أن يرسل من حسابه الخاص ودون إرجاء أو تأخير السبعة ملايين التي صوت عليها، مضافة إليها الفوائد والرسوم، وأعلمه بأنه سيترد القنصل إن لم تستدعه حكومة الملك. حاول وزير الشؤون

الخارجية في البداية إفهام الداى بأنه تلقى كل التعويض كما شهد هو على ذلك قبل ست سنوات: دفعت وزارة المالية الفرنسية ديونها، أما تقسيم باقي المبلغ المدفوع في صندوق الفوائد والودائع ينتظر حكم المحكمة. وبالنسبة للاختلاس الذي يتهم به الداى القنصل، فذلك غير وارد.

كانت الرسالة محملة إذن بكل مؤشرات السخرية والتجريح والتعالي وهي مصطلحات تعززت في كل الدوائر وفي وزارة الشؤون الخارجية. من أجل ختم الرسالة التي يتحضر بارون دو داماس، وزير الشؤون الخارجية لإرسالها للداى، استحضر آخر مضايقات ولاية العرش: سفن فرنسية نهبت وأهينت رايتها من قبل القراصنة الجزائريين. سفن أخرى بابوية حُطفت رغم الوعود المتكررة التي قطعت لأصدقاء. وتتضمن الرسالة طلباً من الملك للداى بمعاينة المسؤولين المذنبين وتوقيف الرحلات البحرية، ودفع بدل السفن المختطفة، والتعويض واستعادة العلاقات الجيدة مع القنصل الفرنسي، وإلا فسيضطر الملك إلى استخدام القوة التي وضعها الرب بين يديه من أجل إحقاق العدالة.

هذا أهم ما جاء في الرسالة التي فكر بارون دو داماس، بإرسالها في 1827، إلى الداى حسين المسكين والتي عرضها على أحد المستشارين لقراءتها. الحكومة المصدومة أعلنت رفضها للرسالة إذ رأت أنه يجب ومن دون تأخير الرد على هذه الإهانات الجديدة بالهجوم على الجزائر. فلن يعطوا لبربري شرف الرد برسالة مكتوبة، وكلف القنصل ييار ديفال بأن يشرح للداى حسين أن التماسه غير مقبول.

## 4

هذا العام، يصادف عيد بيرم، الأول من مايو في التقويم المسيحي. وعلى كل ممثلي الدوائر الأجنبية، حسب التقاليد، أن يهنئوا الداى. عندما علم الداى أن القنصل الفرنسي طلب لقاء خاصاً، اعتقد أنه يحمل معه رسالة من الملك.

خلف خادم على ظهر بغل، امتطى القنصل ظهراً صهوة حصان إلى القصبة، وعبر الطرق الزلقة وغير المرصوفة جيداً إلى أعلى القرية. عند الباب الخلفي المزين بالفوانيس المذهبة وبالسفن الصغيرة، ترجل وتبعه انكشاري عبر الباحات المرصوفة بالرخام الأبيض والنواعير. من رواقٍ إلى آخر، وعبر الدرج المؤدي إلى حجرة الانتظار حيث كان الداى ينتظر جالساً على مقعدٍ بين الضباط في مناخٍ تمتص فيه السجاجيد الخطوات والأصوات، ثم قدموه للداى. في كشك من خشب السدر، استقبله الداى جالساً في الديوان على الطريقة التركية. أن يعتبر نفسه مولانا السلطان شخصياً لأن الجزائر نجت دائماً من الأخطار، حسين باشا لم يكن سوى تابع للقسطنطينية وسيأتي وقت لا معجزات فيه لتنقذه. على مستوى الحكومة الفرنسية، لقد تم حل موضوع الديون. فأن يكون الداى قد خدع فهذا ما ليس فيه شك. وقد اتهم حتى ديفال بالاختلاس. ولكن بأي دليل؟ ليس هناك أي دليل. فمنذ ذلك الاتهام الذي كان بإمكانه أن يطيح به، أمسى ديفال بدوره حذراً وانتقامياً.

بعين صفراء شكاكة استقبال الداى القنصل بجفاء. في هذا اليوم، بما أن الحرارة ارتفعت وبدأ الذباب ينتشر في الجزائر، استعمل لإبعادها منشة ذباب لها مقبض من خشب الزيتون وبذيل حصان، هذه هي المروحة.

جرت المقابلة بالتركية دون مترجم بحضور سكرتير ووزير. بفرح خبيث سأل الداى في البداية القنصل عن شائعة إعلان إنكلترا الحرب على فرنسا. فرد القنصل بالقول إن هذه الإشاعة مصدرها البرتغال حيث انفجرت الأحداث التي رفضت فرنسا التورط بها كرمى للبريطانيين.

- هكذا إذن، هتف حسين، فإن فرنسا تقدم للبريطانيين كل ما يريدونه، وأنا لا شيء!

- حكومتى، أجب ديفال، أعطتكم دائماً بقدر ما تستطيع.

هذا الجواب هو الذي احتفظ به القنصل لنفسه، في تقرير نجح الداى في الحصول على نسخة منه.

إذن، لم يزعج ديفال نفسه سوى بالقول إن حكومته لن تجيبه بعد اليوم؟ «لأى غرض؟» سأل الداى نفسه. لكي يتحدها، حازماً، متماسكاً، بابتسامة خفية على وجهه؟ ثم ألا يكذب ديفال هذه المرة أيضاً؟ لا، لم يعد هناك اتفاق ممكن مع رجل سرق مال بكري الذي يعود إليه أساساً. تذكر الداى أن القنصل تخلى لسلفه عن شابة يهودية من بين الخدم، أرادها الداى السابق لحريمه، كما كان الوحيد الذي يقدم خدماته للشرطة في اللحظة التي كانوا يسجنون فيها القبائل المتمردة. فرجل مثله لا يمكن ألا يكون مخادعاً.

أمام استغراب الداى لعدم تلقيه رسائل هو الآخر من الحكومة الفرنسية، أكد القنصل في تقريره أنه في البداية بقي صامتاً، لكن ذلك لم يكن صحيحاً، إذ قال القنصل، ودائماً بالتركية: «الملك لا يضيع وقته بالإجابة على شخص مثلك»، هذا ما قاله، وليس كما ادعى أنه وتحت ضغط إلحاح الداى قال له: «كان لي الشرف، لو تلقيت الجواب بأن

أحمله لك فوراً». إذن انفجر غضب الداوي بالعبارات الفظة المستعملة هنا والتي خطرت له باللغة العربية: «أنا قواد، كافر أم يهودي؟» وهي الصفات التي تطلق في الجزائر على الرجال الذين يعتبرون بالإضافة إلى بائعي الهواء، حثالة الانسانية. وبالكاد تلفظ بهذه الكلمات المستوحاة من وقاحة القنصل، حتى بدا وكأن القنصل تلقاها كصفعات على وجهه. لقد عاملوه كقواد ويهودي أو لوطي؛ الإهانة المضمرة باتت واضحة. فحسين باشا بالرغم من لطفه ومنطقيته ومسالته، لم يكن قادراً على احتمال انتهاك كهذا، وكان عليه تماماً أن يكون دون كرامة ولا شجاعة حتى لا ينتفض لكرامته.

في التقرير الذي كتبه مساء اليوم نفسه، لم يكن ديفال قادراً على كتابة كلمات بهذه الحدة. الاستنكار الشهير بخصوص اليهود والقوادين أصبح على لسان الداوي في تقرير القنصل: «وهل أنا ريفي، رجل منحط، متشرد؟». وجواب القنصل له أمسى: «حكومتي لن تكتب لك، لأن ذلك غير مفيد». وادعى هنا أن الداوي مدفوعاً بغضبه، سدد له ثلاث ضربات بمقبض منشة الذباب وأنه هو، ديفال، رد: «أرجو سعادتكم أن تعلم أنني أخاف الرب، لا العبد...». تلك كانت كلمة تاريخية، وبكتابته إياها ظن أنه قالها حقاً. في الحقيقة نهض الداوي، ودفعه بحركة غاضبة وأمره بالرحيل، وحين لم يأت القنصل المصعوق بأي حركة، دفعه بمقبض منشة الذباب على كتفه.

عاد الداوي وجلس معلناً، بهدف حسم الموضوع، أنه لا يريد أن يرى مدافع الفرنسيين في حصن القالة<sup>(1)</sup>. يمكن للفرنسيين أن يقوا هناك كما

(1) حصن القالة في مدينة القالة الجزائرية الساحلية.

في عنابة<sup>(1)</sup> وفي كل مكان، يتاجرون أو يصطادون ولكن دون مدافع. أراد ديفال أن يرد بأنه إن كان لدى الجزائريين مدافع، فذلك بفضل الفرنسيين الذين أداروا مصاهرها، وأن البقاء في القالة دون مدافع يعني تعرضهم لعدد من عمليات الغدر من قبل الإنكليز. لكن لم يكن لديه الوقت. هذه المرة أيضاً، الداوي، غاضباً، أمره بالرحيل. فرحل فعلاً بصمت، دون أي شهود آخرين، سوى المحيطين بالداوي.

(1) مدينة جزائرية.

## ما بعد حادثة المروحة

### 1

اليوم ما عاد حسين يتذكر جيداً، واختلطت حقيقة ما حدث مع ما كان يأمل بحدوثه. هل ضرب القنصل لأنه رفض الخروج أم أن تلك التريئة شبه الودودة بمنشة الذباب هي التي أخرجت القنصل؟ اعتقد أن المروحة لمست وجهه لا جسده، كما يؤكد القنصل، الذي تلقى الصفعات وكأنه ولد يرفض الإذعان. الأمر المؤكد هو أن الداوي خرج عن طوعه، ليقوم بهذه الحركة القوية من يده التي يحمل بها منشة الذباب، وليرمي هذه الكلمات بوجه القنصل الذي كان يستحق الضرب بالهراوة أكثر مما يستحق هجوماً لفظياً: «أخرج أيها الرومي، يا ابن الكلب».

في البلاد العربية، لا أحديموت قهراً لأنه نعت بكلب أو بابن كلب. لا يمكن إعلان الحرب لهذا السبب. فلأن الشتائم في البحر المتوسط، ليست جزءاً من العادات، سرعان ما تمحى، وكان يكفي الداوي في اليوم التالي أن يستدعي القنصل ويعانقه، كما يتعانق الأعداء عشية المعركة، بكلمات تتخطى بدفئتها ما يفعله الآخرون بالخصومة، وأن يتبادلا أخبار العائلة وبعض الأسرار الفاحشة، ويتحدثا عن الشمس ويأكلا الكسكس معاً وينسيا كل ما جرى. كانت الصداقة بينهما لترداد قوة ولكن هذا القنصل، ابن تاجر للبضائع المستعملة، هو رجل بلا نسب. فهو لم يخرج من الباب الكبير للشؤون الخارجية وإنما من المكتب، لا بل من المطبخ. فقد كان لديه طرفة التي يمكن أن ترضي ضباط الصف الثاني والبوابين وتجار الكباب والموظفين المتذللين ولكن ليس كبار القوم.



الرجل الشاعر بالمهانة لا ينتظر أن يُطرد، بل يذهب دون أن يدفع إلى ذلك دفعاً. فقفصل يرى بلده مهاناً من خلاله لا يطلب مقابلة وزراء الداي كما فعل ديفال ليشرح لهم أن جلالته لم يفهم مطالبهم. نادى خادمه وامتنى الحصان مع كل الإذلال والاضطراب الذي يشعر به وعاد إلى منزله. لم يكتشف ديفال سوى مساء، عندما فاتح العضو الوحيد في الهيئة الدبلوماسية الذي أنشأ معه علاقة ماء، قنصل سردينيا، والوحيد أيضاً الذي أخذ تلقائياً الأمر على محمل الجد، أن الحادث يبدو أنه أخذ أبعاداً أكثر خطورة مما اعتقد، وناشد في نهاية تقريره التعامل مع هذه القضية بصرامة، وبالرد الذي تستحقه. فهل كان هذه المرة أيضاً يهدد بالتخلي عن مهمته القنصلية إن لم توافق الحكومة.

ورغم ذلك فقد انتظر أسبوعاً قبل أن يرسل البرقية. فلو كان متأكداً من حقه، أكان ليردد لهذا الحد؟ أليس أيضاً لأنه تردد بإضاعة رشوة المليون فرنك ألماني، هذا إذا افترضنا أنه لم يحصل عليها سلفاً؟ أو أنه... ابتسم الداي حسين. ربما تخيل هذا الكلب أنه ما إن تُرفع هذه القضية إلى مجلس الوزراء حتى تتحول ضربات المروحة إلى ضربات مدفعية، وبأن الداي سيقدم اعتذاراته وسيساوم وسيقدم له من جهته مليوناً آخر لكي يتفادى الحرب. فليدخل القنصل إذن وليستفد من هذا النزاع العابر لكي يمحو المظالم السابقة وينظف كل هذه المياه الوسخة. مع براءة مزروجة بالمكر، اعتقد الداي حسين أنه أحبط نوايا القنصل. ومرت الأسابيع ولم يحدث شيء. في النهاية، بعد اثنين وأربعين يوماً من ضربة المروحة، تلقى القنصل التعليمات من حكومته.

## 2

كانت الاتصالات في ذلك الزمن بطيئة جداً، ولكن لا يبدو أن هذا السبب الوحيد للبطء، بل الوقت الذي انقضى لكي يدرك ديغال أنه تلقى إهانة، وحاجة حكومة شارل العاشر إلى دراسة الموضوع قبل أن تقرر القيام بالحملة. في قصر وزارة الشؤون الخارجية كانوا يحاولون وزن كل النتائج المحتملة للحادث ثم قرروا. في الحادي عشر من يونيو 1827، وصل المركب الشراعي لا تورش سابقاً بيوم واحد وصول أسطول الحرب إلى الجزائر.

صعد القنصل مع المواطنين الفرنسيين على متن لا بروفنس التي كانت ترفرف فوقها راية الأميرالية. بعد يومين من المؤتمر، تسلم قنصل سردينيا رسالة موقعة من قائد الأسطول، حملها إلى الداى، بلهجتها التي تشبه إنذارات بونابرت: على الداى أن يرسل إلى متن السفينة وزيره للشؤون الخارجية ليقدم اعتذاره لقنصل فرنسا، ويرفع العلم الفرنسي على الميناء وعلى حصون القصبه لثمة تحيته بمائة ضربة مدفعية. وبعد ذلك سيعلن الداى بأن فرنسا وفت بكل ديونها في قضية بكري، وكبرهان عن صداقتها ستخص فرنسا بمعاملة تجارية مميزة. كان لدى الداى 24 ساعة كي يرد. وإن جاء الجواب سلبياً، فإن سيف الحصار سيسلط على الجزائر.

لماذا على الداى أن يستاء؟ فقد حدث مرة أن تحده الإنكليز ولم يعودوا ثانية. فبسبب ذكرى الخسائر التي تكبدوها عند قصف اللورد إكسماوث، لم يحاولوا العودة للاحتكاك بالجزائريين. وبدورهم، سيدفع الفرنسيون جراء غطرستهم. فقد كان رد الداى هزلياً: «أستغرب أن الفرنسيين لم يطلبوا زوجتي». وقام بحركة صغيرة بيده تعني: «انس الأمر، لن يحصلوا على

شيء». القضية ستنتهي إلى لا شيء وقد ظهر الأسطول، وديفال الجبان على متنه. وبعدها مباشرة، وكجواب سريع دمر الداى حصن القالة. رد سريع في الجزائر أسرع مما هو في باريس.

بعد أربعة أشهر، أعطى الداى حسين الأمر للبحرية بالهجوم على قافلة الحصار. وجرت المعركة بالقرب من الجزائر. ولولا البحر الهائج، كان الفرنسيون ليدمروا السفن الحربية الجزائرية الاحدى عشرة. وخلص مؤرخو ولاية العرش إلى إن ربح النصر ستعصف على المؤمنين وريح الخزي على المسيحيين. وبعد شهر، يوم سبت، وبعد ثلاث ساعات من غياب الشمس، لمع ضوء قوي في السماء. وبعد سؤالهم قال المرابطون<sup>(1)</sup> إنها إشارة على النصر، فشعر الداى بالاعتزاز.

غير أنهم، في باريس أعادوا الحياة للمشروع الذي تعثر قبل عشرين عاماً مع بونا برت. ماذا سيفعلون بالجزائر بعد استرداد تعويض خمسين مليوناً من خزينة ولاية العرش؟ هل ينسحبون بعد القضاء على العبودية والقرصنة، وبعد تدمير الحصون وسحق الميناء؟ هل يستبدلون الداى بأمير عربي والقوات التركية بجيش وطني؟ هل يسلمون حماية المدينة لمالطا أو يقسمون البلاد بين قوى المتوسط؟

فالحصار أمسى مداناً من الجميع لعدم فاعليته ولكلفته الباهظة. وقد كتب شعراء من مرسليليا يسخرون منه وعرفت أشعارهم هذه شهرة لا حدود لها، كانت فيه «هيلانة» حرب طروادة الجديدة هي بكري الذي

(1) المرَبَطُ والمرابط. المرابط هو اسم يطلق على الشخص الزاهد في الدنيا أي المتصوف وهو أيضاً ولي صالح. والمربط هو الاسم الذي يطلق على القبة التي يسكنها. وتسمى المرابط أيضاً نسبة إلى المرابطة أي ملازمة المكان وهي تسميه تستعمل في البلدان الإسلامية بشمال إفريقيا.

هدده الأتراك لأنه تأمل بإعادة إحياء امبراطورية يهودية.

فقد تردد أن الداوي لم يكن لديه يوماً النية بإهانة فرنسا وأنه كان أميل للاعتدال. فبالنسبة للكثير من المسؤولين، تمت سرقة الداوي، كما رُذ على طلباته بالشتائم وعلى غضبه بالتهديدات. فولي العرش الفرنسي لم يخف معارضته للحملة وقد ماطل بها.

كانت تنقص حسين المعرفة بالحرب النفسية. مفتوناً بشعرائه الخاصين، أصبح بدوره متعجرفاً، مقارناً فرقاطات الحصار التي ترافق على وقع الموج العالي بفتيات باليه - رويال<sup>(1)</sup> وقد دفع غالباً ثمن رؤوس البحارة الفرنسيين المقتولين على الشواطئ.

عندما عادت لا بروفنس في يوليو 1829، وعلى متنها أميرال بريتونير<sup>(2)</sup>، من أجل التفاوض، لم يرفض الداوي العصا الطويلة التي مدها إليه الفرنسيون: فمن أجل إعادة بناء علاقات الصداقة مع الملك شارل العاشر، كان يكفيه أن يرسل ضابطاً إلى باريس مع رسالة مجاملة. شرح الداوي نفسه طويلاً، بسهولة فاجأت الأميرال، ولكنه أراد في البداية أن يتنازله عن القلعية الشهيرة بمدافعها الأربعة وعشرين لا ليرت التي كان معجباً بها وزير بحريته وقراصنته لمزاياها الشراعية. على متن هذه القلعية، كان يمكن أن يقدموا الاعتذارات. وبما أن الفرنسيين رفضوا هذا الغرور، رغم ما ينطوي عليه من مديح، ووصفوه بالشاذ والساخر، هنا عاند الداوي: لن يرسل أحداً، وإن أرادوا السلام فلن يوقع سوى هنا في الجزائر دون حضور القنصل ديفال الذي وصفه بالوغد. وقدم روايته الخاصة

(1) Palais Royal وهو القصر الملكي الفرنسي.

(2) La Bretonnière-la-Claye هي منطقة فرنسية ساحلية.

عن ضربة المروحة وأضاف أنه لو لم يحمه، لكان القنصل هلك من شدة الغضب الشعبي. ولكنه ذهب بعيداً في سخريته وعجرفته. فعندها ظهرت سفينة الأميرال بأشرعتها المنخفضة وبالراية البرلمانية على الصارية الأمامية وراية الملك فوق صاري المؤخرة وراية القيادة على السارية الكبيرة، في الثالث من أغسطس، قصفها الداى. كانت مدفعات المرفأ لتدمر السفينة لولا الحظ الذي حماها، لأنه من أصل ثمانين طلقة مدفعية تلقته السفينة، بكل شجاعة، ثلاث فقط أصابتها.

وصل خبر الإهانة إلى باريس في لحظة انهيار الوزارة. وعلى رأس الوزارة الجديدة، عين الأمير دو بولينياك البارون دوساي في البحرية والكونت دو بورمون في وزارة الحرب. بعد أن جسوا نبض كل العواصم الأوروبية، اقترح السلطان الذي كان قلقاً، إجبار الداى على إبداء ندمه: أن يعود أميرال بريتونيير إلى الجزائر ويعاد تقديره على متن السفينة ويطلق جميع السجناء. إهانة للقنصل؟ كانت أساليب دوفال وتصرفاته غريبة جداً... إطلاق المدافع على السفينة الأميرالية؟ كان سوء تفاهم. صحيح، كان الداى ليأسف على تصرفاته، ولكن في باريس، كان الفريق المؤيد للحرب قد انتصر، فباتت الآن قافلة الحملة في طريقها إلى الجزائر ماثلة البحر بأشرعتها.

## 3

يجب التصرف. كان على الداى الاحتراس فوراً من هؤلاء المغامرين البائيسن وهم الإنكشاريون، وأن يرمي بعض الأقجة<sup>(1)</sup> كرواتب متأخرة

(1) الأقجة عملة عثمانية.

واستشارة حماسة قادة الشرطة. بالنسبة لليهود، فكل الشر يأتي منهم. وليس من الجانب المقابل الأفريقي الذي تبنى العادات الإسلامية وركد في البؤس والجهل، ولكن من قبل الأغنياء المهاجرين من الإسبان ومن ليفورني الذين كانت لهم اليد الطولى في التجارة. فعلى بوشناق وبكري كان يجدر رمي الشتائم، ومنهما يجدر التحوُّط، هذه الديون التي لم توف يوماً، هذه السرقات المستمرة، هذه الاختلاسات من أموال الدولة والتي جعلت حسين المسكين المعتكف في القصبه، يعتقد أنه ضحية تقلبات المناخ والأرض.

اهتاجت الجزائر، وتخيل الجزائريون كل ما يمكن أن يحدث إن اختفى الأتراك. وبسرعة وزع الداوي برانس حمر وسيوف. وضحى بالإنعام للمرابطين وأرسل الهدايا إلى الأئمة. وسرت الشائعة أنهم وجدوا في الطرود الآتية من تونس بلاغات للقائد العام للجيش الفرنسي. وقد تلقى مائتي تاجر هذه الوثيقة المكتوبة بالعربية في صناديق من العينات التجارية الآتية من إيطاليا والتي سرعان ما أمسكت بها الشرطة. في هذه الوثائق يعلن الفرنسيون أنهم سيصلون كمحررين. ورددوا ما كتبه السيد دو بورمون: «لا نريد أن نحتل الجزائر ونبقى فيها الأسياد: نحلف على ذلك بدمنا. نريد أن نطرد الأتراك، أعداءكم وطغاةكم الذين يظلمونكم ويهددونكم دون توقف. إن التحقتم بنا، إن اظهروا أنكم تستحقون حمايتنا وإن أصبحتم أنتم حكام الجزائر كما كنتم سابقاً، أحراراً وأسياد بلادكم الأم. سنحترم أموالكم وممتلكاتكم وعائلاتكم ودينكم المقدس لأن ملكنا يحمي كل ما هو مقدس...». «أحرار وأسياد بلدكم الأم... إلخ، إلخ، إلخ...». بضم مفتوح لإحداث المزيد من الوقع، ترك شلالاً من الحروف

تسقط وتتدافع، لتذهل على نحو كاذب وتتطور وتمتد فوق ابتسامة ساخرة. بالطبع فإن الكفار يجيدون فن التعبير واستمالة المسلمين، ولكن كيف يمكن الثقة بهم؟ ما عاد الجزائريون يخشون الأتراك. فقد استوعبوا كمستعمرين شيئاً فشيئاً المستعمرين. سقطت هيبة الأتراك، فبالكاد ما زالوا يسيطرون سيطرتهم على مدينة الجزائر ومتيجة وشرشال وقسم صغير من منطقة القبائل.

لطالما كان الجزائريون شامخي الرؤوس، مستعدين للانتقاد والشجب. كل مساء، ومن أجل الانتقام لغرورهم وللابتزازات الصغيرة، يعتدون على الإنكشاريين ويتظاهرون بعدم إيجاد المجرمين. دعا الداوي ضباطه للتصرف وكأنهم لا يعرفون شيئاً. في بداية احتلالهم، حرم الأتراك على موظفيهم وعسكريهم التعاطي مع النساء الجزائريات، وبالطبع من الزواج بهن. وأول من كسر القاعدة كان أعور. وباتوا يسمون أبناءه بأولاد الأعور، ثم الكراغلة<sup>(1)</sup>. وأصبح هناك الآن كراغلة بقدر ما هناك أتراك لحد أن الدولة وضعت لهم تشريعاً خاصاً. ما الذي سيحصل مع الفرنسيين؟ وهل سيتذكرون وعودهم عندما يصلون إلى الجزائر؟

كانت المدينة تعاني من شح في التموين الغذائي. فمنذ أول ظهور للقافلة الفرنسية للحصار منذ ثلاث سنوات، ما عاد التجار في بقية مدن الجزائر يجرأون على تموين العاصمة بالخضار والفواكه والأغنام. ففي حين ومنذ بضعة أيام، كان التجار ما زالوا يشتكون من أنه عليهم أن يستأجروا المخازن لجمع ما لا يبيعونه خلال الحصار، فرغت فجأة المخازن لأن السماسرة أملوا بأن المجاعة ستضرب وبأنهم سيبيعون العسل والسكر

(1) هم العائلات من أب تركي وأم جزائرية، والكرغلي لغويا في التركية يعني ابن السمراء.

والحبوب والسميد بأرباح هائلة. وقيل أيضاً إن الداوي حسين لديه دم يهودي لذلك أظهر ذلك القدر من التسامح مع بوشناق وبكري او بن دوران وإن طمعه هو ما أضاعه. غير أن شرطته كانت منظمة جيداً. ويقال أيضاً إن عشرين ألفاً من رجال القبائل نزلوا من الجبال للالتحاق بالعشرين ألفاً من رجال مصطفى، باي التيتري، عندما أرسلت القسنطينة وهران جنودهما وخيالتهما، أي جيش يمكنه أن يحمل معه كل شيء لكي يقاتل في أرض غريبة ويعيش فيها؟

بعد الظهور الأول للقافلة، عقدت قيادة الأركان اجتماعاً بالقرب من سيدي فرج، على هضبة تشرف على شبه الجزيرة، تزعمه إبراهيم كونه الآغا وخوجة من القصر ممثلاً الداوي حسين، وخليفة ممثلاً باي وهران. أحمد باي من القسنطينة الذي وصل للتو مع أربعمئة خيال كما العادة كل ثلاث سنوات من أجل دفع الجزية، اللمزة، أظهر في البداية تحفظاً على المشاركة.

قال الآغا إبراهيم إنه عليهم بناء المتاريس على شاطئ البحر وتعزيز القوات هناك بالقواعد لمنع الفرنسيين من الإنزال. وشدد على ضعف القافلة التي تقرب من الشاطئ، وعدم استقرار الهواء ومخاطر العاصفة وصغر ميناء سيدي فرج. كل الحظوظ، حسب رأيه، هي لصالحهم، شريطة أن يستغلوها وألا يفرغوا من حجم الآليات وأعدادها، لأن الفرنسيين أضعف مما يتخيلون.

صمت مصطفى، إذ بدا له أن سداجة إبراهيم تفوق سداجة الجميع. خمسة من خدم إبراهيم لا يفارقونه للحظة، واحد يحشو له غليونه، وآخر يقدمه له، وثالث يمسك بالزمام بغلاً محملاً بالتجهيزات الضرورية لإعداد



القهوة، والرابع مسؤول عن الطعام، والخامس مسؤول عن فرش السجاد على الرمل عندما يترجل الأمير من حصانه لكي يرتاح.

التفت ممثلاً القصر ووهران نحو باي القسطنطينة الذي وافق على ما سمعه للتو وأعلن تأييده لرأي ابراهيم. ولكن كيف يمكن تحويل الجزيرة إلى قلعة؟ فلا يوجد في سيدي فرج سوى سور قديم مدمر، يتطلب إصلاحه شهوراً من العمل، ولن يكون ذلك مفيداً. أما بناء المتاريس فيبدو له يوتوبياً للغاية. بم سينفع ذلك؟ إذ يمتلك الأسطول الفرنسي قدرة تدميرية من شأنها أن تمحو بدقائق كل ما سيقومون ببنائه على عجل. وكل هذه الجهود ستضيع سدىً.

«انظروا حولكم، أضاف هذا الرجل الذي يتمتع بحس سليم. هل ترون طرقات أو وسائل نقل؟ ليس هناك سوى الأجمات، وبعض الطرقات التي لا تمر عليها سوى الحمير والبغال، والبحر. إذن ليس لديكم سوى البحر لتحملوا عبره ما هو جاهز من المعدات والأدوات والرجال والتسليح الضروري. ولكن من أين يمكن أن تأتوا بالمدافع سوى من الجزائر؟ لكن على قوة الجزائر أن تبقى مصانة. فكرة الآغا إبراهيم كانت ممتازة: ولكن فات الأوان عليها، وثمة احتمال بأن يظهر الفرنسيون بين يوم وآخر. وما إن يصلوا، أقترح بأن ننسحب، على امتداد الشاطئ باتجاه الغرب لكي نستدرجهم إلينا، ونجبرهم على جر آلياتهم على امتداد الشاطئ».

أعجبوا بخطاب الباي أحمد الذي يعرف كيف ينتقد دون أن يجرح ويجعل خطأ عدم التحضير هذا يقع على كاهل الآغا السابق. ورغم ذلك فإن فكرة عدم الهجوم مباشرة على الفرنسيين ودفعهم بالاتجاه المعاكس للجزائر لم تلاقي إعجابهم. كل حجج باي القسطنطينة تحطمت على حائط

غرورهم. إلا أنه حاول مرة أخرى.

«من هم هؤلاء الفرنسيون الذين ننتظرهم؟ إنهم غرباء، يعني رجال توافقون لإنهاء ما بدأوا به. أتعتقدون أنه لو كان شارل الخامس أقل استعجالاً، ألم يتمكن من إسقاط المدينة؟ فقد تراجع لأن عصفه ربح ضربت قافلته. ولكنه كان يملك طرقاً أخرى لتدميرنا. في الحقيقة، عند أول سقوط، وأمام أقل المعوقات يفقد هؤلاء الناس شجاعتهم. لنؤخر خطط الفرنسيين لشهر واحد فحسب، عندما يبدأ الطقس الحار، فهؤلاء الجنود ليسوا سوى رجال شاحبي الوجوه وسيهلكهم الطقس وشح المياه والأمراض والذباب. عون الله، هذا ما نحتاج إليه، صاح مشيراً إلى السماء والبحر. فالبحر لا يحمل سوى الخطر لمن يجهله. حتى في هذه اللحظة، فإن عصفه ربح من الشرق أو إعصاراً من الشمال يمكن أن يجبر السفن على الرحيل. ومم سنخاف إن انسحب الفرنسيون إلى مكان مهجور وصحراوي كهذا؟ خراب الحرب سيكون محدوداً ولن يكون عليكم دفع أي تعويض للمالكين. فمن جانبي، لو أردت رؤية الأوجاق<sup>(1)</sup> منتصرين فسأذهب إلى غرب سيدي فرج من جانبي مصب وادي مزهران، في هذه المنطقة التي تتخللها ستة مجار من الماء تضيع بين الرمال، وهكذا إما أن يمشي الفرنسيون حتى الجزائر فنلتف عليهم من الخلف ونقتل المتباطئين منهم وننقض على قوافلهم ونفصلهم عن مراكبهم، وإما أن ينطلقوا مباشرة باتجاهنا فننهكهم؛ نوهمهم بأننا لسنا قادرين على مواجهتهم، لكي نستدرجهم أكثر فأكثر إلى المستنقعات، حيث سيغوصون من دون أن تتجرأ قافلته على ملاحقتهم عن كثب. وعندما نستدرجهم إلى حيث

(1) الأوجاق هم عسكر الإنكشاريين.

نريد، نقضي عليهم. هذا هو رأيي يا سادتي».

كلام الباي أحمد هو المنطق بعينه، ولكن لا يشبه الفكرة المختلفة عن الجزائر وعن الأوجاق المنتصرين. على طريقة المؤمنين، هو أيضاً يطلب من الله الرحمة والسلام، وهو أيضاً يظهر ورعاً كبيراً ويحمل مع العمامة الصفراء أيضاً لقب الحاج، وعباءة مكة. ولكن ماذا سيقال عن جيش ولاية العرش؟ كيف سينظر إلى قائده الذي من المفترض أن يثبت شجاعته؟ في مواخير المدينة العليا وفي الجوامع وفي المقاهي البربرية، كيف سيرون إستراتيجية بطيئة وحذرة لهذه الدرجة، في حين أنه وفي كل يوم ربما، ستقصف القافلة الفرنسية الجزائر؟ هل سيتهمون الآغا بالجن وهل سيعين الداى شخصاً آخر مكانه، مصطفى مثلاً، الذي لن يتأخر بضرب الداى لو أتحت له الفرصة.

مرر إبراهيم أصابعه برقة على عنقه. فهو يعرف جيداً نهاية من يُهزم. ومن أجل فرض هذا الانتصار، جاء على صهوة فرسٍ رائعة الجمال، مع سرج مبطن بالمخمل المذهب. حذاء جلدي أحمر ومسدسان مرصعان بالفضة، ومزدانان بالحجارة الكريمة عند المقبض، لديه ركاب سرج أكثر فخامة من ركاب مصطفى، وقافلته تتألف من زهاء عشرين خيالة يحملون الرايات التي يعلوها رسم الهلال وذيل حصان. فعدم الإنقضااض على الفرنسيين لحظة إنزالهم كان ليعتبر من الجميع جنناً: إن دعم العرب في حربهم العادلة، سيعطيهم الرب النصر، ولا يمكن غير ذلك.

وافق الجميع وكان على أحمد أن يزايد بخصوص الاتكال على التدبير الإلهي. وذهب حتى توصية الملائكة والنبي بحماية الجزائر. من جهته،

تعجل لإخراج يطقانه<sup>(1)</sup> ولاصطحاب خياله لقتل الفرنسيين. ورأى أن يتم بناء قواعد في سيدي فرج والسير حتى ملاقاتة العدو. في ظرف أسبوع، لا يمكن سوى قطع بعض الأجمات أسفل الهضبة واستحداث بعض الخنادق. قاعدتان في مكان أبعد مزودتان بمدفعية وبقاذف من العيار الخفيف في غياب الوسائل الأخرى. عندما ظهرت القافلة للمرة الثانية، اعتقد الداوي حسين بأن فكرته ستنقذ خزينته لأن السؤال الكبير كان كيف يمكن تأمين بدل الأوجاق كل شهر: فقد أرسل كل الحامية العسكرية للالتحاق بالآغا ابراهيم. كما رفض حتى تحصين المدينة من جهة البر، من حيث يمكن أيضاً أن يأتي الخطر، لأنه ما زال يفكر بشرك ما، وأمر وزير البحرية بمضاعفة التسليح لجهة البحر، إن اقتضت الحاجة. فمن هنا دائماً، كما أضاف، تأتي المخاطر. وعصراً، وزع إبراهيم الخرطوش.

لم يعرفوا إن كانت القذائف التي أطلقت على السفن الراسية الأقرب إلى الشاطئ، أصابت أهدافها أم لا، لا بل إن معظم القذائف التي أطلقت لم تصوب جيداً وانفجرت في السماء، ونحو الخامسة بعد الظهر، انفجرت إحداها ما إن خرجت من القاذف وأجفلت من كانوا بقربها. وأعتقدوها علامة من الرب تشير إليهم بالبقاء هنا. لكن ما عاد أحد يرغب في البقاء هنا يرمي هذه الألعاب الرديئة إلى هذه الدرجة. رموا زهاء عشر قذائف إضافية، قبل ان يعلن قائد سلاح المدفعية أنه بحاجة للذهاب لمراجعة ما لديه من معدات، وأنهم لو أرادوا الاتكال عليه في الغد فعليهم تدبر الأمر منذ الآن. إنه موعد صلاة المغرب، توزعوا مشتتين في كل مكان، مناشدين

(1) يطقان هو سيف تركي محذب.

الرب. اصطبغت السماء فوق شنوة بالحمره، أما الجياد التي أدارت وجهها صوب البحر، فأخذت تصهل.

## التسلسل الزمني

قرنان من الزمن من الحكاية الفرنسية - الجزائرية  
وضعه غوي دوغاس (جامعة باريس 12)

1770- يؤسس الأخوان ميشال كوهين ويعقوب بكري، مع يهودي جزائري هو نفتالي بوجناح الملقب ببوشناق، مؤسسة بكري أخوان وبوشناق.

1794- بأمل التجارة مع الجمهورية الفرنسية الفتية، أوصى داي الجزائر حسن باشا، وهو تحت وصاية العثمانيين، أمام مجلس الأمن الوطني، ببيعقوب بكري كوكيل له.

1796-1799 عبر وساطة مؤسسة بكري - بوشناق، قام الداوي ببيع الحبوب إلى جيش بونابرت، خلال حملتي إيطاليا ومصر، وهي ديون لم يتم الوفاء بها يوماً.

1808- النقيب بوتين، الجاسوس الذي أرسله بونابرت إلى الجزائر، يضع خططاً سرية لإنزال مفترض على شبه جزيرة سيدي فرج واصفاً بالتفاصيل ضواحي مدينة الجزائر.

1826- الداوي حسين الذي خلف الداوي حسن، يتوجه إلى شارل العاشر ويطلب منه أن يسدد، من دون تمديد ولا تأخير، ديون فرنسا، التي وصلت مع لويس الثامن عشر إلى سبعة ملايين فرنك ذهبي.

1827- التاسع والعشرون من أبريل، وخلال محادثة غاضبة مع الداوي، ادعى القنصل الفرنسي بأنه تلقى منه ثلاث ضربات بالمروحة.

هدد بترك مهامه إن لم تنتقم فرنسا له. في فرنسا، حيث بدت الحكومة مربكة، أدارت الصحافة القضية. شاعران مرسيليان، ماري وبارتيليمي، نشرتا تحت عنوان «الباكرياد (من بكري) أو حرب الجزائر» قصيدة ملحمية ساخرة:

كل باريس تعلم أن الداوي المتعجرف  
صنع فرنسا على خدها الملوكي.

لترفع كل الأصوات

من كل التراب الفرنسي مستنكرةً.

باع البارونات أملاكهم القديمة،

وفي العروق عاد الدم القديم للصليبيين يغلي

وحمل كل شجاع في زنزانية رايته،

الجميع غاضب والجميع يتسلح ولكن أحداً لا يذهب للحرب.

يونيو: أسطول حربي يرسو قبالة مدينة الجزائر طالباً من الداوي الاعتذار والإعلان أن فرنسا سددت كامل ديونها! هذا الإنذار انتهى برفض حاسم ونهائي. فخضعت ولاية العرش في الجزائر إلى حصار بحري.

1830 - يونيو بعد فصول عديدة من سوء التفاهم والضغط، وبعض الفرص الضائعة للتفاوض، ينجح الفريق الداعي إلى الحرب في باريس.

14 يونيو: أسطول الأدميرال دوبريه - برفقة وزير الحرب الكونت دو بورمون - يقوم بالإنزال في المكان نفسه الذي اقترحه الجاسوس بوتين.

4 يوليو: ترسو أخيراً قافلة الجياد والمعدات الثقيلة، ويتمكن الجيش من

مهاجمة حصن الإمبراطور ومدينة الجزائر.

23 - 25: يوليو، هزيمة المارشال دو بورمون أمام البليدة.

27 - 29: بعد «الأيام المجيدة الثلاثة»، شارل العاشر يتخلى عن السلطة

لدوق أورليان لويس فيليب.

1831- يحتل الجنرال دامرومون - الذي مات في 1837 عند احتلال

القسنطينة - وهران ولكن ليس من دون مقاومة.

1834- الثاني والعشرون من يوليو، أمر ملكي بإرساء نظام التملك الفرنسي

في شمال أفريقيا، يدعم توسيع الاستيطان، ويأتي بعد الكثير

من المواجهات العسكرية.

1840- الجمهورية الفرنسية تعلن الجزائر مقاطعة فرنسية. زيادة عديد

الجيش الفرنسي، وتسمية الجنرال بوجو حاكماً عاماً.

1843- دوق أومال ولاموريسيير يلقي القبض على عائلة عبد القادر

الجزائري، والذي وعلى امتداد خمسة عشر عاماً قاد كافة

حركات المقاومة ضد الاحتلال.

1847- استسلام الأمير عبد القادر والذي لم يكن نهاية المقاومة: ففي

شرق وجنوب القسنطينة العام 1852، وفي منطقة القبائل من

العام 1854 وحتى 1859، وفي وهران بين 1858 - 1859، ثم مرة

أخرى في منطقة القبائل عامي 1864 و1865، حدثت انتفاضات

قمعت غالباً بعنف.

1852- إعلان الإمبراطورية الثانية.

1857- الأول من يوليو، يطلق الحاكم العام راندون حملة دموية في

إيفرغونن، التي كانت عائقاً أمام «فرض السلم» في منطقة



القبائل، وبتلك المعركة يتمّ الفرنسيون سيطرتهم على بلاد الجزائر.

1858- الرابع والعشرون من يونيو، استحداث وزارة الجزائر والمستعمرات، وأول الشاغلين لها هو الأمير جيروم نابوليون. هذه الوزارة لم تدم طويلاً، وأعاد مرسوم 24 نوفمبر 1860 تعيين دوق مالاكوف المارشال إيمابل بيليسيه، حاكماً عاماً للجزائر.

1860- من السابع عشر وحتى التاسع عشر من سبتمبر، يزور الإمبراطور نابوليون الثالث والإمبراطورة أوجيني ليومين مدينة الجزائر. الإمبراطور الذي عاد بانطباع جيد جداً عن السكان الأصليين، يمكث لفترة أطول في زيارة لاحقة العام 1864 (الثالث من مايو - السابع من يونيو).

1863- للمرة الأولى، مرسوم من مجلس النواب يضمن لسكان البلاد الأصليين حق امتلاك أراضيهم، يقول «إن القبائل الجزائرية تمتلك الأراضي التي تقيم فيها وتستغلها...». ولكن من دون تجريم كل عمليات القضم التي حصلت منذ العام 1830.

1865- الرابع عشر من يوليو، مرسوم نيابي أيضاً يحدد الوضع القانوني لمسلمي فرنسا: «المسلم من سكان البلاد الأصليين هو فرنسي، غير أنه يبقى خاضعاً للقانون الإسلامي. يمكنه أن يتجنّد في المشاة والبحرية، ويمكنه أن يشغل وظائف مدنية في الجزائر. ويمكنه بناء لطلبه أن يطلب الانضمام لفرنسا والخضوع لقوانين المواطنين الفرنسيين، وبهذه الحالة عليه الخضوع للقوانين المدنية والسياسية الفرنسية».

1870- انطلاق الكثير من الزواوين إلى الحرب ضد بروسيا مما أضعف سلطات الاحتلال في الجزائر.

سبتمبر، هزيمة سيدان وانهايار الإمبراطورية الثانية وإعلان الجمهورية الثالثة. نهاية النظام العسكري في الجزائر.

نوفمبر، مرسوم كروميه يمنح الجنسية الفرنسية وبشكل جماعي ليهود الجزائر، وهو المرسوم الذي اعتبره المسلمون تمييزياً وغير عادل.

1871 - انتفاضة جديدة في منطقة القبائل وفي «الهضاب العليا» التي يديرها الباش آغا مقراني، أحد إقطاعيي بجاية، تضغط على السلطة، فيستغل الجيش الفرصة لإثبات قوته. مصادرات أراضٍ وغرامات عالية. المقراني يقتل في مايو.

1881-1883- رجال «أبو عمامة» يهاجمون المراكز العسكرية غرب وهران وجنوبها قبل أن يلتجئوا إلى المغرب جارة الجزائر.

1898- الاضطرابات العرقية ضد اليهود في شهر يناير تعطي لإدوارد درومون الفرصة بالتقدم للانتخابات التشريعية. ينتخب في الثامن من مايو نائباً للدائرة الانتخابية الأولى في مقاطعة الجزائر، ويستمر حتى العام 1902 رئيساً للحزب المناهض للسامية.

1901- في مارغريت، مستوطنة صغيرة، مجموعات من الفلاحين الثائرين يثون الرعب بين المستوطنين.

1911- مئات من وجهاء المدينة يرفعون عريضة إلى مجلس النواب من أجل تحسين أوضاع المسلمين، الذين أصبحوا خاضعين للخدمة العسكرية الاجبارية. ونتيجة للمطالبات يتم إدخال سبعة

وثمانون ألفاً وخمسمائة جندي إلى السلك العسكري من أصل مائة وثلاثة وسبعين ألف جندي من السكان الأصليين شاركوا في المعارك.

1914- الأول من أغسطس، الأمر بالتعبئة العامة يثير بقوة المناطق في الجزائر، ويسقط في المعارك أكثر من خمسين ألفاً من السكان الأصليين، واثنين وعشرين ألفاً من الفرنسيين الجزائريين.

1919- قانون كليمنصو (الذي أعلن من العام 1915، كان في البداية أكثر جرأة، إنما أجل تنفيذه لغاية انتفاء معارضة تدخل المجلس الأعلى في الجزائر)، وهو منح الجنسية الفرنسية لعدد قليل من الجزائريين من المؤيدين للفرنسيين.

نوفمبر، الأمير خالد، الابن الأصغر لعبد القادر، يحقق انتصاراً في الانتخابات البلدية في الجزائر، حيث اكتسحت لائحته جماهير السكان الأصليين وبعد تدخل رئيس لائحة منافسة، الطيب بلقاسم بن تامي، يقوم مستشار محافظ ولاية الجزائر بإلغاء نتائج الاقتراع بحجة أن المتنافسين الخالدين انتهكوا المبادئ العلمانية للجمهورية. بمرافعات مرابطية! نفي الأمير العام 1923.

1929- الجمعية التأسيسية للحزب الأول المستقل بشكل كامل، «نجمة شمال أفريقيا». في العام التالي أسس بمبادرة من فرحات بلعباس اتحاد المنتخبين الجزائريين، والذي يقوم برنامجه على التساوي في الحقوق والواجبات بين سكان المستعمرات أيّاً تكن جذورهم وديانتهم.

1930- مثنوية غزو الجزائر. في تونس والجزائر وبحضور الرئيس غاستون دوميرغ، أقيمت احتفالات باذخة تؤكد على السلطة الكولونالية المطلقة شمال أفريقيا.

1931- بما أنه كان بالنسبة لفرحات عباس «لا وجود للوطن الجزائري» أسس الشيخ بن باديس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» والتي كان شعارها «العربية لغتي، والجزائر وطني والاسلام ديني».

1934- أحداث خطيرة بين الطائفتين المسلمة واليهودية في القسنطينة: 27 قتيلًا، وتدخل الجيش وفرض حظر التجول.  
1936- إنشاء الجبهة الشعبية.

يونيو، اندماج بين اتحاد المنتخبين وجمعية العلماء لتأسيس المؤتمر الإسلامي الجزائري.

نوفمبر، «مشروع فيوليت» المدعوم من قبل ليون بلوم الذي يسعى إلى دمج أفضل للجزائريين في الجمهورية، والذي يواجه برفض كبير من قبل معظم المستوطنين.

1940- إبطال مرسوم كروميو 1870. ثم إعادة العمل به مع زيارة ديغول للجزائر.

1942- الإنزال البريطاني - الأمريكي في مدينة الجزائر.

1943- مايو، وصول الجنرال ديغول، الذي أعلن بسرعة عن إصلاحات في الجزائر: فتح الباب بشكل أوسع أمام إعطاء الجنسية الفرنسية وحقوق التصويت، وفي مرحلة ثانية لكل الجزائريين ما فوق الواحد والعشرين عاماً (خطاب القسنطينة).

1945- الثامن من يونيو في سطيف وقلمة وقسنطينة، تظاهرات تقمع بقوة وتوقع آلاف الضحايا. هذه الأحداث التي وقعت في اليوم نفسه الذي كانت تحتفل فيه أوروبا بالنصر على النازية، ولدت وعياً أكبر من ذي قبل لدى الأجيال الجديدة.

1946- أبريل، فرحات عباس يؤسس «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري»، ومصالي الحاج «حركة انتصار الحريات الديمقراطية».

1947- يقرّ مجلس النواب قانون إنشاء مجلس جزائري تشريعي يتكون من 120 عضواً تشكله جماعتان. وهو القانون الذي لاقى رفضاً جماعياً من قبل النواب المسلمين الجزائريين.

1954- مارس تأسيس «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» والتي كان هدفها التحضير للانتفاضة المسلحة. وبضمها في الخريف قيادات من الحركة الوطنية، أصبحت في نوفمبر ما يعرف بـ«جبهة التحرير الوطني».

ليل 31 أكتوبر، الأول من نوفمبر، سلسلة من الاعتداءات ضد المؤسسات العامة. وفي اليوم التالي اغتيال مدرس شاب وقائد في منطقة باتنة: «يوم عيد جميع القديسين الدموي» الذي أعلن انطلاق النضال المسلح من أجل الاستقلال. فرنسا تحل «حركة انتصار الحريات الديمقراطية» وتعتقل العديد من القادة الوطنيين.

1955- يناير الوضع في الجزائر يسبّب أزمة سياسية في فرنسا، إذ رفض مجلس النواب إعطاء الثقة لبيار مندرس فرانس وفضل إدغار فور. جاك سوستيل، الحاكم العام الجديد يصل إلى الجزائر مع ثلثة من الإصلاحات التي عارضها معظم المستوطنين.

في الجزائر تكثفت الاعتداءات (123 قتيلاً في فيليبيل) وعمليات القمع تحصد أكثر من ألف من الضحايا. اعلان حالة الطوارئ في أبريل وانتقال الأزمة الجزائرية إلى الأمم المتحدة.

1956 فبراير، في حين تم استدعاء سوستيل إلى باريس، تم استقبال الجنرال كاترو، المعين في وزارة الجزائر الجديدة، بالغضب وبقذف كل أنواع الخضار في وجه الزائر الجديد: إنه «يوم الطماطم». استقالة كاترو الذي خلفه لاكوست.

زيادة عديد القوات العسكرية إلى أكثر من أربعمئة ألف عنصر في الصيف. مفاوضات سرية مع جبهة التحرير الوطني في دول ليست أعضاء في الاتحاد الاوروبي، قطعت بعملية اختطاف طائرة قادة الثورة بن بلة، آيت أحمد، بوضياف، خيذر، لشرف في 22 أكتوبر، مما أدى إلى إضراب عام للتجار المسلمين.

1957- يناير ومرة اخرى في الربيع، سلسلة من الاعتداءات في المقاهي في مدينة الجزائر وكازينو لا كورنيش، والتي رد عليها مظلبيو الجنرال ماسو بعنف. بدء التوقيفات الاعتباطية، والتعذيب والإعدامات السريعة في العاصمة.

1958- الثامن من فبراير الطيران الفرنسي، ورداً على عمليات هجوم انطلاقاً من الأراضي التونسية، يقصف القرية الحدودية ساقية سيدي يوسف. ردة الفعل الكبيرة تؤدي إلى تدويل الصراع. 13 مايو، تظاهرة شعبية دعماً لفرنسا أمام مبنى الحاكم العام في الجزائر. يوم «الصدقة» يبدأ بنهب المبنى وإحراق المكتبة.

4 يونيو، الجنرال ديغول رئيساً للوزراء مدعوماً بكامل سلطات رئيس

الجمهورية، يزور الجزائر ويطلق خطابه الشهير: «لقد فهمتكم!».

19 سبتمبر، جبهة التحرير الوطني تعلن إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تحت قيادة فرحات عباس.

3 أكتوبر، من القسنطينة، يعلن ديغول، وبأمل إعادة إطلاق العملية السياسية والإدارية، خطة خمسية لإجراء تغييرات عميقة.

1959 الثامن من يناير، الرئيس رينيه كوتي يخلي كرسيه لديغول، وتعيين ميشال دوبريه رئيساً للحكومة. الجنرال ديغول وبول دلو فرييه يتكفلان كل في مجاله بإيجاد حل للأزمة الجزائرية.

في الخريف، تعلن الحكومة الجزائرية المؤقتة استعدادها للتفاوض. ديغول يعد الشعب الجزائري باستفتاء لتقرير المصير وهو ما قوبل برفض شديد من قبل مؤيدي الجزائر الفرنسية، أدى استفحاله إلى استدعاء الجنرال ماسو إلى فرنسا. دعم محدود لاقتراح باستقلال الجزائر في الأمم المتحدة.

1960- يناير، «أسبوع المتاريس». الجيش المقسوم التحق بوقت متأخر برئيس الجمهورية. ديغول يقصي شال المتهم بالخداءع. يونيو، محادثات ميلون تتوقف بشكل مفاجئ.

1961- استفتاء يعطي ديغول الصلاحية الكاملة لحل الصراع بشكل عاجل والحكومة الجزائرية المؤقتة تعلن استعدادها للتفاوض. انقلاب الجزائرالات شال وزيرل وسالان وجوهاد (21 ابريل) وضع الجمهورية في خطر ويؤدي إلى عودة الاعتداءات. محادثات في إيفيان ولوغرين، تنطلق بصعوبة في مايو، وتؤجل مراراً.

سالان على رأس «منظمة الجيش السري».

1962 - تصاعد الاعتداءات على جبهتي المتوسط. الرأي العام الفرنسي، التعب من الحرب والمصدوم بدموية منظمة الجيش السري يؤيد سلاماً فورياً.

مارس، المؤتمر الثاني في إيفيان والذي يؤدي في النهاية إلى اتفاق بين حكومة الجزائر المؤقتة والحكومة الفرنسية. توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار ولكن منظمة الجيش السري تصعد عملياتها. في السادس والعشرين، يطلق الجيش النار على حشود أوروبية تتظاهر في شارع إيسلي في الجزائر.

الثالث من يوليو، اليوم الأول من الاستقلال الجزائري. فرنسيو الجزائر، بأغليبتهم العامة، يغادرون الجزائر.





## نبذة عن المؤلف:

ولد جول روا في الجزائر 1907 في واحدة من عائلات المستوطنين الفرنسيين. وتابع دروسه الثانوية في المدرسة الإكليريكية. قبل أن يدخل إلى السلك العسكري في جند المشاة ثم الطيران العسكري في فرنسا لينتقل بعدها إلى بريطانيا ويشارك في الجيش الفرنسي للتحرير. في العام 1946 يغادر الجيش الذي اعتبر حربه في شبه الجزيرة الهندوصينية مخزية. ليتحول بالكامل إلى العمل الأدبي. حاز العديد من الجوائز الأدبية. وأصدر إلى أعماله الروائية والقصصية التي وصلت إلى أكثر من ثلاثين عملاً. أعمالاً مسرحية وشعرية. سنين حياته العشرين الأخيرة أمضاها متفرغاً للكتابة في فيزاليه. شمال شرق فرنسا وتوفي فيها 15 يونيو 2000.

من أعماله الروائية: "خيول الشمس". 1968 -  
1972. "صحراء ريتز". 1978. "موسم زا"  
غراسيه. 1982.

ومن أعماله القصصية: "سما وأرض". 1943.  
"الوادي السعيد". 1948. "البحار". 1954.  
"الخائنة". 1955. "الحروب الصليبية الجميلة".

1959. "حرب الجزائر". 1960. "معركة ديان بيان  
فو". 1963. "رحلة إلى الصين". 1965. "موت  
ماو". 1969. "رقص شرقي على وقع المدافع".

1976. "بيروت. يحيا الموت". 1984. "حب ما  
بعد الحرب". 1995.

## نبذة عن المترجمة:

ولدت ضياء حيدر في جبيل، لبنان. درست الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية. وعملت في الصحافة اللبنانية بين عامي 1996 و2005. قبل أن تنتقل للعمل والعيش في الإمارات، حيث تعمل في مجال الترجمة والصحافة الإلكترونية. لها في الترجمة: "سلاحف بوليلنغا"، "في بلاد تيتو"، "زيبولين الصغيرة جدا"، وغيرها.

## سيدي فرج

ماذا حصل؟ كيف وقعت الجزائر المظفرة. الجزائر المحمية؟ أم هو عمى جماعي؟ أم استخفاف بإمكانيات العدو. أم سلسلة أضاليل. أم مشيئة إلهية؟ كان في الأمر شيء من كل هذا على الأرجح. لأنه لم يبق أي أمل وأفسدت الهزيمة الضمائر فعند القلعة جماهير لم يشتتها الليل تفرع الأبواب. وهو حسين المسالم المؤمن البورجوازي الهادي، يجد نفسه مضطراً إلى لعب دور البطل.

المعارف العامة  
الفلسفة وعلم النفس  
الديانات  
العلوم الاجتماعية  
اللغات  
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية  
الفنون والألعاب الرياضية  
الأدب  
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة



أبوظبي للثقافة والتراث  
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة  
KALIMA

